أوبـونـتو

الطبعة الأولى
1441 هـ
2020 م

اسم الكتاب:	أوبـــونـــتو
التأليف:	دعاء علي
المراجعة اللغوية:	عبد القادر أمين
موضوع الكتاب:	رواية
عدد الصفحات:	**232** صفحة
عدد الملازم:	**14.5** ملزمة
مقاس الكتاب:	**14x20**
عدد الطبعات:	الطبعة الأولى
رقم الإيداع:	**2019/ 28514**
الترقيم الدولي:	**978-977-278-805-7**

دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

أوبـونـتو

رواية

دعـاء علي

دار البشير للثقافة والعلوم

الإهْداء

إليك

لكأنّي وميضك الذي يُسكرك وأنت بلذّة الناظر مكتفٍ، ولكأنّك رزقي لكنّ البحر أخرجك في يوم سبتي!

إليك حرفي وإيّاك أحبّ.

من أمثال العرب

"المرأةُ مِنَ المرءِ وكلُّ أدْمَاءَ مِنْ آدَم"

قيل: "إنَّه أوَّل مثلٍ جرى على لسان العرب".

مازالت نسوة المدينة يقفنَ بين الجموع وهنّ شاخصات الأبصار كأنّ على رؤوسهنّ الطير، هنّ لا يُصدقنَ ما يرونَه ويسمعنَه؛ بل ويستنكِرن؛ كيف أنّ أمًّا تترك صغيرها لِمَن لا تعرفهم، وتمضي وهي راضية مبتسمة كتلك التي تقف أمامهنّ الآن!

قَبّلت الأميرة «أدماء» صغيرها لمرّةٍ أخيرة قبل أن يحمله عنها خادمٌ من خدّام مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، ذلك الخادم الذي فاز بالمسابقة المثيرة للجدل التي أقامتها «أدماء» للمرّة الرابعة لاختيار حاضنٍ أبديّ لولدها ذي العامين، لم تكن المسابقة إلّا لِتفاضل الأميرة بين المتسابِقين في الخُلُق؛ خاصّةً الصدق والأمانة، كما أنّها كانت تدقّق في حالتهم الصّحية كذلك، هي تريد مِن حاضنِ ولدها أن يتّصف بالوفاء والقوّة معًا، حتّى يكون للمهمّة التي ستوكلها إليه أهلًا، مجهود عظيم بذلته «أدماء» قبل أن يقع اختيارها على مَن تراه مناسبًا لاستلام صغيرها، فتُسلّمه ولدها عن رضًا على أن تزورهم مرّة واحدة بالعام، وأن تتكفّل ولدها وحاضنه بالمال ما بقي لها ولزوجها «يعقوب» من عُمُر، تمامًا كما كان الحال في الثلاثِ مسابقات التي سبق وأعلنت فيهنّ عن قبول المتسابقين بالشّروط نفسها في بيوت الله بفلسطين، ومصر، والعراق.

بدتِ الأميرة السمراء «أدماء» مبتسمة راضية وهي تلوّح لصغيرها مرّة أخيرة قبل أن توليه- وحاضنه- ظهرها تلبيةً لنداء زوجها الأخير.

نذرٌ نذرتْه الأميرة ذات الجذور العربية «أدماء» بعد مرور خمسة عشر عامًا على زواجها من الأمير التركي «يعقوب» دون إنجاب؛ أن تهبَ كلّ أرض عربية طفلًا من رحمها لو أنّ الله تعالى منّ عليها بتكذيب يقين أولئك الأطباء، ووهبَ الله رحَمها النطف ثمّ الوِلْدان.

بدا لكافّة الحكماء أنّ حمل «أدماء» مستحيلًا؛ معللين ذلك أنّها ولدت بعيب خلقي في رحمها يحيل بينها وبين حدوث حمل، هكذا أجزم مئات الأطبّاء الذين طرقت «أدماء» أبوابهم في موطن زوجها «يعقوب» وخارجه. خمسة عشَر عامًا وزوجها -العاشق- لا يقبل بسواها زوجة، وكلّما همّت برجائه أن يتزوج من سواها أجهش «يعقوب» بالبكاء عشقًا قبل أن يقسم لها بأغلظ الأقسام أنّه اكتفى بها عن كلّ ملذّات الدنيا، وأنّه بها وحدها مكتفٍ وراضٍ.

لم يكونا مجرّد زوجين تزوّجَا بأعراف القصور التي ترعرعا فيها، بينهما قصة ولهٍ شهدها القاصي والداني في عصرهما؛ «يعقوب» هو الأمير الذي رفض قرار أبيه الملك بزواجه من ابنة عمّه الأميرة الشّقراء التي يُكتب في جمالها الشعرُ، بينما هي لا تفقه من أبياته معنًى واحدًا، فالأميرة الجميلة قد نشأتْ في مدارس فرنسية؛ فصارت ثقافتها بالنسبة لابن عمّها الأمير «يعقوب» ركيكةً تمامًا كلغتها في أذنه!

لم يكنْ «يعقوب» عربيدًا كـ كثيرٍ من أقرانه في مملكة أبيه؛ كان يسافر كثيرًا طلبًا للعلم وأملًا في الحبّ كذلك، حلمه في النّساء كان يراه في اليمّ، لطالما آمن أنّه سيجد الفتاة التي يتمنّاها يومًا ما فوق سطح الماء، أو ربما داخله!،

هكذا كان خياله جامحًا لا يوقفه منطق ولا يحدّه واقع، ولا يزعزعُه زمن، كلّما اقترب «يعقوب» من الشاطئ يقسم لأقرانه أنه يسمع نداءاتِ فتاته بلا توقف، وكأنّ السمراء «أدماء» تنادي روحه من بين الأمواج فيركب هو سفينته بحثًا عنها!

حتّى وجدها!

فتاةٌ وحيدة تعتلي لوحًا خشبيًّا طافٍ بالكاد فوق سطح الماء، لم يخفِ تكوّرها فوق اللوح الخشبيّ شعْرَها الغجري الذي وصل إلى ما بعد قدميها وهي في وضعية القُرفصاء تلك. سمع الأمير «يعقوب» صوت همهماتها فظنّ بأنّ «أدماء» تئنّ من فرط ما عانته؛ لكنه اكتشف بعد أن التقطها رجالُه، وأصْعداها سفينته أنّها كانت ترتّل القرآن الكريم وهي عن وعيها غائبة!

ثلاثُ ليالٍ و«أدماء» بلا وعي، لكنّ لسانها لم يتوقف عن تلاوة آيات الله، و«يعقوب» لتلاوتها يستمع، بينما طبيب القصر الخاص يحاول تطبيبها بكلّ ما أوتي من علم كما أمره (الأمير العاشق)، هكذا أطلق الجميع هذا الوصفَ على الأمير «يعقّوب» بعدما حلَّت «أدماء» به منذُ الوهلة الأولى التي وقعت عليها عيناه، ثمّ لم يعدْ يملك من أمره أمام علمها وثقافتها وتميزها شيئًا.

لم يكن إصرارُ الأمير «يعقوب» على الزواج من «أدماء» بالأمر الهيّن على أسرة «يعقوب» الملكيّة، حتّى وإن كانت «أدماء» أميرةً عربية فرّت من بلادها مع أسرتها بعد حربٍ طويلة خسرت فيها بلادها كلّ المعارك، ففرّ منهم مَن استطاع الهرب عن طريق البحر، حيث أسطولًا بحريًا كان على

أهبة استعداده ينتظرهم، لكنّ عاصفةً قويةً هبَّت فابتلعت كلّ السفن بمَن عليها ولم يتبقَ من الجميع إلّا هي.. «أدماء».

ثمّة أقدار تعاند الطيّبين حتّى يبلغوا ما لم يصل إليه أحدٌ قبلهم، وهكذا كانت أقدار «أدماء» معها، أميرة بلا مُلكٍ ولا ممالك فارّةٌ بهزائم من بلادها، ثمّ زواجٌ غير مباركٍ من أهل الزّوج العاشق، ثمّ هي تطرق بابَ كلّ طبيب يُشار إليه من قريب لها أو من غريب؛ من أجل إسعاد زوجها المتيّم بها والمتيّمة به، وأيضًا من أجل إخماد تلك الألسن التي تجلدُ زوجَها باختياره لها ليلَ نهار.

خمسة عشرَ عامًا مضت على زواجها لم تحمل رحمُها فيها مرّة ولو كذبًا– كما يقولون–، كلّ شيء حولها يدعوها للانطفاء لوْلا نظرات زوجها العاشقة!، وحدها عينا «يعقوب» كانتا مرفآها من كلّ عواصف اليأس، كلّ ليلةٍ كانت تمرّ عليهما معًا، كان «يعقوب» يُبهرها بيقينه أنّ له منها من الولْدان مَن سيعيدون البلدان المنهوبة والأرض المغتصبَة.

لكنّ كلّ يوم وكلّ أسبوعٍ وكلّ عام كان يمرّ على «أدماء» ورحمُها فارغة من النطف؛ كانَ يستدعي فَراغة روحها من الأمل، وكلّ إيماءة من رأس طبيب بأنْ لا أمل كانت تستجلب في قلبها الحزنَ والوهن، حتّى قرّرت «أدماء» تركَ أبواب الحُكماء وطرقَ أبواب الدعاء. وذاتَ ليلة بينما هي قائمة تصلّي لله في جوف الليل غفَتْ، رأت فيما يرى النّائم تلك الرؤيا وكأنّ ملكًا قد هبط لها من السماء، وأخذ يسألها:

– "أوَ إنْ أعطاك الله سؤلَك فما هو نُذُرُكِ التي تقابل تلك العطايا؟!".

- "أهبُه كلّ ما يرزقني من ولدٍ كما نذرتْ ابنةُ عمرانَ مريم لله".

- "تَحملين فتُسافرين إلى فلسطين تضَعين بها طفلك ثمّ تتركيه بأحدِ بيوت الله هناك، ثمّ تحملين فتذْهبين إلى مصر تضَعين بها طفلك ثمّ تتركيه بأحد بيوت الله هناك، ثمّ تحملين فتُسافرين إلى العراق تَضَعين بها طفلَك ثمّ تتركيه بأحد بيوت الله هناك، ثمّ تحملين فتُسافرين إلى أرض الحجاز تَضَعين بها طفلك ثمّ تتركيه بأحد بيوت الله في المدينة المنورة؛ أربعةُ ذكور لله، وما تُرزَقِينه بعدُ هو لكِ.. قولي قبلتُ ونذرْتهم لله".

- "قبلتُ، ونذرْتهم لله".

ما أنِ استيقظت «أدماء» من غفوتها حتّى أعلنت رؤياها هذه للجميع، وعَزّزتها بقبول كلّ ما جاء فيها على لسان ذلك المَلَك، وبيْد أنّ الله قد قبلَ نذورها، ورزقها أربعةَ ذكور بفارق ثلاثةِ أعوام بين الأخِ وأخيه، وقد وضعت «أدماء» كلّ حملٍ لها فوق أرضٍ عربية بحسب ترتيب رؤياها، كانت الأميرة «أدماء» تسافر إلى تلك الأرض وتستقرّ بها حتّى تتمّ رضاعةَ وليدها، ثمّ تهمّ بالعودة إلى مملكة زوْجها من جديدٍ في رحلةٍ بحرية طويلة، كانت المدينةُ المنورة آخرَ ما ذُكر في رؤياها من بلدان، ليصبح لها بفلسطين «موسى»، وبمصر «عيسى»، وفي العراق «عليّ» وبالحجاز «محمّد».

مِن جديد، بُشّرَت الأميرة «أدماء» بحملٍ خامس، لكنْ هذه المرّة بداخل أحشاء الأميرة أربعةُ توائم دفعةً واحدة، وكأنّها لمّا وهبت مِن حشاها لله أُعْطيَت حتّى رَضِيَت.

كلّ ليلةٍ تقصّ الجدّة هذه الحكاية على مسامع حفيدتها "ديمة" التي تبلغ من العمر خمسة أعوام؛ بناءً على طلب الأخيرة، منذ ألقت الجدّة بهذه الحكاية على مسامعها أوّل مرّةٍ و«ديمة» عالقةٌ بها، ولا تنام إلّا بعد أن تسمعها من جدّتها، ما أن تنتهي الجدّة من السرد حتّى تبدأ الصّغيرة في الأسئلة، فترتجل الجدّة الإجابات، الجدّة لديها قدرة فائقة على التأليف والارْتجال، وفي خلَدِ الصّغيرة ألفُ سؤال تريد إجابةً عنهم.

- ماذا حدث للإخوة الأربعة بعدما كبروا؟ هل كبروا أغرابًا وظلّوا أغرابًا؟ والدتهم ماذا حدثَ لها؟ هل وضعت توائمَها بسلام؟ مَن مات فيهما قبل الآخر: «يعقوب» أم «أدماء»؟ هل واظبتْ «أدماء» على زيارة أبنائها فيما بعدُ بالفعل كما قالت؟ هل أخبرتهم عن موطنهم، وأبيهم؟! هل جمعتهم يومًا بين ذراعيها، وأخبرتهم حقيقة أنّهم إخوة؟

****

التقطت «ديمة» كتابًا من فوق أحدِ أرفف مكتبتها الكبيرة، ووقفت للحظةٍ تمسح بكفّها فوق اسمه وهي تبتسمُ قبل أن تستدير، وهي تدير الكتاب بين كفّيها ليصبح غلافُه إلى وجه صديقتها «كريستين»، فتردّد الأخيرة اسمه:

- (لحظة تاريخ)! أكان هذا هو أوّلَ الكتب التي بحثتِ فيها عن أميرتك يا «ديمة»؟

- كلّا «كريستين»، لكنّي أرشّحه لكِ كبدايةٍ في دربك التاريخيّ، إذ أنّ الكاتب «محمد المنسي قنديل» قد أضاف الشّغفَ الذي يشعل القارئ بأسلوبٍ ماتعٍ كحكّاء، فجعل ما أوردَه فيه من قَصص تاريخيّة أقرب إلى الرّوايات،

وأنا أعرف أنكِ تعشقين أدب الرّواية؛ لذلك رشّحت لكِ هذا الكتاب أيّتها الشغوفة بحكاياتي عن جدّتي.

قالتها «ديمة» وهي تبتسم، بينما «كريستين» تضبّ الكتابَ ومجموعة أخرى من الكتب التي وقع اختيارها عليها من مكتبة «ديمة» داخل حقيبتها، ثمّ رفعت وجهها إلى الأخيرة وهي تعيدُ خصلةً من شعرها إلى الوراء، بينما تهمّ بالوقوف مصافحةً إيّاها وهي تشير إلى كتفِ «ديمة» بيُسراها قائلة بابتسامة:

- «ديمة»، مشبكُ حجابِك مفتوح، لو ضممتُك الآن سأشَاكُ منه وأتألم، هلّا أغلقته حتّى أضمّك أيّتها المؤرّخة الجميلة.

أغلقت «ديمة» المشبكَ وهي تبتسم في وجْه صديقتها بحبّ، ثمّ فتحت ذراعيها لها وتركتها تحتضنُها في سلام.

ما أنْ غادرت «كريستين» مكتبَ المحاماة الخاصّ بصديقتها المقرّبة «ديمة» حتّى استدارت الأخيرةُ وابتسامتُها مازالت فوقَ شفتيها، لترفع طرفَها متأمّلة لتلك العينين اللّتيْن لا تغمضان أبدًا، وكأنّ جدّتها قد تركت فيهما روحَها قبل أن ترحل!، ليصبح مكان صورتها الدّائم أعلى رأس «ديمة» أينما جلست أو استلقتْ كذلك. وقفت ديمة برهةً من الزمن وهي تتأمّل ملامح جدّتها بحبّ؛ قبل أن تنقل طرفَها إلى مكتبتها الضّخمة في زاوية الغرفة وهي تتنهّد في امتنان.

كلّ هذه الكتب المتراصّة إلى جوار بعضها هناك، وكأنّها في عناق أبديّ لا يسمح حتّى لزلزالٍ أن يوقع أحدَها دون الآخر، وجميعها سعيدٌ بهذا،

ما تراصّت هكذا إلّا بفضل تلك الشّرنقة التي وضعتني بداخلها تلك المرأةُ في الصّورة هناك؛ والتي أشعلت في نفس يرقَتِها عشقَ الدّوران حول الذات مع الكثير من الشّغف تجاه البحث عن صحّة ما أوردته في حكاياها القديمة، كانت الجدّة تقصّ الحكايات بثقةٍ وكأنّها قصصٌ مؤرّخة بالفعل وتلك العجوزُ الجميلة التي رحلتْ بالموت إلى حياةٍ أخرى؛ قد انتقت من بينها بعنايةٍ ما تربّي حفيدتها به، وعليه.

كانت «ديمة» في العاشرةِ من عمرها حين وافتْ جدّتَها المنيّة، افتقدت الفتاة حكايات جدتها كثيرًا، حتّى أنّها كلّما أغمضت جفنيْها رأت جدّتَها وهي تقصّ لها حكاية الأميرة «أدماء» والأمير «يعقوب» كما كانت تقصّها عليها دومًا كلّ ليلة، بفضل تلك الحكاية بدأت «ديمة» رحلةَ البحث عن أميرتها في كلّ كتابِ تاريخ تقعُ عيناها عليه، ورغم أنّ الجميع قد أكّد لها أنْ لا صحّة لهذه الرواية في أيّ عهدٍ من العهود التاريخية السابقة؛ إلّا أنّها مازالت تبحث بيقينٍ عن السّمراء «أدماء» التي وهبت الله أربعةً من أولادها، والتي لُقِّب بفضلها «يعقوب» بـ (الأمير العاشق).

****

إنّما الدّنيا كهفٌ موحِش، له مدخلٌ واحد ومخرجٌ واحد؛ ننزلق من ظلمةِ الأوّل كرهًا فنمحّص تحتَ الشمس وبين سُدُلِ الليالي نُبتَلَى، ثمّ نعود بما جنيناه في الدربِ بين المدخلين ونحن بين مثاب أو معاقَب، أعمارُنا فيها هي الزّمن بين الأذانِ والإقامة، وأعمالنا فيها هي زادٌ ما بعد البرزخ.

هذا ما يحدث– عادةً– للإنسان بين ميلاده وموْته، أمّا ما يحدث لأحبائه فإنّما يكون على قدر من رحل في قلبِ مَن بقي، وقد كان حالُ تلك العجوز مبكٍ جدًّا وهي تتهاوى فوق أحد الكراسي البالية داخلَ تلك الشّقة الرثّة الأثاث، العطنة الرّائحة، والمعتمة الجدران جدًّا، وكأنّ جدرانها قد ارتدَتْ ملابسَ الحداد مبكّرًا، لم تكن «إنصاف» تُصدِّق مضمونَ تلك الرّسالة التي مرّرتها عليها صديقةُ ابنتها في منتصف الليل وهي واجمة وجومَ الفاقدة.

لا تدري العجوزُ كيف مرّ عليها ما تبقّى من الليل حتّى تعالت أصوات مؤذّني الفجر بأنّ الصّبح قد لاح، فأدّت «إنصاف» فريضتَها في خشوع وهي تدعو الله أن يكون ما وردَ بالرّسالة غيرَ صحيح، وأن يكون فحْواها مجرّدَ مداعبةٍ غير مقبولة من شخصٍ يُضمر لها– ولابنتها– الكثيرَ من الأحقاد، وإلّا لماذا لم تتّصل بها «عزة» لتخبرها بفحوى هذه الرسالة بنفسها؟!

في عجلٍ ارتدتِ العجوزُ ملابسها وهي في تلك الحالة من بكاء القلب المكلوم، وهلّت العجوز للحظةٍ وهي تنظر عاليًا إلى درجات السّلم التي تفصل بينها وبين صديقتها وزميلتها في العمل– وجارتها كذلك– «كارولين»، هل تصعد إليها لتخبرها فحْوَى ما جاء في الرسالة على لسان ابنتها، وتصطحبها معها، أم تذهبُ هي بمفردها أوّلًا إلى العنوان بالرسالة لتتأكد ممّا كُتب بها؟!

– لا وقت للحيرةِ يا «إنصاف»، اتّصلي بها وأنتِ في الطريق، ربّما هي دعابةٌ وابنتُك بخير.. إنْ شاء الله بخير، إنْ شاء الله ليست «عزة».. ليست «عزة».

على الرّغم من أنّ شقتها بالدّور الأوّل من العقار، لكنّها كانت تلهث كمَن صعدت عشرةَ طوابق، وليس كمَن ترجّلت بضع سُلّمات هبوطًا ببطءٍ يتنافى مع عادتها التي تساعدها عليها خفّةُ وزنها في هبوط نفس الدّرجات وصعودها عدّة مرّات كلّ يوم، أخيرًا بلغت «إنصاف» مدخلَ العقار الذي تقطنُ في الدّور الأوّل منه وحدها منذ سافرت ابنتها إلى خارج البلاد في مهمّةِ عملٍ قبل بضعة أشهر، أو هكذا كانت تظنّ!

لم تكنِ ابْنتها التي تبلغ من العمر خمسةً وأربعين عامًا في مهمّةِ عمل كما أوهمتها؛ كانت «عزة» أقرب ما تكون لوالدتها، لكنّها كذبت من أجله.

- مَن هو؟! أخبريني عن هويّته حتّى أتمكّن من أخذ حقّك منه، أهو طليقك؟! أي واحدٍ منهم إذًا وقد تزوّجتِ أربعَ زيجات آلتْ جميعُها للطّلاق لأنّك لم تنجبي؟! فكيف حملتِ بالأساس؟ ومتى؟ وأين؟ وممّن؟! وكيف وقد طُلقتِ أربعًا لأنّك عقيم؟! اصْدُقيني القولَ يا ابنتي أعرضتِ رحَمك للتبنّي؟ أمَعْقول وأنتِ بهذه السنّ! أم مَن.. مَن ذلك الذّئب الذي فعل بكِ هذا بنيّتي؟ قولي أرجوكِ مَن فعل بكِ هذه الفعْلة؟! انطقي أتوسّل إليكِ.. أتوسل إليكِ.

كانت العجوز أقربَ إلى الهذيان، بينما تحتضن كفَّ ابنتها وتقرّبها من موضع خافقها وهي تتوسّل إليها أنْ تخبرها باسْم ذلك المخادع الذي قضى منها وطرًا حتّى حملت منه، فلمّا أخبرتْه أنّها حامل تنصّل منها ومِن جنينها، وأمَرَها أن تجهضه، وإلّا لن ترى خيرًا أبدًا في حياتها المُقبلة.

حاولتِ ابنتُها معه بشتّى المحاولات، حتّى أنها قلّصت كلّ طلباتها في مطلبٍ واحد؛ أن يظلّ زواجُهما عرفيًّا كما هو من أجل نسبِ الوليدةِ إليه، وفي المقابل هو لنْ يرَى وجهها من جديد، لكنّه أبَى إلّا أن يتشبّث بموقفه، مهدّدًا إيّاها- بغلظة- أن تختار بين حياتها أو حياة ذلك الجنين في أحشائها بعدما مزّق ورقتيّ الزّواج بنفسه وهو يرمي عليها يمينَ الطّلاق بسخرية، فما كان منها إلّا أنّها اختفت تمامًا عن عينيه، وعن عينيْ أمّها كذلك بعد أن أخبرتِ الأخيرةَ أنّها ستسافر في مهمّة عملٍ قد تطول لبضعة أشهر.

التقتْ «عزة» به في إحدى سفريّاتها إلى صعيد مصر كمرشدةٍ سياحية، ومن ثمّ أعجبها وأعجبته، أناقتها ورشاقتها واهتمامُها بمظهرها وأنوثتها جعلاه يظنّ أنّها أصغرُ من عمرها الحقيقيّ بكثير، لقد سال لعابُه منذ رآها، ومنَّى نفسَه بها.

- لِمَ لا؟! في مهنتها كلّ شيء يحدث.

هكذا كان يتحدّث الرجل عن المُرشدة السياحيّة «عزة» مع نفسه كلّما رآها!

بالفعل، تطوّرت علاقتُه بها بسرعة، رجلٌ مثله له من الجاذبية ما جعلها تتعلّق به وتنجذب إليه دونَ جهدٍ منه، ثمّ فتنها بمعسولِ كلامه الذي لم يخلُ من الكثيرِ والكثير من الوعود، لكنّها أبتْ أن تمنحه أيّ شيء إلّا بعدما يتزوّجها ولو عرفيًّا.. لا يهمّ، المهمّ أن تكون علاقتُهما شرعية.

كلّ شيء حدث بينهما فيما بعدُ كان كالسّحر، حتّى أنها لم تكن تصدّق تلك الطبيبة وهي تُخبرها بأمرِ ذلك الجنين الذي تكوّن بالفعل داخل رحِمِها

منذ خمسة أشهر وهي لا تشعر به، ولم تشعرْ أيضًا كيف أنّها نهضت إلى الطبيبة تحتضنُها وتقبّلها في سعادةٍ، قبل أن تهمّ بالتوجّه إلى تلك الشّقة التي تلقاه بها، ولدَيْها من السّعادة ما تريد اقتسامَها معه، ما أسعدَ «عزة» في تلك اللحظة، وما أحمقَها كذلك! إذْ لم يرحمها ذلك المنتظرُ لمتعته حين حاولتْ أن تنقل فرحتَها إليه، بل إنّ الخبر قد وقع كالصّاعقة على رأسه، فأمرها من توّه أن تقوم بعملية إجهاضٍ، وتتخلّص من ذلك الحمل، بل وهدّدها بالموت إن لم تفعل.

كانت «عزة» تتأمّله بمشاعرَ مختلطةٍ ما بين الخوف وعدم تصديق ما تسمعه منه، ليس هو ذاك الشّخص، لقد اختلف كليّةً؛ كما لو أنّ آخرَ قد تفصّد من داخله ولم يبقِ لَمن عرفته منذ بضعة أشهر أيّ أثر.

– كيف أُقْبِل على عملية إجهاض وأنا الآن بالشّهر الخامس؟! سنّي، وعددُ أشهر حملي؛ لن يحتمّلا مثلَها مجازفة، قد أموت وأنا أفعلُها، وأنا أريد أن أبْقِي على حملي رغبةً فيه، وليس طمعًا بك، أرجوك دعْني أنْجب هذه الصغيرة، وأعدُك أنّني لن أخبرَ أحدًا أنّك أبوها، سأنسبُها إليّ، أو لا أنسبها البتّة، أنا لا أريد إلّا أنْ يكون لي قطعةٌ من دمي ولحمي وفقط، وها هي قد نبتتْ في رحمي قطعةٌ منّي بعد أن قُطِعت بي كلّ سبل الإنجاب، كيف الآن ألفظُ ما عشت كلّ عمري أحلمُ به؟!

– وما الذي يضمن لي أنّكِ لن تغيّري موقفك هذا؟! أيّة ضمانات قد تمنحيها لي مقابل أن أتركَ لكِ هذا الجنين دون أنْ تطالبيني بنسبٍ أو نفقةٍ أو أية حقوق فيما بعد؟!

– خذْ أيّ ضمان تريده، لكنْ دعْ لي هذا الجنين، أتوسّل إليك.

نطقتْها «عزة» برجاءٍ صادقٍ، جعل الواقف أمامَها يشيح بناظره عنها قبل أن يقول:

– ربّما سيكون هذا أحمقَ قرارٍ اتّخذته بحياتي كلّها، لكنْ ما الذي قد تفعله مثلك على أيّة حال..

قطعَ جُملته وهو يبتسمُ ابتسامة ساديّ مُقبلٍ على دور ربوبيّة يكون هو فيه مَن يحيي ويميت:

– ليكن... أنا موافق؛ وفي المقابل لا أريد أنْ أراكِ أبدًا بعد الآن، واعْلمي أنّ أية محاولةٍ منكِ للوصول إليّ سيكون ثمنُها حياتك، تعلمينَ مَن أكون جيدًا، وأنتِ واثقة أنّني سأنفّذ وسأقتلك ووليدَك من دون أيّة رحمة مع أوّل ظهورٍ لكِ قرب ممتلكاتي.. اتّفقنا؟

– بالتّأكيد.. بالتّأكيد.

مرّر الرجل الخمسينيّ إليها بضعةَ أوراق، وأمرها أن توقّعها، وقّعتها السيدة في لهفة غير مصدّقة أنّه سيتركها أخيرًا تتمّم حملها، ثمّ تضعه بسلام، ليست لديها أيّة نوايا غدرٍ؛ لذا وقّعت الأوراق التي لم تقرأ منها سوى عدّة أسماء لأناسٍ لا تعرفهم، ولا تريد أن تعرف مَن هُم، بالنّهاية هي في صفقةٍ معه؛ حملها مقابلَ توقيعِها على هذه الأوراق، وقد كان له– ولها– ما أراداه.

****

دائمًا نظنّ السّعادة في كلّ شيء فوّتناه، في كلّ شيء حالتْ أقدارنا بيننا وبينه؛ في الأمانيّ التي لم تحقَّق، في الأماكن التي رحلْنا عنها غصبًا، وفي زوايا كنّا نراقب منها شروق الشّمس وغروبَها كلّ صباح ومساء، وكثيرًا ما نرى التّعاسة في حاضرنا، في النواقص التي تخْتبرنا بها أقدارُنا، في الأشخاص الذين هُم ليسوا أشخاصَ الماضي، وفي واقع نرفضُه فيقسو فنوكِل قسوتَه لتلك الأمانيّ بأنْ "ماذا لو"!

اكتملَ حَمْلُها الذي أصرّت على الاحتفاظ به مِن غير مشكلات، وبإحدى المستشفيات الخاصّة قد وضعت صغيرتَها قبل بضعةِ ليالٍ، المولودة بخير... لكنّ «عزة» هي مَن تنزف لليوم الثّالث على التّوالي دون توقف، اضطرّت صديقتها التي ساعدتها من قبل في توفير المسْكن، والتكفّل برعايتها كلّ تلك الأشهر؛ إلى الانْصياع لها، ولقرار خروجها من المشفى، بعد أنْ وقّعت «عزة» إقرارًا على نفسها أنّ خروجها على مسئوليّتها الشخصية، عندما فشلت كلّ محاولات الطبيب المعالِج لها بالمستشفى بوقْف ذلك النزيف، قرارها لم يكنْ إلّا تحسّبًا لتدهور حالتها أكثرَ ممّا هي عليه، هي شعرتْ بالفعل أنّها ليست على ما يُرام، فكرة أنّ أجلَها قد اقترب سيطرتْ على رأسها؛ فطالبت إدارةَ المستشفى بالاتصال بصديقتها، ومن ثمّ طلبتْ منها أن تعيدَها إلى الشّقة ذاتها التي سبقَ وقامت باستئجارها لها بعدما أوْهَمت والدتَها من قبلُ أنّها ستسافر في مهمّة عملٍ كما هو المعتاد.

بيدٍ مُرتعشة كتبت لوالدتها تلك الرّسالة التي مهّدت لها فيها بكلّ ما رأته وسمعته منها بعد، قبل أن تذيلَ رسالتها بتوسّلها أن تأتي على الفوْر حال أن

تصلَها الرسالة؛ فلم يعدْ في عمْرها إلّا ما يكفي لتحقيق أمنيتها الأخيرة، أنْ ترى والدتها لآخرِ مرّة، وتطلب منها أن تسامحها.. قبل أن تموت.

انتهتْ توسّلات الأمّ بلا شيء، لم تتفوّه «عزة» إلّا بوصيةٍ أخيرة، إذ بصوتٍ خفيض ونبرة متهدّجة قالت وهي تشير إلى وليدتِها النائمة إلى جوارها بوجهها الملائكي المُضيء:

– وصيّتك ابنتي يا أمّي، لا تحرميها صدرَك وقد حرمتْها الأقدارُ من صدر أبويْها دون جريرة.

ثمّ سحبت ذراعها من أسفل وسادتِها قبل أن تضع في كفِّ العجوز تلك البطاقة التعريفية باسْم محاميةٍ ما، وأسفلَها ورقةٌ مطويّة، بينما خفت همسُها أكثر:

– هذه المحامية خذي بوجْهتك إليها يا أمّي، اذْهبي إلى العنوان المدوّن على بطاقتها هذه، وسلّميها هذه الرّسالة كما هي، وهي ستقوم بكلّ شيء، سامحيني يا أمِّي على كلّ ما فعلته بحقّك، أو بحقّي، أو بحقّ هذه الصغيرة بقصدٍ أو من غير قصد، الله بكلّ حالي عليمٌ يا أمّاه، تضرّعي للرحمن أن يغفر لي ما يعلمه ولا يعلمه سواه، وأنْ لا تدفعَ ابنتي ثمنًا لفعالٍ ليسَ لها فيها أيّ ذنب، وكوني لها قطرةَ الرّحمة التي تغيثها من هذا الكونِ غيرِ الرّحيم.

تهاوتْ ذراعُها بين كفيّ والدتِها التي ما أنْ لفظت ابنتها أنفاسَها الأخيرة أمام عينيها؛ حتّى تذكّرت العجوزَ المكلومة كلماتها التي طالما ردّدتها على مسامع ابنتها، لكنّ الأخيرة أبدًا إليها لم تستمع:

– كفى ما مضَى من عمركِ وأنتِ تفتحين للشّياطين في نفسكِ أبوابَ عمل، "والْتَفِتي الآن" إلى حاضركِ وتأمّليه على هدًى؛ ففي "النّظرة الثانية" إدراك وفهْم، ورضا وسعادة، وحقيقةٌ تستحقّ الالتفات.

كلّ ما أرادته ابنتُها من نعم أدركته، كلّ أحلامِها الوجودية حققتها بفضل الله، ثمّ أمّها التي ما تركتْ مِن نفسها وسعًا إلّا بذلته من أجل إسعاد ابنتها الوحيدة، تلك التي لم ترَ من كلّ أمنياتها إلّا ما نقصت، أعطاها الله من فضلِه العلم، ومَنّ عليها بنعمة التميّز فيه، وفتح الله لها من أبواب فضلِه ما جعل لها من المكانةِ والرّزق ما هو خاصّتها، ثمّ اختبرها فلم يحقّق لها ما شغفتْ به، إلّا وهو أن تنجبَ الكثير والكثير من الأطفال كما كانت تتمنّى، أربعُ زيجات لم تسفرْ عن حملٍ واحدٍ، ومن بينهم مَن أرادها هي وإنْ لم تنجب أبدًا، لكنّها أبتْ إلّا أنْ تبلغَ شغفها فبلغت زيجاتها أربعة قبل أن تيأسَ من الفكرة تمامًا، أو هكذا أوْهَمت أمّها.

****

يومَ تسقط ورقتُك ما من فرار، وإنْ كنت سليمًا معافًى، أو تحمل بقلبك الكثيرَ من أحلام الغد، ستستيقظُ ذاتَ لحظة على فُرقةٍ، وستبقى روحُك في ذهولٍ من استسلام جسدِك لهم، سيهتكون سترَك لمرّةٍ أخيرة، وماءُ الغُسل يتساقط من فوق جسدِك العاري أمامك وأنتَ لا تملكُ أن تستترَ بحيائك الذي كان، وكأنّك تنظر إلى نفسك التي عرفتها في المرايا، لكن هذه المرّة أنت منعكسٌ فوقَ الحقيقة ذاتها، حيث الرّوح خارج الجسد، والجسد بأرخص أنواع الأقمشة يُلفّ أمامك تمهيدًا لإطعامه لهوامِ الأرض، وهو الذي كان فوقها ذا رأيٍ وعنفوان وكبْر!

– "أمّا الروح فهي إلى ما أفضتْ إليه، وأمّا أنتِ فلا تستيقظي الآن؛ فما زالت أمامكِ يا مهيدة فرصة".

ظلّت تكرّر العجوز الثّكلى هذه الجملةَ عدّة مرّات، وهي تضمّ تلك النائمة التي تشبه أمّها كثيرًا بين ذراعيها أكثرَ وأكثر، إلى أن توقّفت عن التمتمة فجأة بعد أن شقّت شهقاتها صمتَ الجميع حولها، وانهمرتْ دموعها بلا توقّف، بينما يُوارى جسد وحيدتها بالتراب من دون جنازةٍ أو عزاء.

مشهدٌ مهيب لا يتكرّر كثيرًا شهده عاملُ المقابر وسائقُ سيارة الموتى ومساعداه فقط، مشهدٌ وقفت العجوزُ فيه بين اثنتين؛ صديقةِ ابنتها التي أحضرت تلك الرّسالة إليها على يمينها، وجارتِها وصديقتِها الوحيدة «كارولين» على يسارها، بينما «حسين» الشاب اليتيمُ والغريبُ عن الحيّ الذي يعمل بالمقهى فيه، والذي يعتبر «إنصاف» هي أمّه؛ كان منهمكًا داخلَ القبر يواري «عزة» بالثّرى، وهو يردّد بعضَ الذكر، كانت «إنصاف» ترتجف وهي تغالب صورةَ ابنتها الشاحبة في رأسها قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة بالكثير والكثير من الأسئلة التي لا تعرف مَن سيجيبها عليها. عجوزٌ على مشارف عقدها السابع تقف على قبرِ فقيدةٍ بوليدةٍ لا تعرفُ لها اسمًا، ولا تعرف مِن أين ستبدأ رحلتها معها، أو إلى أين ستذهب بها؟! أو كمْ من الوقت سيمنحُه العمرُ لعجوزٍ مثلِها مع هذه الوليدة النائمة بين ذراعيها لتحيا فيه بسلام؟!

****

بعد زحفِ الأعاصير على الأفئدة لا شيء يعودُ كما كان، فجأة نكتشفُ أنّ الفاجعة ليست في إعادةِ ترتيب ما تبعثرَ حولنا، أو ترميم ما تكسّر فينا؛

إنّما فواجعنا فيما ذهب أدراج الرياح ولنْ يعود، كالثقةِ حين تُنزَع بلا جريرة، أو العفوية حين تُقابَل بالصّدود.

كانت صدمةً قويّة لها أن تعود إلى منزلها ببقايا ابنتها على هيئة رضيعةٍ بين ذراعيها بلا هويّة، لم تبكِ الصغيرةُ ولو مرّةً واحدة منذ دُفنت أمّها في الظهيرة وقد قارب النهار أن ينقضي ويحلَّ الليل، تلك البطاقة التّعريفية باسم، عنوان، وأرقام هواتف محاميةٍ ما، وتلك الورقة المطويّة أسفلها؛ مازالا داخل طيّات ثياب الصغيرة منذ خرجت بها الجدّة من تلك البِناية مع جُثمان والدتها؛ لا أهل، أو أقارب، أو معارف للعجوزِ سوى جارتها ورفيقة سنوات عمرها «كارولين».

منذُ استقبلتها تلك الليلة التي انتقلت فيها إلى الشّقة أسفلها من العقار ذاته، وكأنّ «إنصاف» من لحمِها، ومن دمِها!

منذُ وقتها وهي و«كارولين» يتشاركان الأفراحَ والأتراح معًا، مدّت الجارة ذراعيها تلتقط الوليدةَ النائمة من بين يديّ صديقتها وهي تتمتمُ ببعض الهمهمات، والدّموع تتساقط على وجنتيْها، ظلّت تنظر للوليدة بضعَ دقائق، ثمّ رفعتْ عينيها إلى الجدّة قائلة:

- «إنصاف»، متى ستذهبين إلى تلك المحامية حتّى أستأذن من رئيستنا بمصنع الحياكة وأذهبَ معكِ يا حبيبتي، لن أتركك تذهبينَ وحدكِ، من جهةٍ أخرى لا تقلقي بشأن إجازتك لقد أخبرتُها بكلّ ما جرى معكِ فوْر اتّصالك بي في الصباح، وقد تفهّمت السيدة الحدثَ، وستحضر عمّا قليل لتقديم العزاءِ لكِ كذلك.

– كلّا يا «أمّ مينا» لن أقيم لابنتي عزاءً قبل أن أعرف ما الذي حدثَ لها، ومَن الذي فعلَ بها كلّ هذا، وكيف، ومتى؟ لا عزاءَ في «عزة» يا «كارولين» قبل أن أعرف ما هو مصيرُ هذه الوليدة التي تركتْها لي كاللّغز من دون أيّة أحْجيات وصولٍ لأبيها مَن يكون، أو أين يسكن، أو لماذا يرفض نسبها!؟

تنهّدت «كارولين» بضيقٍ ممتزج بالغضب، وممتلئ بالكثير من الحزن، وهي تناولها الوليدة قائلةً بأسًى شديدٍ، وبصوتٍ خفيض من شدّة التأثر:

– لو أنّ ابنتي «إيفون» هنا لما تركتك تذهبينَ إلى أيّ مكان، أو إلى أية محامية سواها، ربّما لم يسمحْ لكِ القدر أن تعرفيها، لكنّها كانت تحبّ هذا النوع من القضايا، وبالتّأكيد كانت لتحبّ «عزة» كذلك، منذ أن أنهتْ أوراق هجرتها وسافرت خارج مصر بعد وفاة أبيها منذُ أكثر من عشرين عامًا؛ وهي لم تأتِ لزيارتنا ولو مرّة واحدة، تعلمين أنّها من زوجي الثّاني، بينما «مينا» من زوجي الأوّل، عندما مات أبوها تركَ موتُه في نفسها ما تركَ من حزن، وكمْ عانيتُ– أنا و«مينا»– منها، ولأجلها في تلك الأثناء، ورغم كلّ شيء فإنّ هجرتها قسمتني، ولوْلا أنها تتّصل بي على فتراتٍ بعيدةٍ من بلدان مختلفة؛ لكنتُ أُصبت بالجنون، لا أستطيع أن أغفر لها أنّها تركتنا بلا رجعة وكأنّنا لها أعداء!، أخبرتني ذات اتّصالٍ منذ أكثر من عقدٍ ونصف العقد أنّها قد تزوّجت، وباتصالٍ آخر قالت إنّها أنجبت كذلك، وكلّ ما حصلتُ عليه منها في الحدثين دقائقُ اتّصالٍ على مرّ كلّ السنوات الفائتة وبضعة صورٍ لها مع ابنتها.

انتبهتْ «كارولين» لدموعها حين سقطتْ دافئة على وجنتيْها الباردتين، وأخذت تجففها بأطراف أكمامِها يُمنةً ويُسرة بالتّوالي، قبل أن تتنحنَحَ بحرج، فقد استرسلت في حديثها عن ابنتها دونَ وعي منها، غير منتبهةٍ لحالة صديقتها الواجمة «إنصاف»؛ التي تجلس أمامها باستسلام محتضنةً حفيدتَها إلى صدرها وهي تستمعُ لحديث صديقتها بتأثرٍ في صمت، و«كارولين» لا تدري لِمَ ذكرتِ الآن ابنتَها التي هاجرت منذ وفاة أبيها دون رجعة!

وكأنّ ما يقبع بدواخلنا من حزنٍ في تلك الزّوايا البعيدة منّا، والتي نُخفت الأضواء فيها عن عمْد؛ تُضاء كلّ الأنوار فوقَه دفعةً واحدة حين نشاطرُ قريبًا أو صديقًا حزنًا طازجًا لم يُضَبّ بعد، حيث لا رؤية له إلّا وحاملُه عن البشرِ ناءٍ، ربّما هي الطبيعة البشرية التي جُبلت على مشاطرةِ الغير من ظواهرهم، وليس على التّنقيب في ذوات الأحبّاء، ثمّ إضاءة ما عتّموه فيهم، واحتضانهم بعد ذلك بقوّة.

همّت «كارولين» باحتضان جارتِها بشدّة، قبل أن تقول وهي شبه شاردة:

– لا تؤاخذيني يا «إنصاف»، لكنّ فقْدَنا لابنتنا «عزة» استحضرَ من أعماقي حزني على أختها «إيفون»، اختلفتْ أسباب الحزن يا صديقتي والوجعُ واحد، فليصبِّرنا الربّ، ويرحمنا أحياءً وأمواتًا.

تنهّدت «كارولين» وكأنّما تركن الحزن لأعماقها من جديد، ثمّ استطردت:

– سأصعدُ الآن إلى شقتي لأعدّ لنا بعضَ الطّعام، لم نأكل شيئًا منذ الصباح، حتّى أنتهي من إعداد الطعام لنا والنّزول به لنأكل معًا يا حبيبتي؛ سأتصل بـ «مينا» في عيادتِه قبل أن ينتهي من عمله، وأخبرُه بأمر الصّغيرة

ليحضر لها في عودته بلبنِ أطفالٍ مناسب، إلى أن يقوم بفحْصِها بنفسه بعد أن يعودَ ويرشدنا لكلّ ما ستحتاجه الصّغيرة من طعامٍ أو دواء.

هزّت «إنصاف» رأسها تفهّمًا وهي تنظرُ لصديقتها وجارتها بامتنانٍ، بينما تتمتم ببعض عبارات الشّكر، يا لها من صداقةٍ دامت بينهما من دون تعكيرِ صفو، سواء كجارةٍ لها في العقار أو صديقة وحيدة لها، أو زميلة عمل ضمْن كثيراتٍ معهما بنفس مصنع الحياكة، لا تستطيعُ «إنصاف» أنْ تنسى لـ «كارولين» كيف استقبلتْها على عتبات هذا العقار منذ أول ليلةٍ لها فيه، بعد أنْ طاردتها الحياة بتوابع لوفاة زوجها لم تسطعْ عليها صبرًا، بعد وفاة والد «عزة» كلّ شيء تغيّر، حتّى الشّقة التي كانت تقطنُ بها اضطرّت لتركها بعد أن صارت ميراثًا من حقّ الجميع تقاسُمه.

كان والدُ «عزة» هو مالكَ مصنع الحياكة التي كانت تعملُ بها وأخواتها، و«كارولين» كذلك. لم تنجب «إنصاف» من زوجها سوى ابنتها الوحيدة «عزة»، الأمر الذي جعلها بعد موتِه تصطدم بالواقع المرير عنْ فاجعة أن لا يكون للزوجة ولد؛ ثمّ تكتشف فجأة أن لزوجها الذي مات أهل!

ميراثُها وابنتها الوحيدة «عزة» أمامَ ميراث أهل زوجها فُتات، بعدما حضرَ أهلُ زوجها من سفر بعيد فجأة لتراهم- وابنتها- لأوّل مرّةٍ مجتمعين في بيتها من أجل بيع كلّ ممتلكات زوجِها المرحوم! ثمّ تقسيم المال عليهم بحسب نصيبِ كلّ واحدٍ كما نصّ الشّرع لمسمّاه من نصاب، كانت «عزة» لا تزال في الخامسةِ من عُمرها بعد؛ ادّخرت والدتها لها كلّ المال في أحدِ البنوك ذات الرّبح المتغيّر، ثمّ استمعت- فيما بعد- لنصيحة صديقتها «كارولين»

التي صارت جارةً لها كذلك؛ أنْ تنزل معها للعمل في مصنع الحياكة كما كانت من قبل، بعد أن أثنتْ على مالكها الجديد، وأنّه تمامًا كوالد «عزة» –رحمه الله– في إنسانيّته، ومنذها وحياةُ «إنصاف» تقتصرُ على رعاية ابنتها، وممارسة عملها، ورفقة صديقتها وجارتها «كارولين».

****

ما أنْ أغلقت «كارولين» البابَ خلفها حتّى وضعت الجدّة حفيدتها فوق الأريكة إلى جوارها قبل أن تحاول النهوض عدّةَ مرّات فتنجح أخيرًا في جمع شتاتِ عزيمتها وتنهض لتذهب إلى الحمّام فتتوضّأ بوجلٍ، ثمّ اتّجهت إلى زاوية قصيّةٍ في نهاية شقتها حيث سجادة الصلاة مبسوطةً على الأرض باتّجاه القِبلة، وإلى جوارها مصحفٌ فضيّ فوق حاملٍ خشبيّ بسيط من تلك الحوامل المصنّعة خصّيصًا لحمل المصاحف في المساجِد أو البيوت.

هنْدَمت «إنصاف» حجابَها، بينما بالكاد تلامسُ سجادة الصّلاة بأصابع قدميها، ثمّ رفعت كفّيها بتكبيرة الإحرام، ومِن فوْرها خشعت في وقفتها وكأنّها ما أنِ استشعرت أنّها قُبالة وجْهِ الله الكريم نسيت كلّ ما حولها، وأقبلتْ على النّور بكلّ جوارحها.

انتهتِ العجوزُ من أداء كلّ صلاةٍ لم تؤدّها على مدار النّهار، ثمّ جلست مستندةً بظهرها إلى الحائط على يمينها وهي مُطْرقة، لكنّ فيضًا من الدّمع غالب جفنيْها رغم إطباقهما لتسيل الدّموع على وجنتيها من دون حراكٍ إلّا من شفتيها تردّد بهما أذكارَ ختم الصلاة، وبنانها تحرّك عقلها عدًّا كـ مسبحة، عدّة قطرات من الماء البارد تطايرت فوق وجهها من بين خِصاص النافذة،

أجبرتْها على فتح عينيْها باندهاش، مِن أين يجيء هذا الماء في هذا الوقت؟! ليست «كارولين» تغسل النّافذة وهي تعدّ الطعام!

همّت «إنصاف» بالوقوف بعد أن تزايد نفادُ الماء عبر نافذتها المفتوحة فوق رأسها؛ حتّى صنع خطًّا رفيعًا يجري ببطءٍ على الجدار أسفلَ النافذة، ومن ثمّ صار الخطّ بضعة خطوط مُتجاورة بشكلٍ متعرّجٍ، وكأنّ الماء يصنع لوحةً لخريطةٍ مائية تلتحم فيها الخطوط الجارية في موضعٍ ما، ثمّ من جديد تفترق، عينا «إنصاف» لم تحدّدَا بعدُ مِن أين يجيء هذا الماءً حتّى فتحت النّافذةُ على مصراعيها.

– يا الله ما أرحَمَك! مُطِرنا بفضل الله، وكأنّ السماء تشاطرني البكاءَ عليكِ يا «عزة»، رحمةُ الله عليكِ يا ابنتي.

– مطر.. بل مطرٌ شديد، بلا رعدٍ ولا برق، مطرٌ ساكنٌ في يناير يا خالة.. هي «ديمة» إذًا..

التفتت الجدّة باتجاه الواقف على باب شقتها مبتلّ الملابس، بينما يتساقط من ثيابه الماء بعدما أثار انتباهَها بجُملته، ثمّ أغلقت النافذة واتّجهت بسرعة إليه وهي تجذب بيمناها منشفةً ما من فوق أحدِ مقاعد السفرة، وناولته إيّاها وهي تتساءل:

– ألهذا الحدّ المطرُ شديد يا «مينا»!؟

– كما لم تمطرْ طوال الشتاء يا أمّ «عـ»...

بترَ دكتور «مينا» جُملته فجأة وهو يطرق متذكّرًا خبرَ وفاة جارته، وابنة صديقة والدته المقرّبة.. «عزة» قبل أن يخفض صوتَه متأثرًا.

– البقاءُ لله يا خالة. لم تخبرني أمّي بخبر وفاةِ «عزة» إلّا وهي تطالبني بإحضار علبة لبنِ الأطفال هذه لـ «ديمة».

ناولَها «مينا» بضعة أكياسٍ واحتفظَ بواحدٍ، قام بوضْعه على المنضدة قُبالة بابِ الشقة، ثمّ قامَ بتجفيفِ شَعْره ووجههِ بالمنشفة التي ناولتْه العجوزُ إيّاها قبلَ أن يضعها جانبًا ويلتقط بضعةَ أشياء من داخل الكيس الذي سبق ووضَعَه على المنضدة، وأمر الجدّة أن تقوم بغلي الأدواتِ التي ابتاعها من أجل استخدامها في إرضاع الوليدة، ثمّ اتّجه إلى الأريكة التي تنام الطفلةُ فوقها، وحملها برفق:

– أنتِ هي.. أنتِ «ديمة» إذًا، ربّما مازلنا في فصل الشّتاء بعد، لكن هو مساءٌ الشتاءُ فيه بلا رعدٍ ولا برق رغمَ طول الزخّات، وسكون الكون يا صغيرتنا! وكأنّ السماء قد أمطرتِ اليوم؛ في الخامس والعشرين من شهر يناير من العام ألفين وأحدَ عشَرَ لتمنحك السّماءُ اسمك! شكرًا للربّ.

انهمرتْ دموع «إنصاف» كالسّيل دفعةً واحدة في سكونٍ يشبه المطر بالخارج، بينما تقوم بتحضير الرّضعة الأولى لحفيدتها الهادئة تمامًا– على غير عادة الأطفال بعد الولادة– بين يديّ الدكتور «مينا وجيه بيشوي»، والذي بدأ في ممارسةِ مهنته بالفعل، وأخذ يفحص الصّغيرة باهتمام بعد أن وضعها على الكرسيّ أمامه، وأخرج سمّاعته الطبيّة وجهازَ قياسٍ الحرارة، وتلك الأداة التي تُشبه عصا المثلّجات التي يستخدمها الأطباءُ عادةً في فحص فمِ الأطفال، والرّضع منهم على وجه الخصوص. استدارَ «مينا» فوْر سماعهِ لصوت والدته التي دلفت إلى الشّقة دون أن يشعر، وتوجّهت

لتوّها إلى حيث تقف صديقتها أمام تلك المَنْضدة المُستطيلة بوسط الشّقة، ثمّ ناولتها عدّةَ أوانٍ كانت تحملها فوق بعضها البعض بشكلٍ رأسيّ، آنية أربعة ممتلئة جميعها بالطعام التي فاحت رائحته بالفعل، حتّى أنّ ولدها لم يلقِ بالًا لأمِّه التي تلهثُ أمامه من فرْط ما بذلته من جهدٍ وهي تترجّل السّلم بكلّ هذه الأواني، واتّجه مباشرةً إلى الآنية التي وزّعتها «كارولين» بمنتصف المنضدة، وأخذ يرفع أغطيتَها، الغطاءَ تلو الغطاء، وأمّه تضربه على كفّه وهي تشير له بعينيها حتّى يراعي حالة ما بخالتِه «إنصاف» من حزنٍ على فقْد ابنتها.

تنحنَحَ «مينا» بحرجٍ وهو يُقلّب ناظريْه بينهما، ثمّ يعيدُه إلى أواني الطعام من جديد، ماذا يفعلُ وهو لم يتناولْ أيّ طعامٍ منذ الصباح حتّى الآن!، هذه عادته التي اكتسبها من والدته- لا طعام خارجَ المنزل- حتّى يعود.

- عذرًا خالتي «إنصاف»؛ فأنا كما تعلمينَ لا عقل لي أمام طعام أمّي.

حاولتِ العجوز أن ترسمَ ابتسامةً على شفتيها، فخرجتْ باهتة كلَوْنِ وجهها الشّاحب من شدّة الحزن، وهي تمدّ يدها إلى أقرب المقاعد حول المنضدة، وتنحنحت هي الأخرى قبل أن تقولَ متّجهة بوجهها إليه:

- أنا أيضًا لا عقلَ لي أمام طعام أمّك، لتحضرَا لي طبقًا وملعقة أو سآكلُ من الأواني بأصابعي؛ لا أستطيع أن أنتظر أكثر.

****

كلّما كادتْ «إنصاف» تجهشُ بالبكاء؛ أحجمت الدّمعَ، وتظاهرت من جديدٍ بالتماسك، الجميعُ يعرف عن «إنصاف» أنّها امرأةٌ قويةٌ جدًّا.

منذُ قرار زواجها من طليقِ أختها الذي اتخذته بعدما طلّق شقيقتها التي تكبرها بعاميْن قبل عشراتِ السنين؛ والجميع قد أدرك كمْ هي قوية ومستقلّة بذاتها، معتدّةٌ بنفسها للغاية، تعرف ما تريدُه، وتسعى إليه بكلّ ما أوتيت من إيمان.

على صغر سنّ «إنصاف» حينذاك، إلّا أنّ قرار أختها بالانفصال عن زوجها لأنّها لم تنجبْ منه بعد عامين زواج فقط قد أفجَعَها، كانت وشقيقاتُها الثلاثة يعملنَ جميعهنّ بمصنع الحياكةً الذي كان يمتلكُه شابٌّ قد تعدّى عمرُه الثلاثين ببضع سنين، لم يكن مصنعُه ميراثًا أو عطيةً من أحد أبويه، أو من أحد أقاربه، كانَ المصنعُ حلمَ أمّه الذي حقّقه بعد عودته من سفرٍ طال سنواتٍ وسنوات. لقد خرج من مصر فتًى في الخامسة عشرة من عمره، أصعدته والدتُه بنفسها ومالها إلى أحدِ مراكب الصيد المعروفة بتهجير الشّباب عبر البحر هجرةً غير شرعيّة، بعد أن قامت برهْن منزلها الذي تعيش به هي وإخوته السّتة؛ على أمل أن يعملَ ولدُها البكريّ حيث يُلقَى، ثمّ يسدّد مديونية رهن البيت وينقذها- وإخوته- من الضّياع.

كانت الأمّ تستعدّ لبذل ما هو أكثر من ذلك مقابلَ أن يقبل الربّان بصعود أكبر أبنائها فوق سفينته، والتوجّه به إلى حيث سبقه كثيرون قد نَجَوا بفضل الله ثمّ دعوات أمهاتهم.

بأعجوبةٍ قد نجّاه اللهُ من الغرق الذي أصاب آخرينَ ممّن رافقوه رحلةَ الموت تلك، كما نجّاه الله- أيضًا- من بلاءاتٍ أخرى كانت تصيبُ أقرانه ممّن شاركوه الوسيلة والبلدة كذلك.

وبعد عقديْن قد مَضَيا من عمره في غربةٍ عاد ليحقّق حلميْن أخيريْن لوالدته؛ أن يتزوَّج من ابنةِ خاله- فلم يعدْ هناك ما يعيقه عن ذلك- بعدما زَوَّج كلّ إخوته وهوَ في غربته، وأن يقوم بإنشاء مصنعِ الحياكة ذاك؛ فكثيرًا ما جلستْ والدته أمام ماكينة خياطتها البدائية وهي تقَسم لنساءِ قريتها بأنّ ولدها سيصبح يومًا ما صاحبَ أكبر مصنعِ حياكة بالبلدة، وأنّه سيجهّزه بأحدث المعدّات والخبرات، وسينتج أجمل التّصَميمات النسائية لهنّ، وأروَعَها.

كانت تتطلّع لهذا الحلم وكأنّها تراه، وها هو ولدُها قد عاد من غربته ليحقّق لها حلمها، لكنّ الشابَّ قام بتبديل حلْمَي أمّه، وأرجأ الزّواج لما بعد إنشاء مصنعه، وعلى مضضٍ وافقت الأمّ على هذا بشرط أنْ تكون العروس ابنةَ خاله التي عشّمتها عمّتها بالزواج من ابنها فور عودته واستقراره بحضن والدته من جديد.

ربّما عاد الابنُ من غربة الوطن، لكنّه لم يعد إلى أحضان والدته كما كانت ترجو، فقد انطلقَ بحلمِها من قاع القرية إلى صدْر المدينة، وهناك ابتاع شقةً بحيّ شعبيّ شهير، ثمّ تعاقدَ على شراء قطعة أرضٍ بالقرب من نفس الحيّ الذي صار يقطن فيه؛ لينشئ عليها مصنعَه، ما أنِ انتهى محاميه من إجراءات التّعاقد على قطعة الأرض تلك، ثمّ ما تلاها من تصريحاتٍ خاصّة بالموافقة على إنشاء المصنع فوقها؛ حتّى بدأ الشابّ الثلاثينيّ في بناء مصنعه، أو الحلم قبل الأخير لوالدته؛ إذ بقي لها عليه تلبيةُ مطلبٍ مصيريٍّ أخير؛ أن يتزوّج كما وعدها أنّه سيفعل بعد أنْ جهّز المصنع وانتهى من إصدار أوّل خطّ إنتاجيٍّ فيه.

****

هناك داخلَ مصنعه التقى بها؛ شقيقة «إنصاف» التي تكبرُها بعامين، وصاحبة الطلّة الأخّاذة، لم يبذلْ في التقرّب إليها أيّ جهدٍ، فمنذ وقعت عيناه عليها شعر كما لو كان يعرفها منذُ سنين، كان فيها من جَمال الرّوح ما تمّم جَمال الملمح؛ الأمرُ الذي جعل كلّ شيء بينهما سلِسًا ومباشرًا، وواضحًا وضوحَ الحبّ، فذهب مباشرةً إلى والدتها بعد أن تعرّف على أخواتها الثّلاثة اللواتي كُنّ يعملنَ معها بمصنعه؛ اثنتان متزوّجتان، أمّا هي و«إنصاف» أختُها الصغرى فبلا زواج، كانت لوالدتها نفسُ روحِ ابنتها التي أَسَرتْه بجماليّ الروح والمَلْمح، فقصدَ بيتها من فوْره لطلب يدها من أمّها، والدها قد وافتْه المنيّة قبيل بضعة أعوام فنسّقت والدتُها له موعدًا مع الأخوال والأعمام، ثمّ اتّفقوا فيما بينهم على كلّ شيء، كان التّرحابُ به ملحوظًا من الجميع، وعلى الرّغم من عدم ترحيب والدته بعروسه، أو بأسرتها، أو بفكرة أن يتزوّج من فتاةٍ غير بنت خالِه من الأساس، والتي بسبب خطبته من سواها لم يحضرْ مع والدته أحد، فهي التي سبقَ ووقفت طويلًا على مرأى ومشهدٍ من الجميع، بين بنت أخيها وكلّ خاطبٍ طارقٍ لبابها؛ مؤكّدةً أنّ ولدها لها متى يعود.

لكنْ يبدو أنّ الابن الذي أطاع والدتَه في كلّ أمرٍ منها بشأنٍ لا يخصّه إلّا فيما يتعلق بالمال فقط؛ قد قرّر أن يتخلّص من وصايةِ أمّه في المال، وما دون المال، بعد ما أضاع عقديْن من عُمره في بلدٍ غيرِ وطنه، وبين أناسٍ ليسوا أهله على الرّغم منه.

– كان من المُمكن أن أتزوّج بإيطاليةٍ يا أمّي، كان من الممكن أنْ لا أعود إلى مصر أبدًا، الجميعُ يفعل هذا هناك حتّى المتزوّجون، إنّهم يحصلون على

الجنسية الإيطالية بهذه الطّريقة السهلة، لكنّي ادّخرت نفسي لبنتٍ من بنات بلدي- مصريّة مثلي- تحمل في تكْوينها خصائصَ الوطن، أنا أحبّ وطني يا أمّي، والزوجة هي ثاني أوطان الرّجال من النساء بعد أمّهاتهم، لم أخترْ مصر وطنًا لكنّي اخترت أنْ أعود إليها، ولم أخترْكِ أمًّا ولكنّي أحبّك بكلّ ما أوتيت من قلب، أرجوكِ يا أمّي أصغي إليّ بقلبك جيدًا، يا أمّ: إنّ قلوب الرّجال لا تدقّ عندما يرون امرأةً جميلة؛ إنّما يخفق قلب الرّجل حينما يتحسّس صدره فيجد أضلعَه قد اكتملت، وإن لم يرَ من امرأته إلّا عينيْن أسفل وشاحِها، أو أنّه استنشقَ عطرها وإنْ كان أعمى، أو سمع صوتها ولو مِن وراء جُدُر، وكأنّما بحلول امرأةٍ بعينها- مهْما نقصت- يبلغ الرّجلُ التمام، وهذا ما حدثَ معي يا أمّي، فَبَاركِي هذا الزّواج حبًّا في ابنكِ الذي لم يخالفْ لكِ أمرًا قط، أنا منذُ أن شببتُ فوق الأرض مشيًا وأنا طوعُ يديكِ.

عامان مرّا على زواجه منها كان فيهما لها نعْمَ الزّوج، أكرمَها- وأمّها، وأخواتها- عنْ طيب خاطرٍ منه، لكنّها لم تستطع أن تتحمّل مدّةً أطول من عامين في مشوار علاجه من خللٍ ما حالَ بينه وبين الإنجاب منها، بعد تكرارٍ وإصرارٍ منها على طلب الطلاق منه طلّقها وهو بقضاءِ الله فيه راضٍ، أجبرت أختيْها على تقديم استقالتِهما من مصنعه، بينما «إنصاف» هي الوحيدة التي أصرّت على البقاء، أعجبه اعتزازها برأيها ومخالفتها لهوى أختها، وكأنّه يراها لأوّل مرّة، لا يدري ما الشيء الذي جذبَه إلى «إنصاف» فجأة، حتّى أنّه لا يدري كيف ملكَ الجرأةَ أن يعرض عليها الزّواج؟! أو لماذا هي وافقت فورًا دون تردّدٍ على هذا الطلب؟!

عاشا معًا في سعادةٍ أحدَ عشَرَ عامًا، أنجبت «إنصاف» ابنتهما «عزة» في منتصف العام السّادس من زواجهما، ثمّ مات عنها زوجُها بعدها بخمسة أعوام فقط، كان موته المفاجئ أوّلَ فواجع «إنصاف»، إذْ توالتْ من بعدِ فقْدِ زوجها على رأسِها الفواجعُ، التي كانت آخرها- حتّى الآن- موتَ ابنتها الوحيدة «عزة»- وهي التي بلا زوج- بنزيفِ ما بعد الولادة، تاركةً خلفَها وليدة بلا هويّة تحتاج منها الكثيرَ والكثير من الرّعاية والجهد، وهي العجوزُ التي بلا مُعين غير الله، ثمّ.. جارتها «كارولين».

****

إنّ في تكويننا ما يُقوِّينا، وفيه ما يضعفنا (الطّين والماء)، وإنّ في النّاس مَن هُم صيف، ومَن هُم شتاء، وإنّما يعادل الله التّفاوت في تكوين خلقِه بالقدرة؛ وإنّك قد تُبلى في الناس على نصابِ قُدرتك، فلا ينزعنّك من إنسانيّتك أصيافهم، ولا تمحونّك أشتيةً، فأنتَ متجددٌ في ذاتك كشجرةٍ بين عقلك وقلبك، هبْ أنّك أتممت فصولَ الناس بخريف العقل المتبوع بربيعك القلبيّ، وأينما أُنْزِلت أزهر.

وهذا ما قرّرته «إنصاف» بعيدًا عن حزنِها على ابنتها؛ أن تتحمّل تبعات فِعال ابنتها «عزة»، وهي تدعو لها بالعفوِ والمغفرة، ولسانُ حال قلبها كـ أمّ أَنْ عسى اللهُ يرحم ابنتها؛ فهو الرحمن الرحيم.

دائمًا المَروِيّ له دونَ الغوص في ذات العرَض ما يجهل الألمَ الناتج في قلوب الرّواة، هي بعض الصّور الباهتة تتكوّن في خاطر المُستمع، فيقدّم النصح أو الإجراء الشموليّ بمنتهى الجُمود، فلم يُطيِّب خاطر أحد،

ماذا لو أنّه بجوار الوظائف الفعليّة كان من هم أطبّاء للأرْواح، مَن هم الذّوات المغموسة في أقسى درجات الابتلاءات، وفي قعْر كلّ داءٍ هي تنصهرُ وتشكّل من نفسها أوّلًا الدواء بمُنتهى اللّين والصّدق، ثمّ تنثرُه ترياقًا، وبه يشفى كلّ مَن ذاق.

ويظلّ الوسْع النفسيّ من المُعطيات الربّانية التي لا يجوز فيها تنظيرٌ من أحدٍ على أحد، مادامتِ النّفس التي تحترق كالشّمس في ذاتها؛ قادرة على بعث الضّوء والدفء والجمال دونَ اختلالٍ في المدار، أو انطفاءٍ في الذّات، فـ صَهٍ يا مَن لا تعرف هذه النعمة حقّ المعرفة، فَفَقَط مَن ذاق هذه الخاصّة عرفَ واغترف، وإلى ما ينفع الناسَ انْصرف.

اعتدلتِ المحامية «أشجان» في جلستها وهي تستمعُ إلى «إنصاف» باهتمامٍ وتأثرٍ بالغيْن، حتّى انتهتِ العجوز الجالسة قُبالتها من شكايتِها، ثمّ ناولتها الورقةَ المطويّة مع البطاقة التي تحملُ اسمها وعنوانَها وأرقام هواتفها، متمّمةً بذلك المشهدَ الذي رسمته لها ابنتها «عزة» قبيلَ وفاتها بقليل، توقّعت «أشجان» الحاصلة على دكتوراه في القانون الجنائيّ أن تجدَ في الورقةِ المطويّة التي ناولتها إليها العجوزُ بعضَ المعلومات عن والد «ديمة»، أو أيّة خيط تتبعُه كدليلٍ يصل بها إلى طرفٍ من أطراف القضية، لكن يبدو أنّه لا قضية!

فإنّ ما خُطّ في رسالة «عزة» لم يكنْ سوى دموع امرأةٍ توكِلُ إنسانيًّا ابنتها وأمّها إلى شخص الدّكتورة «أشجان» ذاتها! هكذا ببساطةٍ دون سابقِ معرفةٍ بينها وبين «عزة»!

"إلى الإنسانة «أشجان»، عليكِ من الله سلامٌ، وبعد:

عندما تصلُك هذه الرسالة سأكون أنا حيث يرحلُ الإنسان كرهًا عن سطح الأرض إلى باطنِها كما نجيء إليها كرْهًا، لكنّي سأكون تاركةً فوق الأرض قطعةً منّي لهذه العجوز التي حملتْ رسالتي إليكِ كرهًا أيضًا، ربّما تظنّين أنّني أريد رفعَ قضية أو أخذ حقوق، لا يا سيّدتي أنا لا أريدُ هذا ولا ذاك، أنا لا أريد يا «أشجان» الإنسانة: إلّا السّلام لابنتي وأمّي، وأنا أعرف أنّكِ راعيةُ سلام، حاملةُ محبّة، لا تتعجّبي؛ فأنا أعرفك جيدًا، أعرفك إلى درجة أنّني أحفظُ ملامحك، وأعرف خصالك، وأعرف أنّكِ للأمانة أهل، أرجوكِ لا تندهشي، ولا تظنّي أنّي أكتبُ رسالتي إليكِ وأنا مَحْمومة، حتّى إنْ بدا لكِ أنّ ما خططته إليكِ هذيان راحلة، لا تأخذيني على محْملٍ غير أنّني حقيقة، وأنتِ عليكِ تصديقي وقبولُ أمانتي.

ربّما ابنتي بلا اسم، لكنّها لها أبٌ قد تنكّر منها، ولها هويّة أنتِ- أيضًا- تحملينها، وأعلم أنكِ بلا أطفال، وأنّك من المستحيل أنْ تنجبي كذلك؛ فاقْبَلي صغيرتي في بيتِك وأكْرمي نُزلها وأمّي، وإنْ شئتِ كوني لابنتي أمًّا واسْقيها من محبّتك وإنسانيتك، وعلّميها الحقّ، واصنعي لها كرسيًّا في مكتب الدّفاع عن الإنسانية، وأجْلسيها عليه، فمَن كان مشربها ومأكلها عبر الرّوح والفكر؛ لا خوف عليها أو منها، وعليها وعليكِ سلام".

رسالةٌ مبهمة على رغم أنّ الكلمات فيها تقطّر صدقًا، إلّا أنّها قد أثارت في نفس «أشجان» الكثيرَ من الشكوك، التي جعلتها تنهض من جلستها منتفضةً وهي تتوجّه نحو العجوز الجالسة في الجهة الأخرى من المكتب قُبالتها قبل

أن تجلس وهي تتأمّل كلّ تفاصيل المرأة بتوجّس قبل أن تطلق من صدرها زفرةً حارّة أفرغت بها الكثيرَ من توترها لتخفّفً من ضربات خافقها خلفَ خصاص صدرها.

حتّى أنّ «إنصاف» قد شعرتْ به وهو يكاد يخرجُ من بين ضلوع «أشجان» من فرط الانفعال.

– مِن أين جاءت ابنتك باسْمي وعنواني؟! ولو أنّ هناك مَن دلّها عليّ؛ فلماذا لم تخبرْني به في رسالتها؟ هناك شيء ناقص يجعل الأمرَ برُمّته غريبًا ومريبًا.

– لست أفهم ما الذي تقصدينه يا أستاذة؟!

– ألم تقرئي رسالة ابنتك؟! هي لا تريدني أنْ أرفع لها قضية كما تظنّين، ابنتك تحمّلني إيّاك وصغيرتَها، بل وكانت تعرف أنّني بلا أطفالٍ، وأنّني لن أنجب كذلك! مِن أين لها بهذه المعلومات عنّي، وأنا لا أعرفها ولا تعرفني؟!

****

مصر – ٣ مارس ١٩٩٤

القاعدة في الحبّ أن يلتقي كلّ ببعضِه فيكتمل شِطران على ذات النفس.. {..من أنفسكم}، والنّتيجة من الحبّ أن يصبح للواحدِ مرفأ بعد كلّ تلاطم يستريح حدّه من كَبَد الدّنا.. {..لتسكنوا}، وما بين تلاحم الشّطريْنً والوصول إلى المرفأ؛ تصعدُ روحان إلى سُفنِ المودة، وعلى شراع الرحمة يبدأ الإبحارُ بسلام مهْما علتِ الأمواج حولهما بعد.

هذا هو ما حدثَ تمامًا بين «أشجانٍ» وزوجها الدكتور«مؤمن»؛ التقيا فاكتملَا رغم كلّ المحاذير، وكلّ الأسوار، وكلّ العوائق، في حالتهما لم يكن قرارُ الارتباط قرارًا سهلًا على كليْهما، لكنّ المحبة إذا حلّت بقلبِ إنسانٍ قوّته، وهُمَا قد قويَا بالحبّ.

سافرتْ «أشجان» مع زوجها الطّبيب «مؤمن» إلى تلك البلدة الأوروبية التي وُلد وترعرع فوقَ أراضيها، ليستكملَ ممارسةَ مهنته التي يعشقها (الطّب)، بينما عملت «أشجان» مستشارةً قانونية بأحدِ الشّركات هناك، ساعدها على ذلك علاقاتُ زوجها المتعدّدة، والتي ورثَها من أبيه الذي عاشَ ومات في نفس البلدة، والذي بسببِ وفاته التقى «مؤمن» بـ«أشجان»، عندما استعان بصديقٍ له أن يرشّح له محاميًا لإنهاءِ إجراءات تخليص جثمان أبيه من المطار، واستخراج شهادةِ وفاةٍ له؛ فرشّح صديقَه له المحامية «أشجان».

«مؤمن» الذي وُلِد وتربّى بـ«إنجلترا» حيث عاش أبواه، ومَاتَا، لا يعرف الكثير عن الرّوتين المصري، أو كيف يتمّ التعامل في أيّ إجراءٍ قانونيّ بها، وكرجلٍ وُلد وترعرع وكبرَ في مدينةٍ كـ«لندن» فأوّل شيء قد قرّره بعدَ وفاة والده أنّ يوكلَ العيشَ لخبّازه- كما يقولون-، وكما أنّ الأمر بينه وبين صديقه الذي قصدَه بترشيح محام له كان مجاملة؛ كان قبولُ «أشجان» لذلك الترشيح مجاملةً أيضًا بين جارٍ وجارته.

- «مؤمن»، لا تكنْ في قلبي جرحًا، فطعناتُ الأفئدة عاندة، وليس أقسى على أنثى من أنْ يكون خنجرُها "اسمًا"، فهل بمقدورك أنْ تنذرني اسمَك فرحةً، وأنْ تكون لفؤادي بلسمًا؟!

رفع «مؤمن» حاجبيْه متعجّبًا وهو يتأمّل تفاصيل وجه «أشجان» بشيء من عدم التصديق؛ إذْ لم يتوقّع أن يأتيه ردُّها على كلمة (أحبّك) بمثلِها كلمات، لقد أعجبَ بها منذ الوهلة الأولى التي رآها فيها، لكنّه لم يبدِ لها ذلك الإعجابَ بشكل مباشر قبلَ الآن؛ احترامًا لكلّ ما عرفه منْها عنها، كثيرًا ما يحتاج المُثقلون إلى شخصٍ غريبٍ؛ يضعون في مسامعه ما يثقل دَواخلهم، ولا يمكنهم البوحُ به للأقربين، «مؤمن» هو الشّخص الغريب الذي مرّ على «أشجان» فدسّت فيه بعضَ أسرارها التي ترهقها؛ هو في النّهاية سيطير عائدًا من حيث أتى، وربّما لا يلتقيان مرّة أخرى، إذًا فلا ضيرَ من بعض البوْح، هي فرصتها أن تفرغ في نفسِها مساحةً من الكتمان لما تبقّى لها من عُمر.

كان خبرُ خطبتها مِن سواه أقلَّ ما صدم «مؤمن» في كلّ ما أخبرته به عن حياتها، صار يعرف أنّه يستحيل للحبّ أن يولَد بينهما لكنّه لم يستطعْ إلّا أن يحاول، ربما لو أنّه لم يخبرْها بذاك الشّعور الذي بات يسيطرُ عليه؛ فسيظلّ عالقًا فيه وحده، هو أراد أن يكفّ عن رأسِه فكرة أنّه لم يحاول، والدُه ربّاه على الإقْدام، وترْك النتيجة على مَن بيده الأقدار، أنشأه على أنّ أفضل ما يملكُه المرء في هذه الدّنيا أن يسعى، يسعى دون توقّع نتائج، أخبره أن يوكلَ كلّ ما هو عينيّ إلى الله، اللهُ قادرٌ على كلّ ما نحسبه نحن مستحيلًا.

– يا بنيّ، "ما لنا مِن كشفٍ في خبايا الأقدار إلّا ما كان لموسى مع فِعَال الخضر دون أسبابه؛ وكأنّ إحاطة الخُبُر في الامتثال لكلّ ما تُعطيه الأقدار، أو تمنعه دون فضول الهِرَرة، وإنّ إلحاحَ النفس على النفس في الإحاطة بكلّ شيء قد يوجِبُ الفرقة بين اثنيْن كان العهدُ بينهما المصاحبةَ في الدّنيا معروفًا، فلن تجد أقتلَ للرّوح من تأليه روحٍ مثلها عليها، حتّى وإنْ كانت النيّة خيرًا،

الأكثر خيرًا ها هنا أنْ نأخذ من الحياة ونتركَ ونحنُ لا ننشغل بما يضرّ ولا ينفع، فليس بين ما نُضطرَّه وبين ما نرتضيه؛ إلّا أنْ نستطيع على الأقدار صبرًا، وإنْ خُرقت في عرض اليمّ سفينتنا، أو قضى وحيدُنا نحْبَه، أو بذلنا من أنفسنا ما لم نؤجَر عليه من الناس".

كلّما أحجم «مؤمن» عن فعلٍ ما لا يضمن له نتيجة؛ تذكّر وصايا والده التي كان دومًا يلقيها عليه بحسب المواقف، زفرَ «مؤمن» زفرةً بطعم الحنين بعد أن أصمته تذكُّر أبيه من خلال ما غرسه فيه من قيم، ثمّ شبّك أصابعه وهو يستند بصدره على مكتب «أشجان» ورفع عينيه يتأملها وكأنّه يراها كأوّل مرّةٍ في كلّ مرّة:

– لا أجيد اللفّ والدّوران يا «أشجان»، ربّما لم تعرفيني بعدُ لكنّي شخصٌ واضحٌ جدًّا، وأنا أحبّ أن أحدّد في التوّ مسيري وليس مصيري، فالمصائر بيد الله– عزّ وجلّ– وهذه هي المرّة الأولى التي أشعر فيها أنّ خطاي مرتبطةٌ بخُطى أحدٍ غير أبي، رحمةُ الله عليه.

– رحَمَه الله، وأبي، يا «مؤمن».

هذه المرّة نظر «مؤمن» إلى عينيها مباشرة وهو يقولُ بصوتٍ راجٍ جمعَ فيه كلّ شجاعته:

– هل تتزوّجين بي يا «أشجان»، وأعدُك أنّني لن أجعلك تندمين على هذا القرار أبدًا، لا تفكّرين لبرهةٍ حتّى، فهذا قرارُ ما وقرَ في القلب، أخبريني حالًا ما الذي شعرتِ به؟

– أحبّك.. قَبِلت.

لكلٍّ منّا نفسٌ تشبهه في كلّ شيء، إلّا أنّها عادةً تكون الأقوى منه عضدًا ووسْعًا.

هبْ أنّ نفسك التي أمامك لا ترى مِن كلّ شيء حولك إلّا أنت جنّة، هبْ أنّها الوحيدة التي تتمنّى رفقتك في كلّ حال، كلّما سقطت تُهْرع إليك وتلوِّح لك بإصرار:

- "أنا هنا".

فترى فيها جنّتك فتنهض، وهب أنّكما في كونٍ أصمّ وهي فقط التي تحادثك دومًا بحديثٍ خفيّ:

- "أنّ العمر جسر، وأنّ النّاس حصًى فوقه، أنّ بعضهم جرح، وبعضهم ضمادة، لكنّا يوم القيامة سنلقَى الله فُرادى؛ إلّا من أنفسنا التي نحنُ منها، وعليها، مبصرون.

- وأنا لكِ نفسك يا كلّ حُوّي، دومًا أنا معكِ سأسير ولو حبوًا، وإن تعثّرتِ حملتك، حتّى أنّك ستخالين العشّاق بي وأنتِ تقفين في مواجهتي أمامهم، وتشيرين إليّ قائلة: "تحياتي إلى الشّخص في مرآتي؛ الذي لم يتخلّ عنّي قط"، وسيبحث جميعهم عن المرآة بيننا قبل أن يفقهوا قولك.. أحبّك.

- أحبّك.

****

مصر - ٢٧ يناير ٢٠١١

كلّ أعينِ الناسِ ترى الأشياء مختلفةً بعد المطر، أمّا صدورهم فتختلف في تلقّي الهواء من بعدِ الغيث، ويبقى مِن بين العالمين ثلةٌ لا تزال تستقبل ماء

السّماء بطين الأرض ليخضر في الأُدْم والحُوّ ما يبّسته فصولٌ ثلاث سبقت فصل الشّتاء، لكن يبقى حديث الإماء مع الله ها هنا أدومَ الأحاديث، و«مؤمن» ليس إلّا من عباد الله المكرمين؛ الذين لا يسفّهوا في النّون عشقهنّ لاستقبال المطر بأجسادهنّ وأذرعهنّ كأجنحة اليمام، لقد أصبح «مؤمن» لـ «أشجان» من ثلّة الرحماء الذين هُم بلا أرحام، لكنّهم ودُّوا ذوات الرّحمِ بلمسةٍ تحت المطر فأزْهرن.

– «أشجان» هل أنتِ سعيدة معي؟

– أهذا سؤال يا «مؤمن»؟!

حاوط خصرها بكلتا يديه وهو يدسّ رأسه بين كتفها وعنقها ثمّ يستند بذقنه على كتفها هامسًا:

– نعم هذا سؤال يا زوجتي المصون، ومن فضلك أجيبي، وبصدق.

برقّةٍ خلّصت «أشجان» خصرها من بين ذراعيّ «مؤمن» ودارت حول نفسها نصف دورةٍ لتصبح في مواجهته تمامًا، وأخذت تتأمّل عينيه فينةً، وابتسامتها تتّسع فوق شفتيها:

– بل أنا أسعدهنّ يا حبيبي؛ حتّى أنني مشفقة على كلّ الذين يعدون بالسعادة بالتسويف لأيّ سبب ليس بين أيديهم، إنّ السعادة لا تحتاج التمام الذي يسعى الناس إليه، فكلّ تمام بعد بلوغه نقصان، هكذا هي النّفس لا قمة لتطلّعها، وكلّ قمة بعد بلوغها هي والأرض سواء بعد تلك اللحظة من فخر الممتلك.

تركتْه يقترب ليحتضنها بقوةٍ وهي تستطرد حديثها كالمحلِّقةٍ فوق السحاب:

– نعم أنا في قمّة السعادة يا «مؤمن»، فلا عليك ممّا هو خلف سؤالك؛ فما السعادة إلّا أن نسلك دروب الكبَدِ ونحن نستمتع بكلّ حصى ستغرس في أقدامنا منها، ونحن راضيان بكلّ رزقٍ حصلنا عليه، ونحن لا نرى رفقة أحدنا للآخر عبئًا؛ بل عونًا.

ازداد عناقه لها أكثرَ وأكثر وكأنّه يستدركها بعناقه حتّى تستكمل حديثها فتزيده:

– السّعادة، أي عشقي، أنْ نعرف أنّ ما نحن فيه هو وسعنا، وأن لا يكون غضب أحدنا من الآخر لنفسه، السّعادة أن لا نُحَمِّل الحياة كبدًا فوق كبَدِها، وأن نحسن إلى بعضنا بالصّبر والإيثار والودّ والرحمة وليس بالتبديل.

هنا، سحبت «أشجان» رأسها من صدره لتشاكسه بغمزةٍ وهي ترفع سبّابتها بوجهه أن إيّاك والتّبديل، فمثّل «مؤمن» أنّه يحاول أن يلتهم أصبعها وهو يرفع حاجبيه في إشارةٍ منه أنْ سأفكِّر، فعادت «أشجان» إلى صدره من جديد وهي تربّت بكفّها فوق قلبه مستطردة:

– السّعادة، أي أنا، أنْ لا يمرّ علينا اليوم ونحنُ ننتظرها في الغد، فالسّعادة الآن، السّعادة نحن حين نريد أن نكون سعداء.

احتضنَ «مؤمن» رأسها بتلك اللحظة بين كفّيه ونظر إليها طويلًا، وكأنّها نظرةٌ بقدر عشقه العظيم لها، قبل أن يهمس بنبرةٍ دافئة وكأنّ صوته اقتبس الدّفء من عينيها، وقرّر أن يشرق في آذانها بلا غروب:

– هل أخبرتك يومًا أنّ قمّة سعادتي وأنا أقول لكِ أحبّك؟!

– وهل أخبرتُك يومًا أنّك ساحرٌ، تقولها فتُطوَى الأرض، وتسري النّهُر، وتُسدَل الوارفات، وتمتلئ السماء بالنّوارس، وينتشر في الهواء فجأةً عبقُ الياسمين؟!

– أحبّك.

– أحبّك.

ثمّ مالت برأسها إليه حتّى استقرّت فوق كتفه، وعادت تتأمل السماء وهي تمطر من جديد، أمّا هو فكان يتأمّلها هي؛ حتّى عِوَجها فيه جمال يستحقّ تأمُّله، ما أسعد كتفَه تحت هامتها حين تميل فيلتقطها هو كمتّكَأ!، وما أسعدها بعدُ حين يتركُها تأخذ مسارها إلى العلو تحت المطر في ثبات!.. «هي» على فطرتها، و«هو» على تقواه، وكأنّ للسّلام رائحة حين يتدفّق العشق بين زوجين!

ظلّا على وضعيّتهما هذه حتّى توقّف المطر تمامًا عن السّقوط، فرفعت «أشجان» رأسها من فوق كتفه فجأة وكأنّ عقلها كان ينتظر توقّف المطر حتّى يُذكِّرها بأمر العجوز وتلك الرّسالة:

– «مؤمن»، هل تعرف امرأةً تُدعى «إنصاف»؟!

– «إنصاف»! كلّا لا أعرف أحدًا بهذا الاسم، لماذا؟!

– لقد زارتني بمكتبي اليوم امرأةٌ تحمل بطاقتي التعريفية ورسالة مكتوبة بخطّ ابنتها وما جيء في الرسالة هو الذي يثير دهشتي وعجبي.. وخوفي..

قالتها «أشجان» وهي تلتقط الرّسالة من داخل حقيبتها، وتناولها لزوجها مستطردة:

– ظننتُها قضية، لكنْ يبدو أنّها إمّا لغز أو فخّ.

- فخّ! هل تعنين..

قاطعته «أشجان» بإيماءةٍ من رأسها تعني نعم، وكأنّها لا تريده أن يترجمَ مخاوفها إلى حتّى جملة.. هي ترفض تذكّر الأمرَ برُمّته.

****

مازال الحيّ هادئًا كما هو لم يتغيّر فيه شيء بموت «عزة»، حتّى المقاهي التي كان جلوسُها قديمًا من الرجال فوق السّتين لا تزال مقاعدها ممتلئةً بنفس الوجوه الشبابية ككلّ يوم، هي فقط النظرات الموجّهة إلى «إنصاف» من الجميع هي المختلفة، ليست نظرات شفقة صوب أمٍّ مكلومةٍ في ابنتها؛ إنّما هي نظرات شكّ وريبة إلى جدّةٍ لا تعرف لوالد حفيدتها أبًا.

كما هو المعتاد في كلّ زمانٍ ومكان دومًا هناك مَن يتّخذ مِن الأخبار حرفته، دومًا هناك من يلوك اللّحم دون رحمة، وهناك مَن يخوض معه دون تقوى، وبين هذا وذاك هناك مَن يمشي بصحيح ما سمِع وكذِب وما زاد، ومجاملة مَن استزاد بمقابلٍ أو بدون، قليلون هُم من يربئون بأنفسهم من القيل والقال، وإن كان في أنفسهم شيء من الظنّ، قليلون مَن يَكِلون الغيبَ لَمن له من وراء كلّ جللٍ حكمة، ومن وراء كلّ صبرٍ جزاء.

لذلك كان الحبّ في الله له جلالٌ في الدّنيا، ونداءٌ من الرحمن يوم القيامة، وظلّ في يومِ حَرور مقدارُه خمسون ألف سنة؛ لأنّ المرء إذا أخذَ أخذ لله، وإنْ ترك تركَ لله، ولم يجعل لأناه موضعًا بينه وبين كلّ أصحاب المسافات الصّفرية، فكان وجهُ صاحبه طلقًا، وقولُه لينًا وكأنّه ما إنِ انتزع ما للنّاس من الفعل والقول؛ حتّى يرقّق الله قلبه وإن كانت كلّ القلوب حوله قاسية!

أمّا القاسية قلوبُهم فليس على المرء قربُهم، والترك لله ها هنا في الهجر الجميل؛ أن يخلق بينه وبينهم مسافة تُسلِمه فيها من لسانهم وأياديهم، ثمّ يصبر إن تَقوَّلوا عليه، ولا يركن لَمن بالقيل يأتيه.

كثيرون استوقفوها وهي في طريقها إلى مسكنها، وهُم بين مواسين ومتنابزين، وهي تتلقى مِن هؤلاء مواساتهم، وتتجاهل مِن أولئك تنابزهم في هدوء.

ليس أشدّ على النفوس من قهر الرجال، وليس أثقل على القلوب من حزن النّساء؛ أمّا القهر فقد يجلبُه على الرجل شدّة واحدة، بينما حزنهنّ ناتجُ تراصّ ما أُخرِس فيهنّ عمدًا؛ حتّى مُلِئت دواخلهنّ بالصّراخ، وإن ظاهرْن للعالمين بالهدوء والصمت.

خمسةٌ وستون عامًا هي عمر «إنصاف»، قضتْ منها ما يقارب الخمسين وهي بين الصّمت والهدوء وطول التأمّل والصبر، لا تدري لماذا طال الشارع الجانبيّ الذي يفصلها عن العقار الذي تقطنُ فيه فجأة، منذُ ترجّلت من السيارة الأجرة التي أقلّتها إلى حيِّها وهي محاصرة بنظرات الجميع وأقوال البعض، خفّة وزنها تحول دومًا بين أثر عمرها على جسدها، خطواتها رشيقة لا تخبرُ النّاظر لها من الخلف أنّ الراجلةِ أمامه في مثل هذه السن.

عينا «إنصاف» ممتلئة بالدّموع، وصدرها مفعمٌ بالحزن، لكنّها تجاهد أن تبدي ثقتها بنفسها في خطواتها رغم الأغراض الثّقال التي تحملُها بين يديها، وهي تمرّ بين عشرات الأعين التي ترمقها من كلّ مكان.

مِن بين الناظرين كانت هناك عينان مبتسمتان لشابّ عشرينيّ أقبل على «إنصاف» في لهفٍ وهو يقول:

– أمّي، كيف حالك؟! دعيني أحمل عنكِ هذه الأكياس التي تحملينها من فضلك.

هي عادةُ «حسين» الذي يعمل في تقديم الطّلبات بأقرب مقاهي الحيّ إلى بيتها، كلما رأى الشابُّ «إنصاف» تحمل أغراضًا أقبلَ عليها بامتنان وحملها عنها، هو لا ينسى أفضالها عليه منذُ أتى إلى هذا الحيّ صغيرًا ويتيمًا وبلا مأوى، حتّى أنّها قد آوته في بيتها عدّة أسابيع عندما نشب حريقٌ بالمقهى يومًا، كان «حسين» صغيرًا دون العاشرة وقتئذٍ قبل أن تصير المقهى فيما بعد كلّ حياته.

– «إنصاف»..

استوقفَها النداء الذي أتاها من خلفها قبل أن تدور بجسدها إلى «كارولين»، وهي ترفع حاجبيها دهشةً عندما رأت «ديمة» بين يديها، وإلى جوارها حماة ولدها «مينا» تحتضن هي الأخرى بين ذراعيها حفيدتها، ما لبثت أن تحوّلت الدهشة التي اعترت وجه «إنصاف» إلى قلقٍ وهي تقبل على جارتها، ومن معها، بينما تتحسّس الصغيرة بقلق:

– ماذا بها يا «كارولين»؟! ألم أطلبْ منكِ أن تمكثي بها في شقتك حتّى أعود؟! هل بكِ أو بـ«ديمة» ما استدعى نزولك؟!

– نحنُ بخير اهدئي يا «إنصاف»، نحن أمامك، وبخير، إنّها ابنة «مينا» «أيلا» توأم «كريستين» عادت بهما أمّهما من الصّعيد اليوم، لكن «كريستين»

مرضت فجأة فأخذاها على المشفى، عندما أخبرني أبوها أنّه بالمستشفى لأنّ حفيدتي ليست بخير؛ لم أستطِع أن أنتظر حتّى تعودي ثمّ أذهب لرؤيتها، ذهبت في التوّ إليها وبالطبع اصطحبت صغيرتنا معي.

سقطتِ الأوراق التي تحملها «إنصاف» بينما تلتقط حفيدتها من بين يديّ جارتها وأخذت تتفقدها باهتمام، ثمّ رفعت وجهها إلى العجوز إلى جوار «كارولين» وهي تعتذر بينما تمدّ يدَها مصافحةً إيّاها:

- لا تؤاخذيني يا حبيبتي، حمدًا لله على سلامتكم، وألف لا بأس على الغالية «كريستين».

التفتتْ «إنصاف» إلى «كارولين» من جديد متوجّهة بالسؤال إليها:

- ما الذي أصاب «كريستين»؟ وأين هي الآن؟ هل لا تزال بالمشفى؟

استقامتْ «كارولين» في وقفتها من جديد بعد أنِ انْحنت إلى الأرض تلتقط أوراق «إنصاف» في ظرفها الورقي، وقالت وهي تدسّ ذلك الظرف بحقيبة يدها:

- إلى الآن لم يخبرونا ماذا بها بعد، نعم لا تزال بالمشفى، لكنّي عدتُ لأجلكِ حتّى لا تقلقين على «ديمة» أو عليّ، ومن أجل حماة «مينا» وصغيرتنا «أيلا» أيضًا، سأصعدهما إلى شقّتي فالصّغيرة بحاجة إلى رعاية لن تتوفّر لها هناك، ثمّ سأعود إليهم بالمشفى من جديد.

- بإذن الله أذهب معكِ، لا تقلقي ستمسي «كريستين» بخير إن شاء الله.

- أخبريني ماذا فعلتِ مع تلك المحامية؟! ماذا قالت لكِ؟! وهل قبلَتْ بالقضية؟!

بدا على «إنصاف» الحرج وهي تنقل ناظريها بين وجه جارتها ووجه حماة «مينا» وكأنّها تشير إلى جارتها أنْ ليس أمامها.

مالتْ «كارولين» باتجاه «إنصاف» كعادتها دومًا كلّما أرادت أن تخبرها بسرّ ما، وهمست:

– لا تقلقي هي صمّاء، ولهذا أشار عليّ ولدي باصطحابها إلى بيتي، كما تعلمين صوتُ أمثالها عادة ما يكون عاليًا، و«مينا» لا يحتمل أيّ ضغطٍ إضافيّ فوق قلقه على صغيرته.

تنهّدت «إنصاف» باطمئنان، وأخذت تقصّ على جارتها ما حدث بينها وبين الأستاذة «أشجان» بينما هُم يصعدْن سلّم العقار معًا، استمرّا بالحديث حتّى بلغا باب شقة «إنصاف» فاستأذنت «كارولين» منها واستمرّت بصعود السلم وصولًا إلى شقتها في الدّور الثاني بنفس العقار لترك حفيدتها «أيلا» مع الجدّة هناك بعد صنع بضعة شطائر من أجل ولدها وزوجته، فالله يعلم متى يخرجون! استوقفتها «إنصاف» قليلًا وهي تهمّ بفتح الباب بسرعة قائلة:

– انتظريني قليلًا سأعود على الفور.

حملتْ «إنصاف» الأكياس التي تركَها لها «حسين» أمام باب الشقة من الخارج وهي تدعو له ببعض الدّعوات، وغابت بالداخل لأقلّ من دقيقة قبل أن تعود وهي تحمل بين كفيها بعضَ العلب البلاستيكية المعَدّة لحفظ الطعام:

– تستطيعين أن تطعمي ضيفتَك من هذا الطّعام، ثمّ تضبّين ما تبقّى منه داخل العلب كما هي ونأخذها معنا إلى المشفى، أو لتصنعي من الطّعام بداخلها بعض الشطائر وتتركينَ البقية للضّيفة كما تريدين، سأصلِّي الظّهر ثمّ

أجهِّز لـ«ديمة» رضعتها، بعدما أستبدلُ ملابسها وملابسي نصبح جاهزين للذّهاب معك بإذن الله.

لا كلمات تصفُ ما بنفس «كارولين» في مثلها لحظة، لكنّ ما احْتوته نظرتها الممتنة إلى صديقتها وجارتها «إنصاف» قالتِ الكثير، أتبعت نظرتها بأنْ ربّتت على كفّ صديقتها قبل أن تلتقط منها علبَ الطعام وتتوجّه بها إلى درجات السلم خلفها صاعدةً من جديد.

وقفتْ «إنصاف» تتأمّل جارتها الحبيبة «كارولين» وضيفتها حتّى اختفيْن من أمام ناظريها عند منعطف السلم، هي عادتها التي لم تخلفها قطّ منذ رشّحت لها «كارولين» هذه الشقة أسفلها، ثمّ انتقلت إلى العيش بها وهي لا تغلق بابها إلّا بعد أن ترى طيف صديقتها وهو يختفي عند المنعطف.

لا تدري لمَ تذكّرت في تلك اللحظة اتّصالَ أخواتها الهاتفيّ بها لتقديم العزاء في ابنتها «عزة» فبكَت فجأة، هل استحقّت منهنّ كلّ هذه السنوات من الفرقة لمجرّد قبولها بالزواج من طليقِ أختها بعد أن طالبته الأخيرة بالطّلاق بجحودٍ وأصّرت عليه؟!

كيف لم تتدخّل والدتها- رحمة الله عليها- في الأمر، وتنهيه قبل أن تموت؟!

لماذا قاطعتها هي الأخرى ولفظتْها من حياتها حتّى قبيل أيامٍ من موتها حين أرسلت إليها مَن يأخذها إليها لأنّها تحتضر وتريد رؤيتها؟!

لماذا بعضُ العلاقات كالكفر الذي يتنصّل به البعض فقط عندما يقترب الموت منهم؟!

بل لماذا في الأساس كانت والدتها لا تحبّها مثل أخواتها، ولا تعاملها مثلهنّ من قبل تلك الواقعة؟!

هل دفعَها إلى عصيان أوامرهنّ بترك المصنع وقتئذ، أو إلى قبول تلك الزيجة؛ إلّا ما ذاقته على أياديهنّ من نفورٍ وخصومة وفُرقة، أو ما سقتْها به والدتها من قسوةٍ ونكران؟!

أوّل هزائم النفوس تبدأ بميل الرّاعي، إنّ ميل الرّعاة شرّ، وإنّ الخير في العدل، وإنّ ميزان العدل أوّله ما يكتال به المرءُ لنفسه، وإنّ من ظلم النّطَف أن يُظهر الراعي كلّ ما في القلب من ميلٍ لأحدٍ من رعيته دون أحد، أن لا يقسط الرّعاة في العطايا وإن كانت قُبلَةً، أن لا يدرؤوا عن نفوس أولادهم الغلّ والحقد والحسد، وأنْ لا يعصبوهم بالحبّ، فإنّ الحبّ سلام وإنّ نفسًا بلا سلام إمّا تعلِّمها الغرابيب دفنَ الأخوة، أو تناديها الأبالسة في الآبار بأن العدل في القتل، وإنّ بعض صور القتل في القطيعة، وما أطول الحزنَ على النفوس حين يقطع ذواتُ الأرحام صلة أرحامهم !

ما أفْترَه من اتّصالٍ لم يغْنِ عن واجبٍ ولم يقضِ عنهنّ ديْنًا! وما أفترها من لهجةٍ تلك التي استقبلتْها أُذن «إنصاف» في ذلك الاتّصال الذي جمع بين أخواتها الثلاثة بمكالمة واحدة!

إنّ تلك الآذان التي غفلت عن كلّ ما تدسّه فيها من وجع وتكتفي بما تسمعه منّها كمكابرةٍ فقط؛ لا تستحقّ هذه المسافة التي تتحدّث إليها منها ولو على سبيل الوجوب، لذا فقد نحّتهن «إنصاف» من ذاكرتها،

وأرسلتهنّ إلى حيث يجب أن يكُنّ من ذاكرتها، بعد أن اكتفين منها- ككلّ الغرباء- بما سمعنَه منها.. (أنّها بخير).

****

البعضُ يبتسم في وجوه الغرباء فقط، داخل المحالّ والقطارات، وعند مفارق الأكتاف، وكلّ منهم إلى وجهته، البعضُ يرتاح في تلك النظرة التي تستقبل ابتسامته برحابة ملامح، البعض يعطي كلّ شيء للغرباء بسعادة، ثمّ إذا كان عند عتبات منزله ارتدى الشحّ، وأوّلُ البخلِ العبوس، ماذا لو أنّ ذلك الوالج الآن إلى بيته لا يزال بنفس السماحة التي يمنحها للغرباء، فلا يُحمّل النّفوس بالدّاخل أثقالَ عتب، ولا يملأ القلوب التي أحبّته بزلّات عمر؟!

كعادته ترجّل «هيثم» من سيارته بقامةٍ ممشوقة ووجهٍ عابسٍ وجبينٍ مقطّبٍ ينتهي بالرقم مائةٍ وأحد عشَرَ محفورًا بين حاجبيه، أغلق سائقه بابَ السيارةٍ بهدوء ثمّ دار حولها ليدخلها إلى المرآب الخاصّ بها كما يفعل كلّ يوم، ما أن دلف «هيثم» من بوّابة فيلته الحديدية حتّى أشار بكفّه إلى أحد الخدّام وهو يسير بعكس اتّجاه باب الفيلا الواسع ذي الزجاج الملون خلفه قائلًا بغضب:

- لماذا لم يستقبلني أحدٌ منكم لإحضار أغراضي من السيارة كما تفعلون كلّ يوم؟! ألم أقلْ لكم ألف مرّة أنّ هذا الاستهتار يزعجني؟ لماذا تقف كالصّنم أمامي هكذا؟! هيّا اذهبْ وأحضر الأغراضَ من السيارة، وضعها بمكتبي بسرعة.

بتوتّرٍ ممزوجٍ بالخوف استجاب خادمُه لأوامره إلّا أنّ السائق اعترض طريقه وهو يحمل أغراض سيّده بالفعل، فالتقطها الخادمُ منه وهرول باتجاه المكتب ليضعها داخله كما أمره سيّده «هيثم»، بينما الأخير كان يصعد الدرج الذي يفصل بين طابقي الفيلا بجسده الممشوق وقامته الفارهة دون أن يلتفت لما يجري خلفه، اتّجه مباشرةً إلى غرفة نومه بالطابق العلويّ، زوجته متّخذة ركنها بزاوية الغرفة، بيدها كتابٌ تقرأه على إضاءتها المفضّلة، لم ترفع «مريم» رأسَها عن الكتاب عندما دلف زوجها إلى الغرفة ولم يلقِ هو التّحية كذلك، منذ تلك الليلة التي باشرته فيها برغبتها في التبنّي من جديد وهُما لم يتبادلا أية أحاديث فيما بينهم.

لم تملّ «مريم» في طلبها هذا، والذي لا تنفكّ تجدّده كلّ فترة بإصرارٍ ويرفضه زوجها بفظاظة، ليس مَن هو في وضع «هيثم منتصر» الذي يقبل بمثلها فِعلة؛ هي فضيحة من العيار الثّقيل ستجعله في صباح اليوم التالي عنوانًا رئيسًا بكلّ الصحف والبرامج التليفزيونية الرسمية وغير الرسمية!

لا شيء يؤرّق «هيثم» مثل أخيه الوحيد.. و«مريم»؛ أمّا شقيقه الذي يصغره ببضعة أعوام فكاد يتسبّب لـ«هيثم» في عمله بأزماتٍ متكرّرة، فلم يهدأ له بالٌ حتّى سافر مع شقيقه بنفسه إلى خارج البلاد، وجعل مِن أخيه أسيرًا بأوراقٍ رسمية في تلك البلد الأوروبّية حتّى لا يعودَ إلى مصر أبدًا، وأمّا «مريم» فإنّ كلّ أفكارها لا تعجبه، وممّا لا يجده فيها كزوجة لرجلٍ في مثل موْضعه أنّها لا تدرك مَن هو «هيثم منتصر»؟!

لا يدري «منتصر» كيف لزوجته العقيم أن تصرّ على مطلبٍ كهذا وهي تعرف وضعه الحسّاس، ومركزه المرموق في وظيفته، والذي يحتّم عليه حساب كلّ تفصيلة في حياته جيدًا، كلّ خطوةٍ له هو يحسب لها ألفَ حساب، وإنْ كانت عبثًا، لقرابة الأسبوع وهو لا يتحدّث إلى زوجته إلّا أمام الخدم عندما يهبطان إلى غرفة الطعام بالدّور الأرضيّ من الفيلا لتناول وجبة العشاء.

تناول العشاء هو العادةُ الوحيدة التي لا يغيّراها منذ تزوّجا إلّا إذا كانا على سفرٍ، حيث لا خدمَ تسرّب خبرًا هنا أو هناك، «هيثم» لم يعدْ إلى البيت منذ يومين لأسبابٍ أمنية هكذا فهمت زوجتُه منذ غاب، «مريم» لا تزال كما هي في ركنها منزويةً بأفكارها خلف ظلال كتابٍ داخل غرفتهما غير الموصدة، والذي لا يطرقه «هيثم» قطّ عند الولوج منه.

كثيرًا ما يردّد «هيثم» أمام الجميع من الأسرتين، أنّه يجتهد أنْ يحتوي زوجته في كلّ حالاتها، لكنّ الحقيقة أنه لم يحْتوِ «مريم» قطّ في أية نقاشٍ كان لها فيها وجهة نظر تخالف وجهة نظره، هو لن يحتويها أبدًا بنضجِه وخشونته وعقلانيته؛ طبيعتها الطفولية تحتاج "الطفل" منه ليلهو معها، ليرى الأشياء من زاويتها، ليضحك على ما يُضحكها كفطرة، ليحزنَ معها مهْما رأى سبب الحزن تافهًا أو غير منطقيّ؛ لن يحتويها أبدًا بقسوته وفهمه الخاطئ للقوامة، ولا بترقّبه لأقوال النّاس فيه إنْ لان لها؛ فماذا سيقول المجتمع في رجلٍ أرستقراطيّ مثله إذا كفر بتصدير الصّور التقليدية للعيان طيلة الوقت؟! لقد صار كلّ نفسٍ محسوبًا عليها حتّى اختنقت أنفاسُها من كثرة ما تحبس روحها الحقيقة لتظهرَ أمام الآخرين بكلّ هذا الصمود أو بمثل تلك البشاشة المزيفة.

ماذا لو آمن «هيثم» أنّ لامرأته حقًّا عليه، وهذا لن يقلّل أبدًا من احترامه لنفسه بل سيصبح ممّن خصّهم الله برحمته.. لكنّ «هيثم» ليس ممّن رحمهم الله، هكذا تراه زوجته، وهو ما رسّخ هذه الصورة عنه في قرارة نفسها الساكتة.

ليته يدرك أنّها في مجاراة الأنهُرِ من الحُصُنِ، وعند سدول الليل هي من المِهار، أنّ رأس «مريم» أضعفُ من الخيلاء في حضرته، أنّ كلّ ما يجِدْه منها لأنّه لا يتفقّد فيها الدواخل، عنته هو ما يغلّف مقلها بالكبرياء، «هيثم» لا يستقبل ضعفَها بحبّ قط، وفي المقابل فلا سكنَ له فيها ولا ودّ.

هي أنثى، والنّساء لا يتشرْنَقن إلّا بتجاهلِهنّ ممّن أحببْنَ عن قصد أو بدون؛ حين تفرز خيوط الكبرياء من دواخلهنّ فتبتلعهنّ طويلًا داخلها، هو لم يتوقّع أبدًا ما رآه من امرأته بعد نفادِ وسعها، لكنّه لم يفطنْ كذلك أنّ ما آلت إليه «مريم» ما هو إلّا نتيجةٌ لشرانق صمتها التي أُحكِمت، والتي لم يلحظ «هيثم» لها أثرًا؛ بل ظنّ «مريم» في سكوتِ المستسلمة فتفاخر بالسيادة، وزادَ في السّادية.

لكنّها الأيام تُقرِض النّاس الزّيف ثمّ تسرق منهم العمر، إنّ ما يحياه «هيثم» من كبدٍ في مواضع أخرى هو جزءٌ من كلّ أثمان صنائعه؛ إنّه ورفاقه في حسراتٍ وهم يلهثون بتلك الأخبار هنا وهناك، لا شيء حقيقي إلّا مكرهم؛ ضحكات «هيثم» المزيفة وهو يظهر بحلته الرّسمية على أحد القنوات الفضائية ليلقي بيانًا ما، أو يعلن خبرًا، أو يشي ببعض الأسرار، وإنّ لنفي الأخبار مظهرًا آخر يبدو فيه ساخرًا كمهرّج، ليس هو وحده، جميع مَن اخْتير لوظيفته كان كـ«هيثم» مجرّد مؤدٍّ داخله ألفُ وجه، مثله مثل خزانته

الممتلئة بصنوف الملابس، وكما أنّه لكلّ مناسبةٍ حُلّة يرتديها فإنّ لكلّ طلَّةٍ وجهًا ونبرة وأداءً.

ليتَ «هيثم»- المقنّع بألف قناع أمام شاشات التلفاز ليل نهار- كان يخصّ زوجته التي تقاسمه الحياة على نقصها بقناعٍ يناسب طبيعة النّساء عامّة، ويليق بـ «مريم» خاصة، لم يكنْ «هيثم» بالبيتِ إلّا واجمًا لا ينظر إلى وجهها حتّى وهو يحادثها في أمرٍ ما، كلّ عاداته اليومية ثابتة؛ هو يؤدّيها بنفس النمط دون إبداء مللٍ أو شيء من الرغبة في التغيير، أكثر ما كان يقتل «مريم» أنّه لم يراعِ قطّ فطرةً الأمومة التي ولدت بها مثلها مثل كلّ النساء، كيف يمكنه أنْ يقسوَ عليها حين تلحّ عليها فطرتُها فلا تجد سبيلًا إلى الأمومة إلّا أن تطلب منه أنْ يتبنّيا طفلًا، وهي «مريم»؟!

«مريم» التي تزوّجته وهي تصغره بخمسة عشرَ عامًا، «مريم» التي كثيرًا ما تحمّلت معه ولأجله الكثيرَ من المحن، ربّما أوّل المحن لا تُعَدّ معيارًا لتقييمها كزوجة مسئولة وهي في مثْل عمرها، وهو في مثل عمره؛ لكنّ توالي المحن عليها معه وشدّتها بها من الكفاية ما يجعله يعرفها، لكنّ ما حدث أنّه هي التي عرفته، لم يكن مرور الأيام والسنين- وهي إلى جواره- إلّا كاشفات، ليت مريم لا رأت ولا سمعت ولا فقهت!

تكرارُ الفواجع- على اختلاف قسوتها- قد أنارت في «مريم» عينها الثانية، لترى كلّ صور «هيثم» المشطورة داخلها مكتملةً داخل عين اليقين؛ هو دومًا يراهن أنّ المحنّ ستمُرّ، وأنّ الحياة ستستمرّ، وهي بين كلّ كشفٍ يُمرّر حلقها وآخرٍ يقسم روحها تتيقّن أن لا حياة لها تحت قوامته،

كلّما قرّرت منحه آخرَ فرصة كلّما صعدت آهاتها كغصّةٍ عند تذكّر كلّ ما تعرّضت له معه، ومنه، ولأجله؛ وهي التي في كلّ نوازلها لم تجده، هي توقن أنّ الحياة ليست رجلًا، لكنها تعرف أنْ لا أحد سيقرّ لها هذه القناعة، ربما لم يكن زواجها من «هيثم» عن حبّ، لكنّها لم تكن تكرهه كذلك، «مريم» مثلها مثل كثيرات من نوعها في الطّبقات الأرستقراطية، تكبر فتجدها من نصيب أحدهم، من أجل مصلحة ما بالتأكيد هي وهو كانا بعيديْن كلّ البعد عن أيّة قاسمٍ منها، «هيثم» لا يبالي بشيء على كلّ حال.

ماذا بعد أنْ صارت «مريم» زوجته، وأنّ الإطار الاجتماعي قد اكتمل بها؟! أن تنجب له؟! لا يهمّ.. إنّ كلّ ما يهمّ «هيثم» هو عمله، وأن تظلّ صورته وزوجته بخير أمام فصيل المجتمع الذي هو منه.

إنّما هي أنثى، روحها ككلّ الإناث؛ طفلةٌ هي لا تعترف إلّا بما تنتظره منه وما تريده، وهي تريده كـ أبيها، تتمنّى أن تعامله كـ أمّه، أن تنتظره كـ ابنته، وأن تحبّه كـ أوّل الرجال وآخرهم، فمتى يأخذ «هيثم» منها عطاءها كما هو، متى يستمتع بعِوَجها على ثالوث مسمّاها، وليس من طبيعة خلقها وإن كانت منه؟!

كلّ ما في «مريم» طيبٌ، ظلّت تنتظر منه ما يزهر به كلّ ما غُرس في نفسها على يديّ أبيها دونَ جدوى، عوضًا عن أنّه لم يكنِ الزّوج الذي تستحقه؛ فإنّ حقيقته الأخرى التي لم يكنْ لآذانها فيها استراق؛ حيث جاءتها كهدايا قدريّة على مهل على مدار تاريخه معها كانت كافية أن تقتل بينهما كلّ شيء، حاولت «مريم» كثيرًا معه؛ حاولت أن تنهي كلّ خلافٍ بينهما بهدوء، ودون أن يفقدَ

أحدهما احترامَه أمام نفسه ثمّ أمام الآخرين، لكنّ كلّ محاولةٍ منها كانت تقابَل بالصّدود منه، أنكرت ذاتها طويلًا؛ قبل أن تقرّر أخيرًا أن تخيّره بين أنْ تأخذ نفسها، وما لها من سلام، وتترك له ما له وما اختاره لنفسه من سبيلٍ في حياةٍ لا مكان لها فيها، وقد أشهدت أسرتها على أمره وأمرها قبل أن تترك عتابه وقبل أن تنوي الآن مغادرة عتباته، ما قيمة العتب إن لم يغْنها عن رؤية ما هو أسوأ ممّا «هيثم» عليه؟! مهْما تحدّثت إليه لا شيء فيه يتغيّر إلّا للأسوأ، وكلّ يومٍ يمرّ بينهما هو يزداد في قسوته عليها فيه أكثر وأكثر.

حاولتْ أن تهاجر بروحها إلى أرضٍ جديدة، تطالع فيها وجوهًا جُددًا، يغرسون فيها من الذّكريات طيباتٍ باسمهم في نفسها الطيبة، ويدْعمون فيها كلّ غرسٍ ما رأت ثمره لبوار تربتها جرّاء إهمال راعيها وانتظارها له كراعٍ لا يضيِّع من يعول، لم تكن «مريم» تريد أناسًا تفضفض بينهم، هي ليست بحاجةٍ لأن تُخبر أحدًا بحقيقة زوجها حتّى تظهر هي جيدة في أعين الغير، إنّ كلّ حاجتها أن تكون هيَ هي وفقط، أن تنشغل بنفسها عن نفسها أولًا، ثمّ لتتناسى حالَها مع حقيقة «هيثم» التي تتكشّف لها يومًا بعد يوم، أن تحترم نفسها، تحبّها، تؤمن بها، وحين تودّ مقارنة «مريم» بآخر يصبح ذلك الآخر هو نفسها القديمة وليس «هيثم»، أو أيّ أحدٍ آخر حولها.

إلّا «أشجان»، إنّها الصّنيع الوحيد الطيب الذي صنعه «هيثم» لـ«مريم»، إذ أنّه كان السّبب بطريقةٍ ما في أن تتعرّف عليها، من بين جميع زوجات أصدقائه ما ألفت «مريم» إلّا روح «أشجان» فاتّخذتها صديقة، ربّما نأيها في المكان عن «مريم» هو ما قرّبها في المكانة منها، الغريب دائمًا أقرب، ودائمًا أصدق في إبداء الرّأي أو إسداء النصيحة.

كان كلّ ما ينقص «مريم» هو بعضَ الإيمان، أنْ تدرك حقيقة أنّ كلّ حاجتها لتصبح بخير، أن تؤمن أنّها- وهي على ما هي عليه- إضافة، أنْ تكتشف فيمَ خلقها الله وتدعوه أن يستخدمها فيه وأنْ لا يستبدلها، أنْ تعلم أنّها ما خُلقت لتنشغل بالغير؛ بل بنفسها أولًا، وأن كلّ تغيير تتمنّاه في «هيثم» أو سواه إنْ لم يوجده هو بنفسِه في نفسه؛ فسيظلّ (صفرًا)، لكن أنّى له أنْ يدرك بأنْ ليس كلّ مَن سيحاربهم بصفريّته سيسالمونه؟!

اجتمعتْ «أشجان» و«مريم» على ذات الظرف، كلتاهما لا تنجبان، غير أنّ الاختلاف بينهما يكمن في ما لإحداهنّ عند زوجها من اهتمام، ربما قصيّ المكان ها هنا كان شفاء لقسط النّفس عند «مريم»؛ إذ لم تكنْ ترى أو تسمع ما يجلبا على نفسها غلًّا أو حسدًا وإن كانت لا تدري، صداقتهما كانتا شبه متكافئتيْن ممّا أتاح لـ«أشجان» الفرصة أن تدعم- بكلماتها الطيبات- «مريم»، وقد غيّرت كلماتها الكثيرَ من الأفكار الخاطئة التي يمتلئ بها عقلُ صديقتها بالفعل، بل ورسّخت في «مريم» الكثير من الثوابت والقيم الحقيقية ثمّ علمتها كيف تتمسّك بها، بعد أنْ فطنت «مريم» من حبّ صديقتها «أشجان» لها رغم المسافة؛ أنّ الحقيقة ليست أن تكونَ هي لا شيء ثمّ تنتظر من «هيثم» كلّ شيء، هكذا أخبرتها «أشجان»:

- هب أنّكِ «حواء» ليس قبلك نساء، ولتكتشفي الدرب، وكأنْ لا سواكِ فيه، انزلي يا «مريم» إلى أرض بداياتك بسلام، وامْحي كلّ الخطى بخطاكِ أنتِ، واعلمي يا صاحبةَ الرّحم أنّ مَن تحمل في حشاها الرّحمة هي للحياة حياة، فلا يحزنك تخلِّي مَن تخلَّى وإنْ عدتِ أدراجك أحاديّة لا تثنية لكِ ولا تثليث، إلّا يكفيكِ يا «نون» كلّ النّساء أنْ لا مثل لكِ إلّا الشمس؟!

اعرفي سماءك وتربّعيها، وأنيري فأنتِ بلا غروب كما يظنّ الكثيرون، إنّما الأرض تحجبك بدورانها عن البعض وأنتِ مشرقة كما أنتِ فوق آخرين، ليس العقم منقصُكِ أيْ «مريم»: "ربّما هو وسعك الذي يدركه الله، ولا تدركينه، فارْضَي بدورك تبلغين السلام".

****

وقفَ «حسين»- الشابّ العشرينيّ، وعامل المقهى بالحي الذي تقطن فيه «إنصاف»، على ناصية الشارع الجانبيّ من الشارع الرّئيس المؤدّي إلى الحيّ- وقد بدا عليه الكثير من القلق والتّوتر، مظهر الشابّ وحالته توحِيان بأنّه قد خرج لتوّه من حريقٍ ما!

ما أنْ لمح بعينيه «إنصاف» وهي تشيرُ من داخل السّيارة الأجرة إلى سائقها أن ينعطف يمينًا حتّى هرولَ باتّجاه السيارة، واعترض طريقها ليوقفها وهو يدورُ بجسده أمامها ممسكًا بمقبض الباب الأماميّ للسيارة يفتحه قبل أن يقفز بداخلها بنفس الوقت مطالبًا سائقها بعدم الدّخول إلى الحيّ، بينما يلتفتُ بوجهه إلى «إنصاف» خلفه بأنْ لا تهلع، وأنّه سيخبرها بكلّ شيء:

- لا، ليس هنا يا أمّي، لتنطلق يا سيدي إلى حيث سأدلّك من فضلك، ثمّ سأخبرك هناك يا أمّي بكلّ شيء.

- ما الذي يحدث هنا يا هذا؟! كيف تقتحم السّيارة بهذه الصورة؟! وماذا تريد؟!

صاح السّائق بوجه الشابّ وهو ينظر بين كلمةٍ وأخرى إلى «إنصاف» خلفه، صامتةً هي منذ أقلّها من أمام ذلك المشفى إلى حيث أمرتْه، لكنّ نظراته إليها

الآن صارت تحمل الكثيرَ من الارْتياب والشّك، هو في لحظة صارَ بين انتظار إشارة منها توحي بها إليه أنّها لا تعرف هذا الشاب، وبين شكوكه أنّهما عصابة ما ويريدان سرقتَه، الوقت والمكان والموقف يشْعلان الظنّ في رأسه، بينما يستحضرُ كلّ حكايات سائقي الأجرة الذين سبقوه إلى موضعه هذا، ويستجلب على نفسه المصائب نفسها.

– ما الذي حدث يا ولدي؟! ولماذا تطالب السائق بعدم دخول الشارع؟!

أنقذتْ «إنصاف» السائق من أفكاره المتشائمة وهي تشير إليه، بينما تتوجّه بسؤالها إلى «حسين» فانطلق السّائق إلى حيث أمره الشابّ، وعقل «إنصاف» هذه المرّة هو الذي يزدحم بآلاف الأسئلة، لماذا ينتظرُها «حسين» خارج الحيّ هكذا؟! ومَن أخبره أنّها ستعود من المشفى في هذا الوقت المبكّر؟! نعم هي سبَقَ وأخبرته أمس أنّها ستبيت مع جارتها «كارولين» بالمشفى، لكنّها لم تخبره أنّها ستعود في هذا الوقت من الصباح؟! مظهر الشابّ يخبرها أنّ أمرًا جللًا قد حدث هناك.. في منزلها.. هي لا تملك إلّا تلك الشقة التي غيّرت مسارَها الآن لتبتعد عنها وهي لا تدري ما الذي حدث بها؟! ترى أهوَ سطوٌ وقع على شقتها كما حدث مع بعض الجيران من قبل؟! لا أظن! فمظهر «حسين» يوحي بغير ذلك، وكأنّ.. منزلي احترق!

– اندلعت النيران في العقار الذي تسكنين فيه، وقد احترقت شقّتك وشقة جارتك «كارولين» مع بقية الشقق بالعقار على تتمّة أدواره، تعلمين أنّ المطافئ دائما تأتي متأخّرة مهْما قمنا بتكرار الاتّصال بها، لكنْ على كلّ حال، عندما وصلت المطافئ إلى الحريق لم يتمكّن عمّالها من إنقاذ أحدٍ من قاطني العقار.

اتّسعت عينا «إنصاف» في هلع وهي تزيدُ من احتضان حفيدتها إلى صدرها، غير مصدّقة ما تسمعه من «حسينٍ» الذي كاد يبكي وهو يقصّ لها ما حدث:

– ليسَ هذا ما انتظرتك من أجله يا أمّي، اسمعيني جيدًا، ثمّة رجلان غريبان كانا يُراقبان تطوّرات الحريق باهتمام، سمعت أحدهما يتحدّث إلى شخصٍ ما عبر هاتفه الجوّال وهو يؤكّد له أنّهم قد أحرقوا العقار بأكمله وليس شقتك فقط، كان الرجلان يؤكّدان لمن يهاتفانه أنّكِ وحفيدتك قد فارقتُما الحياة، كانا يؤكّدان الخبر أكثر من مرّة وكأنّ الشخص على الطّرف الآخر من الاتصال غير مصدّق، ويريد تأكيدًا ما أو دليل فتناوبا على التقاطِ المحمول، وهُما يرويان نفس الرواية!

الغريبُ أنّ كلّ من بالحي الآن يظن أنّكِ و«ديمة» قد فارقتما الحياة بالفعل، إذ أنّ عمّال الإسعاف قد أخرجا جثتيْن من داخل شقتك لهما نفس مواصفاتك والصغيرة، لوْلا أنّني على علم منكِ بأنّكِ ستقضين ليلتك بالمشفى حتّى تطمئنّين على حفيدة جارتكِ «كارولين»؛ لكنتُ صدّقت معهم، لكنّ ما جعلني أنتظرك الآن لأحذرك هو تلك المحادثة التي سمعتها قدرًا دونَ أن يلحظني أحد، يبدو أنّ أحدهم يسعى لقتلك والصّغيرة يا أمّي!

بعضُ الحروب تندلعُ بلا قرار، بلا نيّة، وبلا أدوات، بعض الحروب قذرة للغاية إذ يدفع فيها مَن أمِنَ بيته على بساطته أثمان مخاوف مَن يطمع في الكثيرِ والكثير من القصور المشيّدة، ماذا بمقدورِ عجوز مثلها أن تفعل لو أنّها أُجبرتَ على خوضِ حربٍ لا محالة؟! وهي الآن مطارَدة بلا أرض وبلا رمحٍ إلّا نفسها تحمي بها نفسها، وحسن الظّن، أمّا إن ارْتقيت فهي دونً

أرضها ونفسها ومالها شهيدة، لكن ممّن؟! ممّن تحمي «إنصاف» نفسها؟! مِن المنتصر في النهاية؟ ومن أجل ماذا؟!

– أهي الصّغيرة! أهي «ديمة» التي أنكرها أبوها قبل أن تولَد، والآن هو يريد أن.. يقتلها!

****

ومِن عجب محبّة الله لأحدٍ من عباده؛ أنّه الغنيّ، لكنّه إنْ أحبّك أطفأ في وجهك نور النّاس وأنار في قلبك ألفَ سبيل إليه، ثمّ أمهلك الاختيار لأنّك مجبولٌ رغم عبوديتك لله على الحريّة، فإنْ ضاقت بك أو أظلمتْ من حولك فأَطْرِف واتّبع وميضَ الدّواخل، وسِرْ، وحده إيمانُك سِرّك، وكلّ البشر أسبابَ، والسّلام على مَن كان في العونِ ثمّ إلى الظلّ انصرفَ.

انصرف «حسين» إلى حيث يعمل بمقهى الحيّ، من جهةٍ لأنّه لا بدّ له أن يعمل من أجل أجْرته اليومية التي لا تسجّل حضورًا بجيب بنطاله إلّا بعد حضوره هو إلى المقهى أولًا، ومن جهةٍ أخرى حتّى يمكنه أن يتابع جديد ما يحدث هناك بالحيّ وتوابع ذلك الحريق الذي احتلّ سريعًا كلّ العناوين الرئيسية في كلّ الجرائد الرسمية وغير الرسمية كذلك، تاركًا «إنصاف» داخل غرفته التي يقيم فيها فوق سطح أحد المنازل القديمة بحيٍّ مجاورٍ وهو يوصيها بالرّضيعة وبنفسها، أوّل ما فعلته «إنصاف» هو أنّها توضّأت وتوجّهت صوب القِبلة تصلّي لله ركعتي شكرٍ أن نجّاها ممّا أُمكِر لها و«ديمة» من غير حولٍ منهما ولا قوّة، كانت شهقاتها هذه المرّة عجزًا وهي تضرّع بين يدي الله بالدعاء.

- يا الله!، كدتُ أموت وحفيدتي من دون ذنب، ويذهب أثرنا أدراج الرياح! وكأننا لا نملك يا اللهُ من أعمارنا إلّا الآن، الآن فقط، الآن وثانية؛ قد يتغيّر حولنا كلّ شيء!

متى ننسلِخ من طول الأمد إنْ لم يكن في التوّ واللّحظة التي تعقب الموت؟!

أمّا قبل الموت فلا شيء حقيقي، وحده الموت هو اليقين؛ فإذا أردت قولَ خيرٍ فقله الآن، وإذا انتويت فعلَ خيرٍ فافْعله الآن، ولا تُمْسِك من نفسك إلّا ما يُتعِسها وسواها، وابسط الآن من نفسك السّلام وافترشه، فكلّ ما تراه من بهرجٍ خارجك زيف.

لكنْ ما ذنب العجوز وحفيدتها- حماة «مينا» وابنته- اللّتيْن لقيا حتفهما بشقّتها إلّا أنّ القدر قد أراد لهما المبيتَ داخلها وليس بشقة «كارولين»!

لكنّها لم تكن شقتها فقط التي احترقت؛ إنّه العقار بأكمله بكل من فيه!

شقّة جارتها «كارولين» قد أُحرقت هي الأخرى، فحتى لو كانتا بها للقيَا حتفهما كذلك هناك، هذا ما أخبرها به «حسين» قبل قليل.

يا الله!

كيف ستستقبل «كارولين» وولدُها وزوجته ذلك الخبر؟!

يا لترتيب الأقدار! وكأنّ القدر مَن تسبّب في تعطيل الكهرباء بشقة «كارولين» بتلك اللحظة من الأمس، حتّى تدعوهما «إنصاف» إلى الاسْتضافة بشقّتها قبل أن تذهب مع «كارولين» إلى حفيدتها الأخرى بالمشفى وتبيت هناك!

كيف ستخبرُ جارتها أنّها ليست هي وحفيدتها «ديمة»؛ بل هما حماة ولدها وابنته؟!

أطرفتْ «إنصاف» وهي تستندُ برأسها إلى أقرب جدارٍ خلفها، هي عادتها كلّما اشتد بها كربٌ، أو طالَ بها حزن، أو حين تعجز عن مجرّد التفكير من كثرة ما برأسها من تداخل.

المطرفون أناسٌ لا تؤلمهم النّواظر فأسبلوا طلبًا للرّاح، المطرفون أناسٌ أَلِمت أرواحهم فأسْدلوا عليها الهُدُب، ليستدعوا من أنفسهم لأنفسهم ما يزيحُ عن الروح دموع الدواخل ونزفَ الكبرياء، وكأنّ الجُدر خلفَ الرؤوس المثقلة بالعجز أكثر رفقًا من أناسٍ يحملون داخل هويّاتهم أسماء آبائنا وأجدادنا وأصول عوائلنا.

هل فقدتْ «إنصاف» محبّة جارتها لها، جرّاء هذا الحريق الذي تسببت وابنتها المرحومة «عزّة» فيه؟! هكذا ستظنّ «كارولين» بها- وبابنتها-، كما سيظنّ الجميع عندما يكتشفون أنّ اللّتيْن أُحرقتا بشقّتها هما حماة «مينا» وابنته.

لا حيلةَ لـ «إنصاف» إلّا أن تنتظر عودة «حسين» ليلًا كما أخبرها، لتعرف منه ما وقْع الخبر على جارتها، وكيف ستلتقيها؟! أو أين؟! لتخبرها بحقيقة الأمر.

وميضُ هاتفها أخبرها أنّ هناك اتصالًا ما، اعتدلتْ في جلستها سريعًا لتلتقط الهاتف بلهفٍ ظنًّا منها أنّه «حسين»، وأنّ لديه ما يُخبرها به، لكنّها قطّبت جبينها باستياءٍ عندما قرأت الاسمَ الذي كان يومضُ على شاشة الهاتف بانتظام، إنّها إحدى أخواتها، ما الذي يجعلها تهاتف «إنصاف» الآن؟!،

ربّما الخبر الذي انتشر في أرجاء الجمهورية بسرعةٍ فائقة- عبر كلّ الصّحف ونشرات الأخبار التلفزيونية-، وربّما هو الآن منتشر عبر كلّ وسائل التواصل الاجتماعية كذلك بغير ما هو عليه؛ لا يماثل جلَلُه ألف اتّصال من مثلها متصلة، كان لا بدّ لها وأخواتها الأخْريات من حضورٍ وبذلٍ من أنفسهنّ، وإن جئنّ مشيًا على الأقدام، وإن عدنَ فارغات الأكفّ من حقيقة ما حدث ويحدث.

نحنُ لا ننتقل للحقائق على مهلٍ أبدًا، الله يخبرنا على هدًى أنّ السبيل ها هنا؛ لكنّا لا نسلك دروبَ الاستقامة إلّا مُغرمين، محمولين على تدرّج الابتلاءات حتّى نتزكّى.

وإنّه ليس لغلاظِ القلوب شاغلةٌ إلّا أن يتربّصوا بالشماتة في انتظار كبوةٍ لعزيز، ليتهم يعلمون أنّ الله لا يملي إلّا لظالمٍ لم يستجبْ لسياط التّوجيه حتّى إذا أخذه لم يفلته.

لم تجِب «إنصاف» على اتّصال أختها، وأخذت تمتم بصوتٍ مختنق:

- الحمدُ لله على كلّ جلدةٍ تجلبُ على النفس تزكيةً، وعلى القلوب حياة.

****

إنّ لنور الصباح لهمسٌ يُرى، لا بدّ أن نفتح له أعيننا دفعة واحدة لندركه كلّه، ومازالت هي ممّن يترك رسائلَ النّسيم الصباحية مغلقة خارج خصاص نافذتها، وتتوجّه إلى تفقد الصباح داخلَه هو فقط، قبل أن تخرج من صدرها زفرةُ ضيق وهي تلقي بنفسها فوق مخدعها بحِنق، ومِن ثمّ تغمض عينيها "عن الصباح" لأنّ «منتصر» ليس فيه!

لا تزال «مريم» متقلّبة بين فطرتها كأنثى وحاجتها إلى زوجها، وبين استغنائها ككيانٍ يرفض أن يلتهمه انتظار «هيثم» دون جدوى.

– وماذا عنكِ؟! ماذا عن «مريم»؟!

تُرى كم شخصٍ الآن ينتظر الصباح "في شخصك"، وأنت في زاويتك المظلمة هذه؟!

لا تقولين «هيثم»، لا تتفوّهين باسمه حتى، فهو لن ينفض عنكِ هذا الحزن إلّا إذا أصبحتِ أنت السّعادة للكلّ، وليس له فقط، حين تدركين أنّكِ أنتِ الصباح يا «مريم»، وأنّ آخرين منتشون بكِ كالشمس في كلّ صباح، بينما «هيثم» هو من فوَّت على قلبه الفرحةَ بكِ، فأنتِ يا «مريم» للصّباح صباح.. هيا انهضي.. انهضي.. وتعالي إليّ، هناك الكثير من الأمور تنتظرك هنا، ولا يصلح لها إلّا أنتِ.

لم تكنْ هذه الكلمات التي تلقّتها «مريم» عبر أثير هاتفها النقّال هي الأولى من نوعها التي تسمعها من صديقتها «أشجان»، كثيرًا ما هاتفتها «أشجان» وأسمعتها كلمات مشابهة حتّى عندما كانت الأخيرة مستقرّةً خارج البلاد كذلك، لكنّها الآن في مصْر، ليست بلندن كما كانت، ولم يعدْ هناك ما يمنعُها من الوقوف إلى جوار صديقتها الوحيدة «مريم» وإخراجها ممّا هي فيه، كلماتُها هذه المرّة إلى «مريم» حرّكت بداخلها الكثير من العزيمة، هي تحبّ مهنتها جدًّا، صحيح أنّها لم تمارسها منذ تخرّجها كمحاميةٍ قطّ بعكس صديقتها وزميلة مهنتِها «أشجان»، لكنْ ليس بالضرورة أن ترتدي سترةَ المحاماة وتقف بها أمام القضاة، بالتّأكيد لها دور يُناسبها داخل مكتب المحاماة الكبير الذي يحمل اسم صديقتها الدكتورة «أشجان عبد الرحمن» منذ بضعة أشهر فقط.

تلقّت أذُنا «مريم» عدّة طرقاتٍ على باب حجرتها فأذنت للواقفة خارجه بالدخول، دلفت الخادمة إلى داخل الحجرة في نفس التوقيت اليوميّ الذي اعتادته «مريم» وبنفس الطريقة التي ألفتها من خادمتها، للمرّة الألف تدلف الخادمة إلى حجرة «مريم» وهي تحمل بين يديها باقة الورد الصباحية، ما أن تضعها الخادمة على المنضدة في ركن القراءة الخاص بسيدتها؛ حتّى تتجّه إليها في مخدعها وهي تمدّ يدها تناولها البطاقة ذاتها التي عادة ما يدوّن الرّاسل المجهول فوقها الكلمات نفسها دون اختلاف إلّا من التاريخ فقط، فكل بطاقةٍ كانت تذيّل بتاريخ اليوم الجديد.

باءت كلّ محاولات «مريم» لمعرفة ذلك الرّاسل بالفشل، كلّما قصدت أحد محال الورود المختلفة التي يقصدها ذلك المجهول ليرسل لها منها هذه الورود في الصباح، تستمع من العاملين فيها إلى أوصاف رجلٍ مختلف، لا يشبه الصورة بمخيلتها والتي تكوّنت في خاطرها من وصفٍ سابق لمجهولها العاشق الذي لا تعرفه.

دائماً هناك شخص كالظلّ في كلّ حكاية، يقف على مسافة منك في جلال، مفعم الدواخل جدًّا، وخارجه جامدٌ كمَن لا تهزّه انفعالاتك، يدّعي عدم الاهتمام وهو كثيرًا يهتم، هو لا يفعل شيئًا إلّا أنّه يحترم اختياراتك، يقدّر معاركك، يتفهّم ظروفك، هو من مسافته يحرسك حتّى تبصره فيبتسم ويلقي التحية بعدم اكتراث، وفي التفاتتك الثانية إليه لا تجده، يتَولّى كـ ملكٍ تراءى وتبخّر، تاركًا في موضعه وريقةً غير مطويّة خُطَّ فوقها بخطٍ مرتعش..
"أحبّك، دائما كنْ بخير".

"أي «مريم» أحبّك جدًّا، أرجوكِ من أجلي كوني دائمًا وأبدًا بخير"، وتاريخ اليوم.. و.. نقطة.

نقطة تشبه قطرةَ ندًى غافلت كلّ الأشواك وسقطت تكحّل عينيها بالعشق!

****

جنّة السماء في كلّ البدايات، وجنّة الأرض في قلب "أنثى" عشقها بكْر، إنّهنّ القوارير اللّواتي من تمام فطرتهنّ الطفولية، هنّ كلّ نونٍ تقترن بالشدّة دومًا عند الكتابة وكأنّ من تمام وصلهنّ بعض التّوكيد والتكرار المدمج، فـ نونٌ لها، ونونٌ له!

النّون لا يعبسنَ من تلقاء أنفسهنّ، إنّما إذا حُبست براءتهنّ بالصّدِّ؛ فإنّ جمال النّساء في حريتهنّ وهنّ إلى جوار مَن يحببْن، إنّهنّ كجداولِ الماء تتأثّر وجوههنّ بأقلّ ملمح ينعكس فوقهنّ، وانسيابهنّ يضطربُ من تراكم الحجارة في القاع، يا ويْلهمٍ! حين يراكمون القساوةَ فيهنّ دون تخْلية، ثمّ لا يستقبلوهنّ أطفالًا ولا يستوْدعوهنّ ضلوعهم بحرية، والحقيقة أنّهنّ لا يُرِدْن من الكون إلّا تلك المساحة وطنًا.

عينا «أشجان» تنطقان بالحبّ قبل لسانها وهي تناوله فنجان القهوة هامسة:

– ما أسعدَ أصحاب الاهتمامات الواحدة يا «مؤمن»، ويا حظّ أسكنهما!

اعتدلَ «مؤمن» في جلسته وهو يلتقط منها قهوتَه متسائلًا بجذل:

– ومَن أسكنهما يا سكني؟!

- اثنان يقتسمان الكلمة والقهوة.

- الكلمة والقهوة!

وضعت «أشجان» فنجان قهوتها على المنضدة أمامها قبل أن تحتضن كتابًا بيسراها إلى صدرها في سعادة وهي تستطرد بدلال:

- نعم؛ الأولى غذاءُ الروح، والثانية عطرها.

ربّت «مؤمن» على الأريكة بجواره وهو يلتهمُ بعينيه وجه «أشجان» البهيّ، في إشارةٍ منه إليها أن تنتقل للجلوس إلى جواره، قبل أن يحاوط كتفيْها بذراعه وهو يضمّها إليه بحبّ، ثمّ طبعَ قبلةً حانية على هامتها وهو يقول:

- مَن التي تشغل بالكِ يا حبيبتي إلى هذا الحدّ؟!، أظنّها زوجة «منتصر»، أليس كذلك؟!

غاصتْ «أشجان» تحت ذراعه أكثرَ وكأنّها هي التي تحثّه أن يتأبّطها أكثر فتشعر بروائحه وهي تهمهمُ مصدِّقةً على ظنّه قبل أن تقول:

- نعم، هي «مريم»، وحالها مع صديقك «هيثم»، الذي كلّما سألتك عنه لا تنفك تذكره بمطلق الخير، أين المواقف بينكما حتّى يتبدّد هذا العجب الذي في رأسي بين قليل ما تتفوّه به أنتَ عنه، وبين كثير تتفوّه به عنه هي، أين حقيقة هذا الرجل يا «مؤمن»؟!، أم تراه يختلف كصديقٍ لك عن شخصيته كزوجٍ لها؟!

التقط «مؤمن» بيمينه يُسراها من حوْل خصره وسلّمها ليسراه قربَ كتفها حيث يتأبّطها به، ثمّ عاد يجذبُ بيمينه ذراعها اليُمنى من حوْل خصرها حتّى

التقط كفّها ببنانه وهو يتنهّد قبل أن يتوجّه بوجهه إلى اللّا شيء أمامه وهو يقول:

– سأريحك يا حبيبتي وأتحدّث معكِ بقدر استطاعتي عن مضمون صداقتي بـ«هيثم»، ربّما لا تعلمين طبيعة تلك الصّداقة بيننا لأنّني بالفعل لا أتحدّث عنها مطولًا، وأكتفي دومًا بالعناوين السّطحية فيما يخصّه، «هيثم» ليس صديقي لأنّني اخترته صديقًا فيصبح لي حقّ الحديث عنّه معكِ أو مع سواكِ، هي أسرته يا حبيبتي وأسرتي كان بين الأسرتين شراكةً قديمة قبل رحيل أسرتي عن مصْر متوجّهةً إلى «لندن» وترك كلّ شيء خلفها، اختلفت أسرتي مع أسرة «هيثم» بعدما قامت أسرته منفردة بقرار استبدالِ نشاط الشّركة بآخر دون أن يكون لأسرتي في ذلك رأي، نظرًا لأنّهم أصحابُ النصيب الأكبر في الشّراكة– وهذا حقّ يكفله القانون المصريّ لَمن زادت قيمةُ شراكته عن الخمسينَ بالمائة بواحدٍ بالمائة فقط فما فوقه– كما تعلمين يا سيدةَ القانون، وسيدتي.

لم تنجحْ دعابته في تغيير ذلك التّعبير الذي بدا فوق ملامحها وكأنّه قد طُبع، فتنحنح «مؤمن» في حرج وهو يستطرد حديثه:

– الأمرُ الذي خلق الكثيرَ من العداوات بين الأسرتين وقتئذ، والتي انتهى بعضها على طاولة المفاوضات بين أجداد «منتصر» وأجدادي، وبعضها الآخر امتدّ لما بين أبيه وأبي، وها أنا ذا في دوْري بحكم أنّني وريث أبي الوحيد إذ لم يتبقّ على طاولة المفاوضات سواي و«هيثم منتصر».

كانت «أشجان» تستمع إليه باهتمام وتعجّب وهو يقصّ عليها هذه التفاصيل لأوّل مرّة، لماذا لم يخبرها بكلّ هذا من قبل؟! إن لم يكن لأنّها زوجته فلأنّها حاصلة على دكتوراه في القانون كان لا بدّ له أن يطلعها على كلّ هذا، ولو كاستشارةٍ قانونية:

– لماذا؟! لماذا لم تقصّ عليّ هذه الحكاية من قبل يا «مؤمن»؟! يا إلهي وكأني لا أعرفُك يا رجل! كيف يمكنك إخفاءُ أمور كهذه عنّي طيلة تلك السنوات؟! يا الله!

ترى ما نوع تلك الشّراكة التي تجمع بينك وبين مثل «هيثم» هذا؟! إنّ ما تقصّه زوجته عنه يكفي أن يجعل حوله ألفَ ألف علامة استفهام كبيرة!

التفتتْ «أشجان» إلى زوجها وقد زالت من فوق ملامحها علاماتُ التعجّب وحلّت علامات الاستنكار والخوف، لا تدري أهو خوفٌ عليه أم منه؟! هل هذا الرجل الذي قصّ عليها تلك الحكاية الآن هو رجلها الذي طالما آمنت به؟!

ما قيمة الإيمان إن لم تختبرْ فيه بالشّك وتظلّ مؤمنًا، وما قيمة درجته إلّا أن يغالب يقينك ظنونك ما بين فينةٍ وما علاها من زمن، كلّما تيقّنت على نقصان ما بين عينيك؛ كلما دلتك بوصلتُك القلبية عند المفارق، حتّى أنّك تقول صهٍ لظنّك قبل أن يراودك في يقينك بالسوء فتخرسه.

– نعم هو، أعلم أنّك هو، أنتَ «مؤمن» الذي أطبقت عليّ ضلوعك وعلى أسراري معي، أنت الذي لم تُسمعني قطّ ما أكرهه، ولم تشرِ ْ إلى نواقصي مجرّد

إشارة ولو على سبيل المزاح، إذًا لماذا؟! لماذا تحوّلني إلى غريبةٍ عنك هكذا فجأة؟! لماذا أكتشفُ الآن فقط أنّك تخفي بداخلك كلّ هذه الأسرار عنّي؟! إلّا إذا...

قطعتْ حديثها الذي كان إلى الهذيان أقرب وهي تقبضُ على ثيابها من موضع القلب بخوفٍ مضاعف وهي تستطرد:

- إلّا إذا كان هناك سرّ أكبر يربطك بـ«هيثم» أنا لا أعرفه!

التحفَ «مؤمن» الصمت أمام ردّةِ فعلها هذه، لقد بدا كمَن فتح عينيه فجأة ليجد أمامه آلاف الوحوش المفترسة ولا مفرّ له ولا ستر إلّا أن يطرف من جديد، ويترك غضبها منه يلتهمه حتّى تشبع جوع صدمتها فيه، الحكاية ليست بهذه البساطة أبدًا يا «أشجان»، كيف سأشرح لكِ حقيقة تلك الصّداقة بيني وبين «منتصر» وهناك «مريم» صديقتك، و....

- «مؤمن»، أجبني ما طبيعة تلك الشّراكة بينك وبين «هيثم» وكيف تشتعل بين أسرتكما تلك الخلافات وأنت تلقاه وتفارقه وأنت تنعته بالصديق؟!! «مؤمن» أرجوك أجبني..

أخذتْ «أشجان» تهزّ كتفيه بقوّة وهي تردد اسمه بضعَ مرّات دون أن تأتيها منه إجابة، حتّى خارت قواها وسقطت على ركبتيها أرضًا في وجعٍ وهي لا تزال تهمس:

- «مؤمن».. «مؤمن».. «مؤمن».

وأوّل الجلل بينهما تكرارُ نداءات «أشجان» دون استجابته، ثمّ طول بكائها بين كفيها دون صدره، ثمّ استطالة النظر إليه بفراغ قلبٍ دون رؤيته، ثمّ انسحاب هامتها من فوق منكبه، يا الله! لقد بدأ عصيان أبعاضها على أبعاضه قاتلًا فلا مودّة بعدُ ولا سكن!

إنّها المرّة الأولى التي يظهر في امرأته حزنٌ وهو يركن إلى اللامبالاة، يومًا ستعرف «أشجان» أنّه كان على حقّ حين صمت حتّى لا يؤلمها معه، لطالما اجتهد أن يسدّ بينهما الفرج ببعض بذله من نفسه إلى نفسه، لم يرَ نفسه قطّ رقمًا وهي رقم، لم يعْلِ واحدَه على ثانيها، «مؤمن» يرى نفسه دائمًا واحدًا منقوصًا، و«أشجان» تتمّته رغم أنّه في ركنٍ خاصّ بقلبه هناك «مريم»!

لن تفهم أبدًا حقيقةَ الأمر، ستؤلم نفسَها كثيرًا وتؤلمه معها، وهو الذي يضمّد فيها الخدش بلهف شطرٍ على شطره، وبين الحين والحين يتحسّس موضع خدوش روحها من الأيام بحبٍّ حتّى لا يبقى فيها منها أثر، لم يجدْ لما يعتمل به صدره من مناصٍ إلّا أن يرتمي كله في صدرها وهو يبكي.. ويبكي.. ويبكي.. في صمت.

نحن نصمتُ عن العالمين صبرًا، وعلى صدر مَن نحبّ نقصّ بأدمع المثقلين كلّ شيء، أحيانًا لا يكفي الحبُّ سببًا للبوح، "فأنا الحبيب" قد تقتلك من فرط صدقك، وغضّ لسان القاص عمّا يزرع الشكّ في نفس المنصت العاشق لكليكما أنجى، فاصطبرْ يا «مؤمن» على قدرك تُنجِي «أشجان» من إثم ظنّها فيك.

ليس بين المسافر والمقيم إلّا الإنصات، وكلّ مذبذبٍ في الحُبِّ مسافرٌ، وكلّ ثابتٍ مقيم، أمّا قبل.. فكلّ الأجزاء الخفيَّة من الصّور المسموعة خانقة، درجة الحبّ فقط هي التي تجلب على المنصتِ هنا أو هناك حسنَ الظنّ أو سوءه، وأمّا بعد؛ فلا يُخفي محبّ عن عمدٍ شيئًا إلّا من فرط ما يحمله من "حزن" أو "ضعف"، كلاهما وجعٌ لحامله، ذلك الذي يحمي شطرَه من كشفٍ مسيء، وعلى «مؤمنٍ» امتثل لأمر الله ها هنا سلام.. {يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسوءكم}.

****

إنّ للمرء نوعيْن من الأعين، اثنتين منهما في رأسه وواحدة في روحه، غير أنّ عيْني النّفس متطلعتان وعينَ الرّوح متعفّفة، فمن مدّ بصره للنّاس ذلّ، ومَن مدّ بصيرته أنّ رزقه على الله علا، ومَن ألقى عصاه اطمأنّ، ومَن هزّت الجذع مخاضها هان، ومن تمّ إيمانه كان في مسعاه كالطّير، وإن سرى منفردًا.

هي حياةٌ دنيا، وهي كبَد، وهذا ما يحدُث لنا فيها ومن دونِ إنذارٍ مسبق؛ أن نغفو فنستيقظ لنجدَ أنفسنا في جبّ لنصْدُق، أو في بطنِ حوت لنتوب، أو في عرضِ يمٍّ ليحملنا القدر إلى حيث يجب أن نكون، فكيف يقُدُّ خذلانهم قلوبنا مهْما جاءَ من قريب، فإمّا أنّ الله استخدمه على حقده ليرفعنا بهذا الحقد فوق الرؤوس، أو أنّه استخدمه على ضعفه ليسوقنا إلى قدرٍ لنا فيه مكانة ما كنّا لنبلغها لوْلا هذا التخلّي.

احتضنتْ «إنصاف» حفيدتها وهي تحمد الله على وجودها بهذه الحياة معها، وإن كانت نائمةً معظمَ الوقت بين يديها، أو إلى جوارها، لا تدري «إنصاف» ما الذي كان سيئول إليه حالُها لوْلا هذه الصغيرة تؤنس وحدتها.

"قبلَ فوات الأوان"، جُملةٌ نردّدها تحذيرًا على آذان الأشخاص الذين نحبّهم حتّى لا يقعوا في خطوب الدّنيا، أمّا الجُملة الأخرى التي نردّدها هي "بعد فوات الأوان" لكنّ هذه المرّة نردّدها على أنفسنا، ونحن نلقي عليها بألفَ ملام دون جدوى.

إذْ أنّها جُملةٌ لا محلّ لها من صحّةٍ أو أصل، فكلّ شيء في هذه الحياة قابلٌ للتغيير مهما حرصت على الاستقامة، ومهْما بلغت من عُمر، كلّ شيء حولك يدور، لا شيء ثابت، حتّى الشّمس على ثبات مدارها إلّا أنّ استقبال اللّواحظ لها يختلف باختلاف زاوية تأملها، كلّ لحظةٍ في عمرك مناسبة للتّخلية، ثمّ البدء من جديد، هل يجبُ على «إنصاف» أن تندم على قبل آنِها، أو أن تخاف ما بعده، لا وربّها فإنّ من حُسن التوكّل على الله أن "تعْقلها"، وأنْ لا تلتفت؛ فكلّ متروكٍ للهِ اللهُ حافظه، وكلّ منعطفٍ خلفه نيّتها تنتظرها.

تجاوزتْ عقارب السّاعة الواحدة بعد منتصف الليل بقليل، قلق العجوز يأكلها لكنّها ممتثلة لنصيحة الشابّ أن لا تتّصل على هاتفه النّقال مهْما غاب، وأن تنتظره حتّى يعود، ثمّ يخبرها بكلّ شيء، طرق «حسين» البابَ عدّة طرقات فهبّت «إنصاف» واقفة منذ الدقة الأولى التي التقطتها أذناها وهرولت صوبَ الباب دون تفكيرٍ وهي تفتح لـ«حسين» قائلة:

– حمدًا لله على سلامتك يا ولدي، أخبرني ما الجديد؟! هل تلقّت «كارولين» حقيقة الخبر؟!

– كلّا، لم تعدِ الخالة «كارولين» إلى الحيّ حتّى الآن يا أمّي، ولا ولدها الدكتور «مينا» كذلك، ولقد ذهبتُ إلى المستشفى التي احتجزت فيه صغيرتهم، لكنّي لم أجد أيّ أحدٍ منهم هناك.

– يا الله! ما الذي حدث لهم يا ترى؟! قلبي يخبرني أنّ مكروهًا قد حل بـ«كارولين»، أين أذهب يا الله وقد حاطَ بي عجزي من كلّ صوب إلّا من باب رحمتك.. رحمتك يا ربّ.

الحياةُ أضيق من رحم أمٍّ وأظلم، أنفاسُنا فيها بين المختنقة واللاهثة، وقليلٌ منها المنتظمة، كبدٌ هي الحياة، والنجاةُ من فتنها من أكثر نعم الله على عبده إنْ رضي:

– إنّا لله وإنّا إليه راجعون، اللّهم دبّر لنا فإنّي لا أحسن التدبير.

ودعاءُ المظلوم ما أقربَ استجابته إذا تيقّن الدّاعي به أنّ الله ناصره ولوْ بعد حين، لا تدري «إنصاف» ما الذي يجبُ عليها فعله الآن بعد كلّ هذه الفوضى التي عمّت حياتها فأخذت روحَ ابنتها وفرّقتها عن جارتها وأسدلت في عنقها «ديمة» أمانة، وما أثقلها من أمانة على عجوزٍ مثلها تعثّرت بوليدةٍ في نهاية الدرب وهي التي كانت تنتظر مستقرّها لا كلّ هذه القلقلة التي علقت بها!

عثراتُنا فرصٌ ثانية أو فرصٌ جديدة، فالعرقلة في جدبٍ ما مهْما اختلف اسمه، صفته، صلته، ودرجة قرابته؛ لأنّ عجلتنا في المسيرِ لا تمنح عقولنا مهل التّدبر، وجراحنا زكاة أنفسنا، الجرح الذي غورُه في النفس بقدرِ حامل السّكين في قلوبنا، ليس لنتحول إلى موهونين بأوردة عاندة، وليس لتقليص الرؤية على مساحة مَن ترك بصمته فوق جدر أرواحنا برؤية الأقرب وهوَ لنا طاعن، إنّما جراحنا هي سبيل شريانٍ حُمِّل كرهًا بهم إلى التّطهير منهم، لسنا بحاجة إلى «كبسة بن» مِن يدِ أحد، فقليلٌ من الألم مع الكثير من التدبر والفهم؛ فيهم الكفاية لخريطةِ وصولنا إلى أنفسنا الجديدة، التي أبدًا لا ندركها بدوام النظر لحُمَّال الخناجر.

– رحمة الله عليكِ يا ابنتي.. غفر الله لكِ كلّ ذنبٍ يا «عزة».

****

أذى الناس ظاهرُه ضرر، وباطنُه خير؛ حين تضلّ الطريق إلى ما أنت له أهل، يُسلّط الله عليكَ من عباده مَن هو للأذى أهل، هو إلى ما هو أهله، وأنت بين ما ترى وما تتفكّر، إنِ اكتفيت بما بين عينيك هلكت، وإن بلغتَ عين الحكمة برأت، وكم من طعنةٍ كاشفة! وكم من محنةٍ مُنجية، وكم مِن «منتصر» ظاهرُه الانتصار وهو بحقيقته مهزوم!

خرجَ «هيثم» من حمّام غرفته يحمل بين يديْه منشفة كبيرة أخذ يجفّف بها شعره وهو يتّجه نحوَ خزانة ملابسه بنفس الوقت، لكنّه أسقط في طريقه باقة الورد على المنضدة بوسط الغرفة، انتفضت «مريم» في مخْدعها حيث كانت تستلقي فوقه وهي تخلّل شعرها بأصابعها، بينما تنظر إلى الزّهور فوق

المنضدة قبل أن يسقطها زوجها من دون قصد، حافية القدمين انْطلقت صوبها، وأخذت تعيد هندمتها وهي تزمّ شفتيها غيظًا في صمت.

لم يلتفتْ «هيثم» إليها كعادته لكنّه اكتفى بنظرات جانبية ساخرة إليها منذ انتفضت من سريرها إلى أنْ خرّت على ركبتيها أرضًا لتعيد تنسيق الزّهرات في أماكنها من جديد، كانت «مريم» تلملمُها باهتمام كما لم تفعلْ مع شيءٍ سبقَ وأسقطه «هيثم» بنفس الطريقة من قبل.

يا لغرابة هذه المرأة! هي صلبةٌ كصخرة وهي تجالسه، وكورقة خريفية تحملها الرياح أمام بضعة ألوانٍ باهتة.

– يا إلهي ما هذا! أنا لا أصدق عينيّ، الأميرة «مريم» تخطو حافية القدمين من أجل أيّ شيء مهما غلا ثمنه؟!

انتفضت «مريم» للمرّة الثانية في اللّحظة ذاتها، لكنْ هذه المرّة ما أفزعها هو صوت «هيثم» وهو ينطقُ بهذه الجُملة بسخرية لاذعة وهو يوليها ظهره، رمقته «مريم» بنظرةِ تعجّب وكأنّها لم تلحظْ وجوده إلّا في التوّ، لا تدري كيف صارت ثملةً إلى هذا الحدّ وهي تقوم بإعادة الزهور كلٌّ في موضعها، هي حفظتْ ترتيبها عن ظهر قلب منذ رأتها عيناها صباحَ أمس، لم تهتمّ أن تبادله حرفًا، وأخذت تلملم حتّى الوريقات التي سقطت جرّاء ارتطام الزّهور بالأرض ورقةً ورقة داخل كفّها المبسوطة قبل أن تطبقها بحركة إرادية عندما أفزعها «هيثم» بسؤاله الذي لم يلقِه وهو ينتظر منها إجابةً له، هي طريقته الدائمة معها خلفَ كلّ الأبواب الموصدة عليهما.

أنّى له أن يعرف ما بها، وكيف هي!

و«مريم» كثيرًا ما تدُسّ حاجتها بين خطوط كفّها وهي سابحة في أفكارها أو محلقةٌ بها، متى تفقّدها «هيثم» كحبيبةٍ ببعض التماس الصامت، كانت عيناها تناديه ليل نهار حتّى أجفلت كمهرةٍ ترفض العبورَ إليه والنّظرَ إليه كذلك، لكن ما كفّت روحها عن النداءات؛ منتظرةً منه أصدقَ الوصل حين يلتفت إليها على صمتها وكأنّه استمع لما همست به روحها لروحِه فتُبعَث، «هيثم» قَحِلٌ كصحراء بخلتْ على عطش قلبها بأبعاضٍ من ذاته، و«مريم» لا تنتظر منه إلّا ما يبذُله من نفسه فقط، وإلّا فلا سكن بينهما والروحُ عن الروح عازفة.

إنّ ما يرضي «مريم» ليس في أنْ تكلّفه ما لا يطيقُ كبقية النّساء من طبقتها، إنّما تريد هي شعورَ الرّضا حين يمنحها «هيثم» حبًّا كلّ ما يمكنه منحُه لها، الغريب أنّه لا يفوّت مناسبة كعيدِ زواجهما أو عيدِ مولدها إلّا ويقيم لها حفلًا تحسدها عليه القاصية والدانية، وتلك الهدية القيّمة التي يهاديها بها أمامَ الجميع وهو يراقب نظراتهنّ إليها، وكأنّه يقول لها: "جعلت الجميعَ يحسدونك عليّ، انظري"، مهلًا أيَا «منتصر» لا تمنحني إلّا ما أنتظره أنا منك، وإنّ جلّ ما أريده مخبّأ في نظرتي، وإنّك إنْ أجدت استقراء نداءات عيني سعدت وأسعدت، وسكنتَ وأسكنت، وكُفيت خيرًا أنّك لم تُضيِّعني في تيهي ألست أوّل مَن تعول؟!

قِ نفسَك من ذنبي ولو بشقّ ضحكة، فكلّ عطاءٍ مغموس بشيءٍ من الروح والنفس مُبهجٌ، الأمرُ أبسط من كلّ تكلّف وتكلفة، فاللُقَيمة المغْموسة بالحُبِّ طمأنة وبهجةٌ وأثر، والمُقبِل على الحُبِّ أُشْبع ولو الحبّ قليل.

توجّهت «مريم» إلى شرفةِ غرفة النّوم وهي تطبق بكفّها على وريقات الورود كما هي، قبلَ أن تبلغ حافّة الشّرفة، وتطيّر الألوان في الهواء عندما قذفت بأوراق الوردِ إلى الشمس، وكأنّهنّ الفراشات، ولكنّهنّ لم يطرنَ إلى النور.

كم تمنّت «مريم» لو أنّ روحَها من فصيلة الكائنات المُحَلِّقَة فتصبح مثلها لا تتّكئ على أحد، هي السّماء ملكٌ لِمَن يملك جناحيْن وإرادة، وعهد المحلِّقين في الأفق السّلام، ووفاؤهم الدّعاء، وعَوْدُهم دائمًا.. أحمد.

****

لو أنّكِ ضلعُه؛ لن يستغشي ليلةً واحدةً وأنتِ لستِ بصدْره، لكنّكِ يا حواؤه: لن تكوني إلّا إذا التحمتِ به في الأساس وتأصّلتِ فيه، وتذوّقتِ منه وأذقتِه، وصبرتِ عليه وصبّرتِه، فإذا ما أَفلْتِ "وهذا ليس بأصل" تحسّس مواضعكِ منه، وكأنّما فقد النّور وبالنّار تلظّى.

لم يستطعْ «مؤمن» أنْ يأوي إلى فراشٍ لا تقاسمُه «أشجان» وسادتَه، تركته منذ أن رُفع أذانُ العشاء، ودلفت إلى غُرفتها وهي تبكي بلا توقّف، ورغم أنّ «أشجان» قد تركت الباب مفتوحًا إلّا أنّ «مؤمن» لم يجرؤ أن يقربه، وكأنّ ما أُغلق بينهما جرّاء تلك الحكاية على شفافيتِه إلّا أنّه بدا لهما كأصلبِ أنواع الزّجاج وأقواها، فهُما على رؤيتهما لبعضهما إلّا أنّ الرّوح حبيسةٌ مع تلك الحقيقة التي يستحيل على «مؤمن» الآن الحديث عنها بأكثر ممّا أخبرَها به.

لكنّها طبيعةُ «أشجان» التي يعرفها «مؤمن» جيدًا، هي «أشجان» كلّما حزنت نأت، صمتُها جلال، وطلّتها تعويذة، القربُ منها جرأة، والعيشُ حدها عزة، ونكرانها كبيرة، وتجاوزها خذلان، وصيدها لعنة.

كالخيل هي «أشجان» لا تعتب ولا تضرب.

لكنّه اشتاقَ إليها، وما يحلّ الشّوق في نفس إلّا لعجز أصاب الروح فمنعها من الصلة، وما يعوقُ سريان الدّم بالشّرايين إلّا ما يترسّب في شطر النفس من حنين، بينما شطرها الآخر قد حبس الأنفاس، وقرّر الغرق في الحزن وحيدًا.

وإنّ «مؤمن» يعشقها، والعشق إنْ صدق كان لحامليْه مثل ما كان على موسى من تفويض بالقتل، وإنّ للعشق لسحرةٌ تفرّق، وإنّ مطاردة فراعين الهوى لأصحابٍ اليقين ما يزيد الشّطريْن إلّا قوة، حتّى وإنْ كان خلف العاشقين فرعون وجنده، وأمامهما يمّ الاستيئاس قد دنا، عصا الوسيلة ها هنا بالتحام الشّطريْن على حُصُرِ النّوازل، وما النّجاة بعد إلّا لحظةٌ يلتقي فيها القلْبان على حال يقين.

- أحبّك.

لم يغصّص «مؤمن» من قبل وهو ينطق لزوجته بهذه الكلمة مثلما غصّ بها الليلة، يا لثقل أحرفِها وهو يقف بها على عتبة «أشجان» بلا حوائل تمنعه عنها.. إلّا هي.

(أحبّك)، وكأنّها يقينُه الذي حمله إليها في تلك اللّحظة التي غفت فيها «أشجان» لترى في غفلتِها حلمًا لأبيها الرّاحل وهو يتأبّطها رافعًا وجهَها إليه بسبّابته وإبهامه، بينما ينظر إليها وكأنّها أوحشتْه وهو يقول:

- لا تُوقِدي عودَ ثقابٍ في ركن تعمّد رجلُكِ عتمتَه؛ فما يُخفي الرّجل إلّا هشيمًا، وكلّ ما قد أخرجه ليخفيه عنكِ مصيرُه للرّياح، أيَا ابنتي كلّ القشور

في الخلا تُلقَى؛ وتُؤكَل الفاكهة بدونها، فكلّ مَن اهتمّ بالظاهرِ أطعمه القدرُ للحزن عن عمد، فتشبثي بمَن يراكِ الشجرة وليسَ الثمرة، فالثّمرة طعامُ الجياع، بينما الشجرة يأتيها مستأنسٌ فيتأمّلها ويستنشقها، ويُطعم منها، ويستظلّ بها، ثمّ يسكن إلى جذعها وينام. «مؤمن» يحبّك.

- أحبّك.

التقطتْ أذناها الكلمةَ من «مؤمن» فأيقظتها على قول أبيها: ”«مؤمن» يحبّك“، كم تحبّ «أشجان» أباها!

منذُ مات وهي تغيّر فيها كلّ شيء، هي أيضًا كانت لديها أسرارٌ لم تخبر أحدًا بها قبل «مؤمن»، لكنّها حين أمِنَته قصّت عليه في توّها كلّ شيء، لم يكن «مؤمن» إلّا هدية قدرٍ غافل كلّ أقدارها الحزينة وأسعدها به، ومن ساعة العجب بين «أشجان» و«مؤمن» أنهما عند الغضب طفلان، يشتدّ بينهما الشجار كريح تجتثّ كلّ ما بيّنهما حتّى يستفيقا على بيّنِهما، من المستحيل أنْ يتوازيا عندهاً أو يتضادًّا، إنّما يستديرا على ذات اللحظة، أمّا بعد.. فعلى المسافة بينهما بعد أوّلِ نظرةِ سلام، باكيان بعد قهر اللّحظة أو ضاحكان؛ لا يهمّ، على حصى العتب أو على جمر الاستنكار يعودا؛ لا يهمّ.. المهمّ يكمن في جلستهما التي تطول بعدئذٍ فوق كلأ رهبتهما، أنْ ماذا كانا مقدمين عليه؟! إلى أيّ وجْهة شطر كلاهما وجهه؟! يا الله أغريبان على هاوية شكاية؟! لَمن؟ وممّن؟!

وكأنّ الشمس انطفأت موضعَ الفؤادين بمجرّد استحضار الفكرة، وكأنّ الليل أُسدِل عليهما بلا نجوم هداية إلّا أن يلتفتا ويتَلمّسا من رباعية

مقالهم بصيص ضيّ! ثمّ إنّ للنور جلالَ اتّباعٍ فما استفاقا إلّا ومنقوصُ الخِلْقة محتضنٌ ضلعَه فيكتمل.

- أحبّك يا «مؤمن».

جميعُنا نحمل في حشانا الحبّ، حتّى أولئك المكابرين خلف أقنعة إنكاره، حتّى أولئك المنظّرين على المحبّين، وما بِهم من حِلّ، حتّى أولئك القساة مدّعو الخُلوّ منه كـ حُلم أو كـ سرّ، وحتّى جامدي الملامح أمام لوْعات المعذّبين حبًّا؛ جميعنا بلا استثناء (وعاء حبّ) مهْما اختلف النّهل منّا، أو بنا.

المتأمّلون فقط يروْن حتّى في أكثر الناس قسوةً حبًّا، خلف كلّ ملمح جَمَد حبًّا خمد، وخلف كلّ لسانٍ نظّر جوفًا افتقد، وخلف كلّ المكابرين أمامَ حاملي الحبّ ألف ألفِ غبطة، أو .. حسد!

إنّما الحبّ في كلّ (روح)، وإنّما الهوى في كلّ (نفس)، والسّلام على مَن لم يُمكّن روحه مِن هوى نفسه؛ فترفّق وترقّق وواسَى ولم يعذل.. فلم يَشقَى أو يُشقِي؛ بل ودّ ورحم.. فسكن.

****

"إنَّ العطاء ليس مالًا فقط، وإنَّما نحفظ الماء في الوجوه، ونطيّب الخواطر، ونُراعي الكرامات، فإنَّ إراقةَ ماء وجه إنسان كإراقةِ دمه"

تنطبق هذه المقولة لـ الفاروق عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- على حالة «حسين» مع «إنصاف» منذ تعرّف عليها في أوّل لياليه بذاك الحيّ.

لطالما أنقذته «إنصاف» من مكائد أمثاله من روّاد الحيّ المارّون أو الماكثون فيه، كم تلقّت كتفاه طبطباتِها وهو يبكي حاجةً أو يشكو غليظًا من جلّاس

المقهى لم يرأفْ به، كم كستْه في الأعياد وكأنّه ولدُها، وكم دعتْه إلى بيتها في حياةِ ابنتها «عزة» ليشاطرهما عيدهما وكأنّه منهم.

عشْرُ ليالٍ بأحد عشَرَ نهارًا قد مرّوا، و«حسين» كهدهد سليمان يقطع كلّ السبل التي يتحسّس فيها خبرًا عن جارة «إنصاف» دون جدوى، ما من أيّة أخبارٍ عن «كارولين» أو ابنها الدكتور «مينا»، ولا حتّى زوجته وابنته «كريستين» كذلك، لم يترك «حسين» مهمّة البحث عنهم لـ«إنصاف» من فرْط خوفه على العجوز والصغيرة «ديمة».

يا الله! في مقام آخر إنّ لمثل هذه الوليدة من الحياة ما هو أهدأ وأكرم وأجمل وأكثر أمانًا، خمسة وعشرون يومًا هي كلّ أيامِها بهذه الحياة، وهي لا تزال بلا شهادةِ ميلاد تمكّنها من أبسطِ حقوقها كإنسانة لها حقّ الرعاية من هذا الوطن، لو أنّ هذا مسيرها لأنّها بلا راعٍ ترى ما هو مصيرُها بعد الآن.

- أي «ديمة»، هل تعِدي جدّتك بأمرٍ هام؛ عندما تكبرين ابقي على قيد الحلم وإنْ طال المْشى، أو غالبكِ الكافرون بيقينك، لا تلقي بنفسك إلى "أحدهم" قنوطًا، فأوحدك من الرّجال موجودٌ، وينتظر سقوطَك فيه، وشتّان يا صغيرتي بين (أن تلقي بنفسك إليّ، وبيْن أن تسقطي فيّ)؛ الأوّل انتحار، والثّاني سكن، وبين هذا وذاك صبرُ ساعة على هُراءات الألقاب المستحدَثة، فالعنوسة بدعة، والإنجابُ رزق، والتآلف مع شطْرك يستحقّ الصوم، والسّلام على قاصرةٍ جعلت حتّى لعينيها بكارة.

بكتْ عينا «حسين» وهو يستمعُ إلى كلمات «إنصاف» التي توجّهها إلى حفيدتها وهي تضمّها إلى صدرها بشرود، وكأنّ «إنصاف» توقنُ أنّ الصّغيرة تستمع إليها وتفقَهُ قولها!

لكنّ «حسين» الذي شبّ بلا أهل يفقه ما تقولُه العجوز «إنصاف» جيدًا، لقد سبق له أنِ اسْتمع لنصائحَ مماثلةٍ من جدّتها مع فارق المثال:

– أي بنيّ: من توبتك لا تستيئس، وإنْ جرّتك نفسُك للذنب في اليوم والليلة ألفَ مرّة، دعْ روحك تأخذُك هي الأخرى إلى رحمة الله ألفَ ألف مرّة، إيّاك وران قلبك ممّا قد تسمعُه بأذنيك من القاسية قلوبُهم، فتصدّقهم وتسيء ظنّك بالغفور.

كانت نصيحةً صادقة من «إنصاف»، فوقرتْ في قلبه، فوعدها أنّه لن يمدّ يديه يسرق بعد اليوم، وقد صدق اللهَ في وعده، ثمّ صدقها.

على مُصاب «ديمة» الجلل إلّا أنّ الشابّ قد أغبطها على وجود جدّتها معها، وإن كانت لن تتذكّر- كـ وليدةٍ عندما تكبر- هذا الوجه أو هذه الكلمات.

تُرى هل كان لي جدّة يومًا وأنا في مثل سنّها، أم أنّني لم يمسّ مسامي من أهلي أحدٌ؟!

أنبتٌ شيطانيّ أنا وأمثالي ممّن يُفرزون من داخل صناديق القمامة، أو يُتركون على أبواب المساجد والملاجئ كذلك؟!

لماذا يُنجَب أمثالنا لو أنّ الغارسَ والأرض لا يتّفقان من الأساس على رعاية النّبتة فتركوها فوق الشّقوق تحترق؟!

إنّ «حسين» الذي بلغ العشرينَ من عمره وهوَ بين ملجأ أيتام ورعاية أحداث ثمّ عمله بذلك المقْهى هناك في حيّ هذه العجوز، لم يتذوّقْ للآدمية طعمًا إلَّا على يديها هي فقط؛ أمّه «إنصاف»، لطالما وجدَ راحةً في نسبِها إليه

وهو يناديها بأمّي، هو أيضًا قد سبقَ «ديمة» إلى هذا الحضن يومًا ما، لكم تمنّى في كلّ يوم يمرّ من عمره لو أنّه ظلّ صغيرًا حتّى يتمكّن من احتضان «إنصاف» كأمٍّ من جديد، وريّ جدب روحه العطشى للحنان، لكنّه منذ كبر وهي تحادثه من مسافة، هيَ على استحياء تفعل وهو بذكائه فَطِن، فاكتفى منها بأن يمنحَها هو البنوّة على هيئة اهتمام بها كلّما يراها هناك في أحدِ شوارع الحيّ الذي هجرته «إنصاف» كرهًا، وانتقلَت بلا ترتيبٍ للعيش المؤقّت معه.

لم يكنْ يدري وهو يهرولُ باتّجاهها ليحمل أغراضها عنها كلّما رآها حتّى يناديها فقط بأمّي؛ أنّ القدر سيمنحُه فرصة العيش معها تحت سقفٍ واحدٍ كما هُما الآن، على صغر مساحة الحجرةِ التي تجمعهما منذ أكثر من عشرةِ أيام، إلّا أنّ وجود «إنصاف» بها قد غيّرها تمامًا، لمساتُها قد طبعتْ فوق كلّ شيء داخلها، وكأنّ في النّساء جمالًا ينعكس تلقائيًّا في المكان متى حللْن فيه!

حتّى الطعام من صنيعتها على بساطته ما أشهاه! يا ليتها تنسى أمورَها التي تشغلها كلها وتبقى و«ديمة» معه، ما ضير القدر لو تركها أمًّا له في أواخر أيّامها؟! واتّخذته هي ابنًا ونسيَ هو يتمه ولو لبضع سنين، من لها غير هذه الصغيرة الآن؟! لو أنّ معضلتها في نسب الصّغيرة إلَى أب، فهو مستعدّ لتلك المهمّة جدًّا، لا يدري «حسين» كيف يمكنه نسبُ «ديمةً» إليه، لكن ما يدريه أنّ هناك مقابلًا لذلك، وهو بقاؤها وجدتها «إنصاف» معه.

– ما رأيكِ يا أمّي لو أنّني نسبت «ديمة» إليّ– أي أنّ أستخرج لها شهادة ميلاد باسمي–؛ على أنْ تبقيان معي، ونغلق بعد كلّ الملفّات المفتوحة ونضع نهاية لكلّ مخاوفك تجاه الصغيرة كذلك.

نظرتْ «إنصاف» إلى «حسين» مطوّلًا بعد أن ألقى ما في جُعبته إليها، وهو يسعل بين الكلمةِ والكلمة كأنّه يحملُ الكلمات في جوْفه على هيئة مكعّبات ثلج، هي برودة الحقيقة لمن لا يملك في العَراء مدفأة، إنّها حقيقته هو، حقيقة «حسين» عن ذاته القابعة في نفسه تحيط بكلماتِه فأخرجتها متقطّعة على هذا النحو، وبين كلّ كلمة وكلمةٍ يسعل كمَن عانده الهواء في تلك اللحظة فشُحّ أن يصل طبيعيًّا إلى رئتيه.

كمْ هو عجيبٌ أمر هذا القدر!

يعطي لأناسٍ المالَ فيشترون به كلّ شيء إلّا الودّ والرحمة والصحة والإنسانية، وينزع من آخرين هذه النّعمة، ويعطيهم أفئدةً كأفئدة الطير، المالُ نعمة من الله لكنّ تصريف المرزوق فيه قد يحوّله من نعمةٍ إلى الكثير من النّقم بالفعل.

– دعْني أفكّر في الأمرِ يا ولدي، وإنْ شاء الله يفعلُ اللهُ ما فيه لنا جميعًا الخير.

****

الرّاحة لا تحلّ بالبوْح، بل التّعب هو ما ينتقل بالبوْح إلى الآخرين، وما كان جزاء الصّابرين بغير حساب؛ إلّا لأنّ الله أكبر من كلّ تعبٍ، وأرحم مِن كلّ مستمع، وألطف بكلّ مؤثّرٍ كاظمٍ؛ ابتسم في وجه مَن بالجوار وهوَ فيه ما فيه.

استقبلتْ «أشجان» صديقتها «مريم» بمكتبها لأوّل مرّة منذ قامت بإنشائه بعدما استقرت وزوجُها الدكتور «مؤمن» بمصرَ قبيل بضعة أشهر من الآن،

رغم تكرار دعوة «أشجان» لها كصديقةٍ تارة، وكزميلةٍ لها بالمهنة تارةً أخرى؛ إلّا أنّها كانت تكتفي دومًا بأن تعدها بهذه الزيارة في أقرب فرصة، ولم تكن تفعل.

– ها أنتِ أخيرًا تلبّين دعوتي يا «مريم»، جميل أنّكِ قررتِ أخيرًا زيارتي بمكتبي المتواضع هذا.

رفعتْ «مريم» حاجبيْها بدهشة مُصطنعة وهي تمطّ شفتيْها إلى الأسفل كمشاكسة بينما تدير عينيْها حولها متطلّعةً إلى كلّ تفصيلة بالمكتب قائلة:

– لا تدّعي التّواضعَ ها هنا يا «أشجان»، بالفعل ذوقكِ جميل جدًّا في اختياراتك لكلّ شيء يا صديقتي، حتّى لمساتك البسيطة هنا وهناك لها من جميل الأثر في العين والنّفس ما لها.

أدارتْ «مريم» وجهَها إلى «أشجان» وهي تستطرد بجذل:

– إنْ كان هذا هو ذوقك في مكتبك فكيف سيكون ذوقك في بيتك إذًا يا صديقتي؟!

– حبيبتي أنتِ يا «مريم»، لا حرمتك ولا حرمت مجاملاتك الرقيقة هذه.

بحنوّ كانت تربّت «أشجان» على كفّ «مريم»، بينما تبادلها كلمات المجاملة، قبل أن تعتدلَ في وقفتها وهي تشير بيسراها إلى مكتب مماثلٍ لمكتبها في غرفة مجاورة بينما تضغطُ بيمناها على زرٍّ صغير أسفل حافّة مكتبها من جهة اليمين وهي تدعو «مريم» للجلوس على المقعد المقابل لها قائلة:

– ها هو مكتبكِ يا كسولة، سأقوم باحتجازك اليوم بمكتبكِ عنوة وأجبركِ على العمل، لكن.. أخبريني أوّلًا ماذا ستشربين؟!

– قهوة سكّر زيادة.

ابتسمتْ «مريم» لعامل البوفيه الطّاعن بالسنّ الذي دلف إلى مكتب «أشجان» بخطًى مُتثاقلة بعد عدّة طرقات خفيفة على الباب، وهو يقول مبتسمًا:

– تحت أمر حضرتك يا دكتورة.

– فنجان قهوة سكّر زيادة للأستاذة «مريم» يا عمّ «سيد» وقهوتي المعتادة لو سمحت.

عاد الرجلُ عدّة خطواتٍ بظهْره إلى الخلف وهو يعاود غلقَ الباب عليهما من جديد.

– ها.. لم تخبريني.. هل أنتِ مستعدّة أنْ أخطفك يا «مريم»؟! لا تنكري أنّ مثلكِ لن يُقبل على العمل إلّا خطفًا.

من جديد، توجهّت «أشجان» بحديثِها إلى «مريم» وهي تفتح قبضة يسراها وتغلقها بحركة تمثيليّة في وجه «مريم»، بينما تضغط أحدَ الأزرار أسفل حافّة مكتبها من جديد بيمناها، لكنّها هذه المرّة كانت تستدعي سكرتيرتها التي دقّت على الباب دقتين قبل أن تدير مقبضَ باب المكتب وتدلفَ مباشرة إلى الدّاخل قبل أن تقفَ على مسافتها المعتادة باعتداد انتظارًا لما ستُلقيه عليها «أشجان» من أوامر.

ناولتها «أشجان» ملفًّا يحوي عشرات الأوراق بداخله وهي تقول لها بجديّة تتنافى ودعابتها التي دغدغت بها مشاعر «مريم» منذ لحظة:

– مِن فضلك يا آنسة، صوّري لي هذا الملفّ بالكامل، وضَعِي لي الصّور منه داخل ملفّ ورقيّ، وأحضريه لي فوْر أن تنتهي من تصويره.

ثمّ التفتت إلى «مريم» وهي ترفع حاجبيْها تشاكسها من جديد:

– حتّى نوكله إلى الأستاذة «مريم عامر» شريكتي الجديدة بالمكتب.

التقطتِ السّكرتيرة الملفّ بروتينية وهي تمنحُ ابتسامة إلى «مريم» كترحيبٍ لها بينما تستديرُ إلى «أشجان» من جديد، وهي تهزّ رأسها تفهّمًا قبل أن تذهبَ بنفس الطريقة التي استخدمها عاملُ البوفيه العجوز منذ قليل.

من جديد، عادتْ «أشجان» تتوجّه بحديثها إلى «مريم»، بينما الأخيرة تراقبها في إعجاب لم تستطعْ أن تخفيه:

– ستأخذينَ هذه النّسخة من الملفّ معكِ إلى البيت، وستعدينني أنّكِ ستسهرين الليلة في دراسته، وغدًا صباحًا سأنتظر منك مسوّدةَ الدّعوى القضائيّة التي على أساسها ستكتبين مرافعتك من واقع ما في الملفّ من مستندات.

– مرافعتي أنا!

– نعمْ مرافعتُك أنتِ، هذه القضيّة منذ هذه اللحظة قضيّتُك، أريد أن أرى المحامية «مريم» من فضلك، فقد سئمت من رؤية «مريم» الصديقة.

سلامٌ على «أشجان» التي تتظاهرُ أمام صديقتها بالسّعادة على عظيم ألمها، وهي تدّعي القوّةَ بينما تدعم صديقتها وهي تخفي جراحَها بحمل السّلام

وهي تشير- دون مباشرة- إلى «مريم» أنِ انشغلي عن نفسكِ بسواكِ، وإن كان كلّ مقدورك هو ابتسامة في وجْه كلّ مار.

سلامٌ على «أشجان» إذْ تنفق السعادةَ على خصاصة أحزانها، هي بلا ناس فلم تنتظر من أحدٍ أخذًا، فأعطت إلى عموم النّاس وأرجأت الكثير من جزائها إلى الآخرة.. ليس طمعًا في الجنّة فقط؛ بل رغبةً في أقرب منازل الجنان إلى السلام.

طرقتِ السّكرتيرة باب المكتب قبل أن تفتحه وهي تفسحُ بحرص حتّى تمكّن عامل البوفيه العجوز من الدّخول إلى المكتب، لكن هذه المرّة كان العمّ «سيد» يحمل بين كفيه فنجاني القهوة على صينيّة مستطيلة من الزجاج الشفاف، وضع العجوز القهوة بحسب مذاقها أمام طالبتيْها، ثمّ دار بجسدِه حتّى بلغ الباب، وكاد يُغلقه كما فعل بالمرّة الأولى، لكنّ الدكتور «مؤمن» اعترض البابَ بجسده وهو يتناول مقبضَه من عمّ «سيد» بيمناه، بينما يحمل بيسراه باقةَ وردٍ كبيرة جدًّا ابتلعت نصفَه العلويّ بأكمله، حاولت السّكرتيرة وعمّ «سيد» قولَ شيء ما، لكنّ «مؤمن» لم يمْهلهما أيّة لحظة لقول أيّ شيء، وكأنّه قطرة ماء سقطت أعلى لوحٍ زجاجيّ فانزلقت بسرعةٍ وانتهى الأمرُ بإغلاقه لبابِ مكتب زوجته خلفه وسط انْدهاش الجميع.

ومِن توّه جثا «مؤمن» على إحدى ركبتيه داخل مكتب زوجته وهو يهمس لها بنبرة صادقة:

- سامحيني يا «أشجان»، أرجوكِ سامحيني.. لا شيء سيعيدُ هذه الأيام التي تمرّ إلى أعمارنا من جديد؛ لذا فلا شيء يؤلمُ كيومٍ مرّ واثنين من نفسٍ

واحدة في فرقة، من لي سواكِ يا شطري وأناي، وأمّا ما بي فربّي بما بي عليم.. أحبّك وجدًّا.. أرجوكِ، سامحيني.

لم تحتملْ «أشجان» أنْ ترى «مؤمن» وهو جاثٍ على ركبته هكذا، فأسرعت إليه وحملت باقةَ الورد عنه، ووضعتها فوقَ أقرب منضدة إليها، وعادت إليه مسرعة جاثية بكلتا ركبتيها أمامه وهي تحتضنه، وهما يبكيان حتّى علا نحيبُهما، لم تجد «مريم» لها مكانًا بهذه اللّقطة فأسرعت منسحبةً من الغرفة قبل أن تغلق عليهما بابَها من الخارج؛ ليس من الجميل أن يستفيقا على وجودها معهما فتفسد عليهما هذه اللحظة الدافئة من العشق.

إنّما المرأة إذا حزنت تقلّبت، فهي مع الحزن دائمًا بيْن بين، وإنّ في صدود الراعي عن تحمّلها استدعاءً لقسوتها كمهيرةٍ عليه؛ فإنّ المُهيْرة بعد ولوج العتب لا تريد من راعيها عتبًا على طبع أو طبيعة، جلّ ما تريده حبّه في كلّ حال؛ إنْ أشبع روحها ها هنا غلبت محبّتّه طباعها، وإنْ كان كلّ ما فيها عاندٌ، وإنّ في استكانتها جلالٌ؛ خاسرٌ هو إنْ لم يبلغه بالبذل، وفائزٌ هو حين يصبح لها من أوّل السطر راعيًا بلا قططٍ ذبيحة.

هكذا هو حالُ «مؤمن» مع زوجته «أشجان» منذُ قبلت به زوجًا، وهو لا يترك للحزن فجوةً ولو بحجم سمّ خياطٍ لينفُذ إليها منها، هو يعلم جيدًا أنّ الحزن ثاقب، وأنْ لا شيء يملأ فجواتِ الحزن في امرأة، إلّا راجلٌ أتاها هرولةً وهو لا يحمل بين يديه من عطايا إلّا نفسه.

****

ما بالُ مزاجنا إذا تعكّر يغيِّر فينا التّقدير تجاه كلّ شيء، هي الطريق ذاتها التي قطعتها «مريم» منذُ بضْع ساعات عندما قصدتْ مكتب صديقتها «أشجان» مجيئًا، هي الآن تسلكُ الطّريق ذاتها رواحًا، لكنّ المسافة بدت لـ «مريم» ضعفين أو تزيد، ما أسوأ حظ «مريم»!

ما الذي اقترفته في حياتها حتّى يلاحقها سوءُ حظها إلى هذه الدرجة؟! لولا أنّها لم تخبر «أشجان» قبل أن تذهب إليها بموعد حضورها إليها بمكتب المحاماة الخاصّ بها؛ لقالت «مريم» أنّ «مؤمن» هو مَن رتّب لكلّ ما حدث، صورته وهو يجثو على ركبته أمام «أشجان» لم تفارق عينيّ «مريم» منذ غادرتهما، لم يكن ينقصها مثلها لقطة أو مثله شعور حتّى تبكي بحرقةٍ هكذا غير مباليةٍ بسائق سيارتها الذي لم يجدْ بدًّا من عدم إحراجها إلّا أنّه أغلق اللوح الزجاجي العاكس الذي يفصل بين صالون السيارة والجزء الأمامي منها في صمت.

لماذا تركني إلى جلد ذاتك في وقتٍ يحتاج كلّ طاقتك لتَحيي؟!

التقطي أنفاسك أوّلًا بانتظام يا «مريم»، واعلمي أنّ الطريق الذي سلكتِه وكانت نهايته مقطوعةً عن الأمان، موصولة بأنّات رُعبك؛ هو ذات الطريق الذي إنْ عدتِ أدراجه نَجوتِ من كلّ هذه المعاناة، لا يهمّ كم من الوقت ستنفقين في طريق عودتك إلى نقطة البداية الصّحيحة من جديد؟! كم من العمر؟! كم من الخوف إذ تعودين وحيدة!

ربّما الحكمة يا «مريم» أن تعودين وحيدةً إذ مثلك لا يليق به إلّا أن يكون متبوعًا لا تابعًا، إلى متى ستبكين ما لم يأتِي، وتنتظرين ما لنْ يجيء؟!

هل حقًّا أنّكِ غادرتِ منذ قليل مكتب «أشجان» حتّى لا تفسدي على صديقتك وزوجها تلك اللحظةَ الخاصّة التي شاهدتها بينهما من غير ترتيب.. أم أنّ السّر فيه هو في «مؤمن»؟!

لا تدري ما الذي يعتريها في كلّ مرّةٍ يجمعها به لقاء، شيء ما يتحرّك فيها تجاهه لا تدري ماهيته، عيناه دومًا تخبراها بشيءٍ ما رغم أنّه لم يتوجّه بحديثه إليها مرّة، حتّى أنّه لم يمدّ لها يده ليصافحها بعكس ما هو سائد، هي دومًا مَن تبادره بالمصافحة فكان يتراجع خطوة وهو يمدّ لها ذراعه مصافحًا وكأنّه يفرّ منها إلى دواخله!

شيء ما فيه يجعل قلبَ «مريم» يتعرّف عليه، لكنْ لا شيء منطقيّ يخبرها عنه شيء، حتّى «هيثم» ذاته كلّ ما يقوله عن «مؤمن» أنّه صديقه، ولا يزيد بعد ذلك حرفًا.

أعجب الأمور التي تجعل من «مؤمن» لغزًا برأس «مريم» أنّ الأستاذ الدكتور «مؤمن صادق» الذي تخصّص بكلية الطب في قسم النّساء والتوليد سبقَ ورفض أن يقبل «مريم» بين مريضاته!

والأعجبُ أنّ «هيثم» لم يندهشْ من رفض صديقه المريب هذا، وكأنّه يعرف عن «مؤمن» شيئًا لكنّه لا يفصح عنه، لا تستطيع «مريم» أنْ تنسى تلك الليلة التي قصد «هيثم» فيها مستشفى دكتور «مؤمن» الخاصّة برفقتها، وكيف أنّ الأخير قد ادّعى الإرهاق وأوكل مهمّة فحص «مريم» لأحدِ زملائه، واكتفى هو بالمتابعة كطبيب ثانويّ، الأمر الذي تسبب لها في حرجٍ شديد حتّى كادت تفارق المشفى في توّها، لولا حضور صديقتها «أشجان»

زوجة دكتور «مؤمن» معها بالمشفى، ربّما «مؤمن» يمتلك المشفى و«أشجان» معتادة على بعض التّواجد بها أو المرور عليه فيها كزوجةٍ له؛ لكن هذه المرّة لم تكن «أشجان» هناك كزوجةٍ لمالكها، هي في تلك اللّيلة بالذات كانت في المشفى ليس من أجل «مؤمن».. بل كوْنها صديقة لـ«مريم».. لأوّل مرّة «أشجان» صديقة لإحداهن وفقط.

كما أنّ «مريم» كانت اليوم بمكتب «أشجان» لأوّل مرّةٍ هي صديقة لإحداهن وفقط؛ لكن هي لا تدري حقًّا لمَ لا تنشغل بـ«مؤمن» إلّا في كلّ مرّة تراه فيها فقط؟!

الغريب أنّ هذا اليوم، وهذا اللقاء الذي ليس بلقاء، الأمرُ فاق فيه الانشغال ووصل إلى حدّ الانزعاج؛ نعم.. «مريم» الآن منزعجة كثيرًا، وتبكي كثيرًا- أيضًا- وهي تتطلّع إلى الوردة الحَمراء بين يديها، ولا شيء برأسها غير «مؤمن»، لا تدري كيف أنّها مدت ذراعها تخطف وردةً من تلك الباقة قبلَ أن تغادر مكتبَ صديقتها «أشجان»؟! لقد فعلتها دون وعي كما أنّها الآن تنظر إليها وهي تبكي دون فهم.. وصورة مؤمن لا تفارق مخيلتها!

****

إنْ كان بعضُ النّسوة يكْفُرنَ العشير، فلا شيءٍ يُمحَى من ذاكرة القوارير، انقشوا ما شئتم فإنّكم فيهنّ مُلاقوه، وقليل منهنّ مُحسنات على نقائصِكم، أمّا نقائصهنّ فهُنّ ما نقصن في دينهنّ إلّا رحمة من الله بهنّ، وما نقصنَ في العقل إلّا رحمةً من الله بكم، هبْ أنّ النساء كمُلنَ عقلًا هل لأحدكم على إحداهنّ بعدئذٍ قوامة؟! يا رجالهنّ، إنّ النّون ما نقصن في الخِلقة إلّا لتكملوا أنْتم في الخُلُق،

احْفظوا درجتكم عليهنّ بفهمِ ما عليكم تجدون ما لكم ضعفًا، وتزيدُ حاملة العشق بما في خاطرها من جميلَ عِشرتك.

وقد زادته «أشجان» عشقًا بعشق، و«مؤمن» كلّما أراد استزاد؛ فلا هو يرى فعله كثيرًا ولا هي ترى هداياها إلّا قليلًا.

– «أشجان»، ما رأيكِ في رحلةٍ سياحية مصرية طويلة، نرى فيها كلّ شبرٍ جهلناه عن بلادنا الحبيبة مصر، أريد أنْ أجوبها معكِ شبرًا شبرًا.. ما رأيكِ لو أخذنا إجازة من عمليْنا، وبدأنا هذه الرّحلة سويًّا منذ غدٍ، هل لديكِ ما يمنع ذلك يا حبيبتي؟!

كادتْ «أشجان» تجيبه لوْلا ذلك الرّقم الغريب الذي ظهر على شاشة هاتفها النقال مع رنة هاتفها المميّزة، نهضت من جلستها على الأريكة إلى جوار زوجها، واتّخذت بضعة خطواتٍ باتجاه أقرب مقعدٍ من النّافذة على يسارها وجلست فوقه وهي تشير لـ«مؤمن» بإشارةٍ بعينها تعني لحظة حتّى تجيب على هذا الاتّصال، قامت «أشجان» بسحب أصبعها على الدّائرة الخضراء بجانب شاشةِ الهاتف وقالت وهي تغلّف صوتها بنبرةٍ متزنةٍ وقورة:

– السّلام عليكم، الدكتورة «أشجان عبد الرحمن» مع حضرتك، هل يمكنني أنْ أخدمك بشيء؟!

أتاها عبرَ الأثير صوتُ فتاةٍ دون العشرين على ما يبدو من نبرة صوتها حين التقطت طرفَ الحديث فأخذت تتحدّث بلباقة:

– أهلًا وسهلًا يا دكتورة «أشجان»، مع حضرتك «صفية»، أعمل ممرضة بمستشفى شبرا العام، هل تسمحين لي ببعض وقتك؟!

توجّست «أشجان» ريبةً كعادتها مع كلّ اتّصال غريب حتّى تتيقّن من حقيقة المتصل فبدت مشتّتة قليلًا وهي تجيب:

- أنا معكِ تفضّلي.

تهلّلت أسارير الفتاة قبل أن تزدرد ريقها قائلة:

- منذُ ما يقرب الشّهر أقلّت إحدى سيارات الإسعاف إلى هذا المشفى امرأةً مصابة بعدّة حروق، والكثير من الكدمات المتفرّقة، وكان معها بسيارة الإسعاف نفسها رضيعة مُصابة بعدّة رضوض وخدوش سطحية، جرّاء حادث سيارة مروع كما وصفه أحدُ عمّال سيارة الإسعاف التي نقلتهما إلى المستشفى حيث أتمّرّن بها، لكنّ الطّبيب الذي تابع العجوز كان ضمن تشخيصه لحالتها أنّها مصابة بفقدان للذاكرة، لم نجد معها ما يدلّ على هويتها، كلّ ما وجدناه بضعة أوراق وبعض الصور وبطاقة هوية ليست تخصّ العجوز، من ضمن تلك الأغراض التي كانت معها، تلك البطاقة التّعريفية المدوّن عليها اسم حضرتك وعنوانك وأرقام هواتفك، أنا الآن يا أستاذة- وبصفةٍ إنسانية- أتبع أيّ خيط يوصلني إلى أيّ شيء يخصّ هذه المرأة، قبل أن تودعها المستشفى بإحدى دور المسنّين، وهذا هو السائد في مثل حالتها، المشكلة ليست في العجوز، المشكلة في الفتاة التي دخلت معها بنفس سيارة الإسعاف وأظنها حفيدتها من شدّة الشبه بينهما، سيكون مصير هذه الرّضيعة إيداعها هي الأخرى بأحد ملاجئ الأطفال القريبة، خاصّة وأنّ كلتاهما بلا رقم قوميّ، بالتأكيد تعرفين شيئًا عن أمرِ هذه المرأة والفتاة معها.. أليس كذلك؟!

– كلّا لا أعرف عنهما شيئًا، أما عن بطاقتي التعريفية فأنا محامية وبالتأكيد بطاقتي مع الجميع ربّما ترافعت لها عن قضيّة ما، أو رشّحني إليها أحد زبائني.. ربما.. لا أدري.

– أستاذة «أشجان»، لماذا تنكرين هكذا رغم أنّ حضرتك لم تهتمّي حتّى أن تعرفي ما اسمُ المرأة على بطاقة الهويّة التي وجدناها مع العجوز! ألا تلاحظين ذلك؟!

تلعثمت «أشجان» أمام جرأة الفتاة في طرْح مثله سؤال، وابتلعت ريقَها بصعوبة في محاولةٍ منها أن تجد لنفسها ردًّا مناسَبًا على هذا السّؤال الجريء دون جدوى، فما كان منها إلّا أنِ اعتذرت من الفتاة صاحبةِ السؤال بحجّة أنّها لا تملك من الوقت الآن ما يمكن أن تنفقه في الشّرح والتبرير، ثمّ قامت بإعطائها وعدًا بأنّها ستعاود الاتّصال بها في أقرب فرصةٍ لأنّ الوقت الآن غير مناسبٍ للحديث، ثمّ أغلقت الهاتف فوْر إنهاء جملتها الأخيرة دون أن تعطي للفتاة أيّة فرصة للرد.

هبّت «أشجان» واقفةً من فوق مقعدها وهي تلهث بشدّة، وكأنّها مطاردة من وحش ما، بينما تحتضنُ هاتفها المحمول بكلتا يديها إلى خافقها وقد تقوّست في وقفتها وهي تطأطئ رأسها إلى الأرض في شرود، قطّب «مؤمن» حاجبيْه وهو يتابع انفعالات زوجه المتتابعة التي بدأت بتغيير ملمحِها، ثمّ نبرة صوتها حتّى بدا انفعالُها مسيطرًا على جسدها كلّه في ثلاث دقائق فقط، ما أنْ أنهت «أشجان» مع الطرف الآخر هذه المكالمة، حتّى اقترب «مؤمن» منها بينما يحيط أكتافها من الخلف مطمئنًّا لها قبل أن يتساءل بقلق:

– حبيبتي، هل أنتِ بخير؟! مَن هذا المتّصل يا ترى؟!

انتفضتْ «أشجان» عندما شعرت بذراعي زوجها وهُمَا يضمّان كتفَها إلى صدره، قبل أن تستدير بهدوء وتضعَ رأسها على كتف «مؤمن» وهي تقول:

– هل تذكر تلك المرأة التي سبقَ وجاءت إلى مكتبي منذ ما يقارب الشّهرين، لقد أخبرتك بأمرها حينذاك؟!

– أيّة امرأة تقصدين يا «أشجان»؟!

– صاحبة الرسالة من ابنتها التي وافتْها المنيّة، وأرسلت لي برسالة توصيني فيها بوالدتها ورضيعتها التي وضعتها دون شهادة ميلاد.. ألا تذكر تلك الرسالة يا «مؤمن» لقد قرأتها بنفسك؟!

اشتدّت ضمّته لها وهو يضع كفّه على مؤخّرة رأسها محاولًا طمأنتها رغم ما سرى بأوصاله من قلقٍ جاهدَ ألّا يتسلّل إلى أذني زوجته عبر صوته فتنحنح قبل أن يقول:

– نعم.. نعم تذكّرت، كان اسمُ العجوز «إنصاف» على ما أظنّ.. ما لها تلك المرأة؟ وما قصتها وتلك الفتاة يا «أشجان»؟!

قلّصت «أشجان» جسدَها من بين ذراعي زوجها وهي تنظرُ إلى عينيه بشرود، بينما الكلماتُ تخرج من منطقة اللاوعي بعقلها عبر شفتيْها:

– لستُ أدري يا «مؤمن» لكنّي شممت رائحة الماضي في تلك المرأة منذ رأيتها بمكتبي ذلك اليوم، وها أنا الآن أعاودُ استنشاق نفس الرائحة، وإحدى الفتيات تحدّثني عن عجوزٍ فقدت ذاكرتها جرّاء حادثٍ ما، وكان ضمن أغراضها بطاقتي التّعريفية، العجيب أنّها هي بصورتها التي رأيتها عليها في مكتبي التي وقرت في نفسي من دون حتّى أن تذكر لي المتّصلة ما اسمها أو اسم الفتاة التي معها!

حكّ «مؤمن» جبينه بيُسراه في حيرةٍ واضحة وهو يحاول أن يستنبط من حديث زوجته ما تريد أن تشير إليه دونَ إفصاح، لو أنّها ترمي بالإشارة إلى ربط تلك العجوز بذلك الماضي الذي عاشته قبل أن تلقاه وتتزوّج به؛ فالحديث مع «أشجان» عن هذا الأمر سيصبح حسّاسًا للغاية حتّى أنّه سوف يقف عاجزًا أمامها لا يجد ما يجاري حديثها به وقد سبق وطلبت منه قديمًا من قبل أن تُسرّه بما بها، ثمّ طالبته أن ينسى كلّ شيء ستقصّه عليه فور انتهائها من سرد الحكاية.

«مؤمن» يتذكّر جيدًا ما قالته له زوجته «أشجان» قبل أن تصبح زوجته وهي تضع لحياتها القديمة به نقطةَ نهاية لكلّ ما كان قبله:

– كلّا يا «مؤمن» لن يمكنني فعلُ ما تطلبه منّي أبدًا، ليس وقتي فقط هو الذي سأضيّعه في تغيير صورتي عند مَن أساءوا الظنّ بي، بل هو عمري أيضًا، أنت تتحدث هكذا عنهم لأنّك لا تعرف، لن يكفِهم إلّا عمري كلّه صدّقني، ووقتي وعمري لهما أثمن عندي من وقتهم الذي أضاعوه في خلْق تلك الصّورة لي، والذي يضيعوه في محاولة إثباتها الآن وكلّ آن؛ أنا ترفّعت عن كلّ جدال معهم قد يخرج أسوأ ما فيّ ليشار به إليّ منهم، وسِرْت كأنّي صمّاء لا أستمع إليهم إن مرّوا بجواري بنقصان إيمانهم بي وبأنفسهم، وأطرفت وكأنّي كفيفةٌ عندما يجتهدوا أنْ أرى منهم ما قد يبكي طرفي، واحتسبت بعد ذلك أمري كلّه عند مَن يسمع ويرى ويطّلع على ما هو أكبر ومخفيّ في الصدور، ارتقيت وسكنت السّماء التي سكنها أبي بعظيم إيمانه بذاته وبي، وخلوّ قلبه من الدنيا وما فيها، وتركتهم ينظرون إليّ من الأسفل وأنا كبيرة بالذي آمنت به وكلّ ما هو دوني دوني.

****

ما قُوِّست النفس إلّا بوتر الاستقامة، وما شُدَّ ذلك الوتر إلّا بين مضغتك الخفية وعلانيتك الجليّة، فلا يُعجبنّك مَن يرسم مِن نفسه صراطًا وهو يُنَظِّر بظاهره عليك، فإنّ الذي خَلَقَ أعلم بمن خَلَقْ، وما كانت الغواية إلّا وقودًا لمجاهدي أنفسهم، مهمّتك أن يظلّ قلبك بالنقاء معلّقًا مهْما ظهر الدّنس في ردائك، ومهْما كثُرَ حولك المسرفون.

كانت المقهى تعجّ بالمسامرين داخلها وخارجها، بينما ينبعث من داخل التلفاز المعلّق بإحدى زواياها بحيث يتيحُ للجميع رؤية شاشته بوضوحٍ صوتًا جَهْوريًّا لأحد الشيوخ وهو يرهّب من عذاب الله لعباده في صورِ عصيانهم لأوامر الله ونواهيه المختلفة، لنصف ساعة أو أكثر قليلًا ظلّ الشيخ يتنقّل في حديثه بين عقوبات شتّى لأوامر لم تؤخَذ، ونواهٍ لم تترك، وعبادات لا يأخذها العبادُ على محمل الجدّ، فما كان من الجلوس إلّا أن أجمعت وجوههم على التعبير نفسه.. الامتعاض والنفور.

في أقصى زوايا المقهى كان يجلس رجلٌ كثّ الشارب يرتدي بدلةً رمادية أسفل بالطو أسود اللّون، على المنضدة أمامه كوبٌ من الشّاي فارغ، وقرب قدمه اليمنى استقرّت إحدى نرجيلات المقهى المميّزة باللّون البرتقالي القاني، والتي أخذ ينفث دخانها وهو يراقب الجميع بعينٍ ثاقبة، قبل أن يشير بيسراه إلى التلفاز، بينما يتوجّه بحديثه إلى «حسين» وهو يصيح بصوتٍ أجشّ من كثرة السعال:

– إمّا أن تدير هذه القناة أو فلتغلق التّلفاز أفضل، نحن لا ينقصنا مثل هذا الحديث في نهاية يومنا الشّاق، وهلمّ بعد ذلك، وأبدل لي حجرَ نرجيلتي، ثمّ لتأتي لي بكوبٍ آخر من الشاي.

أثنى معظمُ الجالسين بالمقهى على كلمات الرّجل ذي الصوت الأجشّ، فصاحوا ببعض الكلمات المماثلة تأكيدًا لحديثه، فتداخلتْ أصواتهم من كثرتهم حتّى أنّ الساكت منهم قد استقبلَ حديثهم كالهمهمة على ارتفاع الأصوات.

استجاب «حسين» إلى طلب الرجل الذي أيّده الجميع إمّا بإشارةٍ صامتةٍ أو بكلماتٍ مماثلة، فأدارَ القناة إلى إحدى القنوات الغنائية فبدأت الرّؤوس في الترنّح والوجوه في الابتسام، وانسجمَ البعض مع صوت المطربة «أمّ كلثوم» حتّى ردّد قلّة معها الكلمات في تجلٍّ، هنا قام الرجل في زاوية المقهى بمدّ قدميه باسترخاء وهو يغمض عينيْه مستمتعًا بتلك النكهة للجراك المحترق فوق حجر نرجيلته.

استدارَ «حسين» بعدما قام بتقديم أحد الطّلبات لأحد الزبائن الجالسين أمام المقهى، وفي استدارته لمحَ فتاة وهي تقف على مسافةٍ من ذلك العقار المحترق، كانت الفتاة تتأمله بينما تُخرج من حقيبتها شيئًا ما، فهُرِع إليها «حسين» قبل أن يسبقه إليها أحد غيره وهو يسألها باهتمام:

– هل أساعدك في شيء؟! أنا «حسين» أعمل بهذا المقهى تحت أمر حضرتك.

ابتسمت الفتاة بامتنانٍ وهي تسأله:

– اسمي «صفية»، أعمل ممرّضة تحت التمرين بأحد المشافي الحكومية، هل تعرف امرأةً تدعى «إنصاف»؟! هي من سكّان هذا الحي كما هو مثبَتٌ في بطاقتها الشخصية هذه.

قالتها الفتاة وهي تناوله بطاقة الهوية الخاصّة بـ«إنصاف»، ثمّ أخذت تدير رأسها إلى العقار المحترق من جديد وهي تستطرد في عجب:

- أظنّ هذا هو العقار المدوّن في خانة العنوان بالبطاقة، لكن يبدو أنّ ما حدث هنا لم يكنْ بالأمر الهيِّن، ويبدو- أيضًا- أنّه ما تسبّب فيما حدث لتلك المرأة التي جئت من أجلها وحفيدتها، و..

- تقصدين الخالة «إنصاف»؟!

قاطعها «حسين» وهو يتمعّن في وجهها منتظرًا الإجابة، هزّت «صفية» رأسها بالرفض وهي تلتقط من بين يديه بطاقة الهويّة الخاصّة بـ«إنصاف» قائلة:

- كلّا، بل الأمر يخصّ امرأة مجهولة وحفيدتها، يبدو أنّه حادث ما قد وقع لتلك العجوز، عندما أحضرتهما سيارة الإسعاف إلى المشفى الذي أتمرّن به كانت حالة العجوز سيئة كثيرًا، هي الآن بخير، والفتاة كذلك، لكن عندما فتشنا أغراضها التي كانت معها لم نجد معها إلّا بضعة صور، وهذه الهوية للمدعوّة «إنصاف»، وإحدى البطاقات التّعريفية لإحدى المحاميات، وشهادة ميلاد لامرأةٍ تدعى «عزة» وبضعة أوراق أخرى باسم الأخيرة.

- هل معكِ هاتف محمول يا «صفية»؟!

- نعم معي، هل ستفيدني بشيء أم ماذا؟!

بدا على الفتاةِ بعض القلق عندما سألها «حسين» عن هاتفها المحمول، فأخذت تتلفت يمينًا ويسارًا، وكأنّها تستحثّه على الإسراع في إظهار نيّته، استقرأ «حسين» ما بدا على ملامح الفتاة فقال وهو يتلفّت هو الآخر ليرى هل هناك مَن يراقبهما أم لا قبل أن يقول لها:

– مِن فضلك اكتبي رقمَ هاتفي بسرعة، وقومي بإجراء اتّصال الآن حتّى يمكنني تدوين رقمك، وبعد أن أنْتهي من عملي سأخبرك بكلّ شيء.

ثمّ أولى ظهرَه إلى العقار المحترق وهو يشير لها إلى الجهة الأخرى من الحيّ مستطردًا:

– هذه الإشارة لإبعاد الأنظار عنّا ليس إلّا، فالآن سيسألني مالك المقهى عنكِ، وماذا كنتِ تريدين، هل ترينَ العقار هناك به في الدور الأرضي عجوزٌ تقوم بحياكة الملابس، تستطيعين المرورَ عليها بأيّة حجة قبل أن تغادري الحيّ، وكأنّكِ كنتِ تسأليني عنها، وأنا دللتك على العنوان.

لم يعطِها «حسين» فرصةً للحديث وهو يضع يدَه التي كان يشير بها على صدره وكأنّه يردّ على شكرها له:

– الخالة «إنصاف» تجلس في غرفتي الآن تتضرّع إلى الله وهي تنتظر من يأتيها بأختها، وها هو الرّحمن يستجيبُ لها، فقط اتّصلي بي وسأتفق معكِ أين ومتى تلتقين بها.

أنهى «حسين» جُملته معها، وعاد مسرعًا إلى المقهى من جديد وهو يصيح صيحة عمال المقاهي الشهيرة أنّه قادم، فأشار إليه الرّجل ذو الصوت الأجشّ لكن هذه المرة من خارج المقهى وهو يراقب سيْر الفتاة نفسها، التي اتّجهت بالفعل إلى ذلك العقار وقصدت بالفعل تلك الخياطة دون أن تدرك ما الذي تفعله أو لماذا!، فذهب إليه «حسين» في التوّ وهو مستعدٌّ لكافّة الأسئلة التي كان مبتدأها من هذه؟! وخبرها، وماذا كانت تريد؟!

أجابه «حسين» بثباتٍ حتّى أمره بالانصراف، ثمّ أعاد صاحبُ المقهى على «حسين» نفس الأسئلة فأجابه حسين نفسَ الإجابات وهو يدّعي اللا مبالاة، وهكذا فعل مع كلّ جالسٍ داخل المقْهى أو خارجه، وهُم يسألونه مَن الفتاة ذات الوجه غير المألوفٍ عن الحيّ الذي يعرف أصحابه كلّ وجهٍ فيه جيدًا، ويرتابون أمام كلّ وافدٍ حتّى لو كان يحمل وجهًا ملائكيًّا كالتي كانت تحادث «حسين» منذ قليل.

****

صفّقت «أشجان» بكفّيها في إعجاب، بينما تعتدلُ في جلستها على مقعدها الدّوار خلف مكتبها وهي تطالع وجهَ «مريم» الجالسة على أحدِ المقعدين بالجهة الأخرى من المكتب بعدما انتهت الأخيرةُ من قراءة مسوّدة القضية التي أوكلتها إليها «أشجان» بالأمس.

كان حضورُ «مريم» العقليّ بالأمس على اضطراب مشاعرها مدْعاة لعجبها ودهشتها؛ حين انتبهت بعد عودتها إلى الفيلا وصعودها إلى غرفة نومِها إلى ذلك الملفّ بين يديها، ثمّ تذكّرت أنّ سكرتيرة مكتب «أشجان» قد أوقفتها بالأمس أثناء خروجها مندفعة من داخل مكتب «أشجان» قاصدةً بابَ الخروج الرئيسي لمكتب الأخيرة، فلمّا التفتت إليها وجدتها تمدّ يدها بذلك الملفّ الذي طلبت منها «أشجان» إعداده لها بعد تقديم الأخيرة لـ«مريم» كشريكةٍ لها.

لتعود إلى فيلتها بوردةٍ حمراء وملفٍّ قضية، وقرار ينتظرها إمّا أن تلقي بهما إلى سلة المهْملات التي تجاورها الآن، أو تقوم بغرس الوردة بوسط تلك

الباقة من الورود من مجهولها وهي تتأمّل الباقة من جديد في حضرةِ تلك الوردة، وكأنّ الباقة كانت تنقصها وبها اكتملت!

– ما هذه الخيالات التي تحْيين بها يا «مريم»؟! من المؤكّد أنّ هذه الورود تأتيكِ بالخطأ، ربّما هي لـ«مريم» أخرى، وكلّ شيء ليس إلّا لبسًا بعد، ربّما هو مجنون ما أصابه الهوس بإحداهنّ وقد رأى فيكِ منها شبهًا ولو في الاسم.

شعرتْ «مريم» بالإرهاق من كثرةِ التفكير فأشاحت بوجهها عن باقة الورد، واتّجهت بملف القضية التي مازالت تحمله بين يديها إلى ركن القراءة، لتجلس في ملل، وقد فتحته وأخذت تقرأ أولى أوراقِه بعينين ذابلتين من أثر البكاء، لم تظنّ «مريم» وهي تطوي ورقتي المحضر اللّتيْن كانتا بصدر الملفّ أنّها ستقبل على بقية التحقيقات داخله بهذا الشغف، حتّى أنّها لم تتركه إلّا بعد أن أنهت مسوّدة المرافعة التي سبق وطلبتها منها «أشجان»، والتي استقبلت الأخيرة قراءة «مريم» لتلك المسوّدة بالتصفيق منذ قليل.

– ثمّ تقولين لي إنّكِ غيرُ مستعدّة لممارسة مهنة المحاماة! ربّما صدقتِ فهذه مسودة وكيل نيابة متواطئ مع المتّهم إلى حدّ أنّه قد دسّ له البراءة في التحقيق معه، غير أنّكِ قد دسست براءة المتّهم في هذه المسوّدة العبقرية، حقيقي أرفع لكِ القبعة يا شريكتي.

ابتسمت «مريم» لكلمات صديقتها المجاملة وهي تقول لها في استجداء:

– أرجوكِ لا تمنحيني كلمات إطرائك هنا يا «أشجان»، فهذا موضع لا تجوز فيه المجاملة، هذا عمل ومسئولية، وليس أيّ عمل أو أيّة مسئولية؛ إنّها أمانات على هيئة رقاب وحقوق بشرٍ لا ذنب لهم فيها بيننا كصديقتين.

– هل تظنّين أنّني قد آتي مثل هذا الفعل؟! من المستحيل أن أجامل في عملي، ثِقي من ذلك تمامًا يا شريكتي.

قالتها «أشجان» وهي تدسّ يدها إلى أوّل أدراج مكتبها ملتقطةً ملفًّا ما به نسختان لعقد ما، بينما تلتقط من دواية أقلامها فوق المكتب قلماً، قبل أن تضع توقيعها فوق نسختي العقد، ثمّ مدّت يدها بإحداها إلى «مريم» وأدارت الأخرى وهي تشير إليها قائلة بابتسامة عريضة:

– هل لي بتوقيع حضرتك يا أستاذة هنا لو سمحتِ؟!

– توقيعي! توقيعي على ماذا يا «أشجان»؟

– هذا عقدُ شراكة باسمينْا يا صديقتي، منذ هذه اللحظة أصبح لكِ في هذا المكتب كلّ حقوقي، وعليك كلّ واجباتي كذلك.

همّت «مريم» أن تتفوّه بشيء ما وقد اكتستْ ملامحها بمزيج بين الفرحة والاندهاش بذات الوقت، لكنّ «أشجان» أشارت لها أن صبراً حتّى تنتهي، واستطردت دون توقف:

– وعليه فدعيني أخبرك أنّني في أجازة طويلة من الآن، وأنْ أوكل المكتب إليكِ مدة أجازتي حتّى أعود، لا تقلقي؛ المكتب لا يزال جديدًا، والإقبال عليه لا يزال ضعيفًا، سأتابع كلّ شيء معكِ عن طريق الهاتف ووسائل التواصل الاجتماعية بيننا، وبإذن الله سيؤتي الله الخيرَ على يديكِ.

لم تستطعْ «مريم» أن تتفوّه بكلمةٍ واحدة من فرط انفعالها، كلّ ما استطاعته بعد أن وضعت توقيعها على نسخة العقد الخاصة بـ«أشجان»؛ أنّها قامت واحتضنت صديقتها بامتنانٍ على هذه الثقة التي منحتها إياها.

كم تفتقدُ «مريم» إلى هذه اللغة الدافئة من الصمت (لغة العناق)، لم يفهم أحدٌ من الذين يُحيطون بها سواء حين كانت طفلةً أو فتاةً، أو بعد أن صارت امرأة كذلك؛ أنّها تفتقد الانتماء لفقْدها الأمان في حضرتهم، كلّ المحيطين بها لم يستطيعوا جعلها تتخطى حاجز غربتهم، وترتمي في أحضانهم، غير أنّها الآن على كلّ ما تحمله في دواخلها من انكسارات منهم قد ارتمتْ في أحضان «أشجان»، ونسيت ما بني داخلها من حواجز بأيدي الأقربين، لكمْ عانت «مريم» من حمل الحزن الذي طال بحشاها من غير مخاض، وكم أيقنت عند مخاضها على وحدتها؛ أنْ لا منجى ولا نجوى ولا راح إلّا أن تقبض الكف على نظيرتها، وتستقبل الأجفان الوجل، وأن لا تنتظم الأنفاس، إلّا أنّها كلما وضعت ذواتها بعد خذلٍ وجدت كلّ الوجوهِ في الجوار غريبة، حتّى توائمها الناظرات إليها من مراياها كنّ غريبات.. وما أكثرها في المرايا حين لا تجد حولها مَن تحادثه غيرها!

كيف تلاشت نسخُها التي استنسختها من ذاتها لذاتها؛ وسمحن لها أن ترتمي بسلام في أحضان «أشجان» من دونِ طولَ تفكير، وكأنّها لم توقّع على عقد شراكة مع صديقتها بل وقعت «مريم» على عهدِ سلامٍ مع نفسها فنهضت لتتعلّق في عنق صديقتها وكأنّها حياة!

لا شيء يوقف روحك عن الحياة، لكلّ منّا مقصلتُه التي تنهي اتصال الأرض به، ولكل منّا روحه التي يبقيها حيث يريد، متى استيقظتم من كبْوتكم فإن يقظتكم هي يقينكم الذي غفوتم عليه، فكونوا من الآن حيث تريدون لا حيث يُراد لكم.

****

مِن صور مشقّات الحياة الدنيا تكرار الأيام والصور، والرّكون إلى الثبات على ما يجب تغْييره لتنتعش الرّوح؛ ستصبح الأيام موتى مع تقدمك بالعمر على كلّ حال، لكن الأمر يصبح أسرعَ حين تستسلم للنمط الدائم، حين تستيقظ كلّ يوم على نفس نغمةِ هاتفك ونفس الكلمات ونفسِ الثياب، حين تستسلم لدوائر التّيه خاصّتك دون أن تحاول خرق المَدار بشيء من الاختلاف، أو بشيء من الجنون حتّى يتطلّع القلب لهدنة سلام.

ولأنّ الحياة حروبٌ فسلامٌ على تلك الكائنات الصّغيرة التي تصنع الفواصل بين معارك الحياة بنظرة، وضحكة، وبعض المشاكسة، أولئك الذين لا يقووا على حمل وردة فصاروا هُم ذاتهم الورودَ في أعينِ مَن نظر، فيحدث الفارق برؤيتهم، وتنتشي النفس باستنشاقهم، وتُقبل الرّوح على الحياة عند التطلّع إلى محياهم رغم كلّ شيء.

إذا كان هناك كلمة في معجم المعاني تعني إحلال المحبة وإتمام السلام؛ لأصبحت هذه الكلمة.. (طفل).. ولو طُلِب للسّعادة كلمة واحدة ترادفها، فهي حين يسأل عن نوع هذا الطفل.. فيقال: (أنثى)!

نجمتان هُما عينا «ديمة» حين يتلألآن لرؤية جدّتها «إنصاف» وهي تتحرك بالغرفة هنا وهناك، تجاوزت الصّغيرة الشهرين ببضعة أيام، وصارت تفطن إلى تفاصيل جدتها؛ كأن تتعرّف عليها من رائحتها، تلتفت لصوتها، كما أنّها صارت تنتبه إلى اسمها كذلك، فكلما نادتها جدّتها أو «حسين» التفتت إلى المنادي، ولا تلبث حين تبصره أن تبتسم.

«ديمة» هي سرّ جدّتها العظيم الذي لا تستطيع أن تبوح به لأحد، فممّا لا يُغتفر من جرائم النّفس ضدّ النفس أنْ نبوح بكلّ ما فينا لعزيزٍ له عزيز، فيكون ما فينا ليس بـ سرّ، وكثيرٌ منّا لا يصلح لأحاديث النّاس، وكثيرٌ ممّا فينا أرقى من أسمار العتبات، فإنّ طُهرًا في نفس يظلّ طُهرًا حتّى يُغمَس في دنَسِ نفوسٍ بعد أن يُلقَى فيها من ألسنةٍ جوف أَصحابها لم يتسع لنا كـ سِرّ.

ما ذنبُ هذا الملاك في قيلَ وقال النّاس الذي سيموت مؤرّخوه ويبقى مرددوه كالببغاوات ينقلونه من جيلٍ إلى جيل؟!

عدّة طرقاتٍ على باب الحجرة أعادتْ «إنصاف» من شرودها الذي صار يلازمها منذ رحلتِ ابنتُها، واحترقت شقتُها، وتركت الحيّ الذي تقطن به، ثمّ فقْدُ جارتها الذي هو شاغلها الشاغل الآن، ما أقسى أيام «إنصاف»! وكمْ هو جميل أنّه هنا «حسين»! الذي تعرّفت عليه من طريقته في طرق الباب الآن، فنهضتْ تستقبله وهي تسأله أسئلتها المعتادة:

– هل من جديد يا بنيّ؟! ألا توجد أخبار عن «كارولين» بعد؟!

– منذ مدّة وأنتِ لا تسألين مَن الطارق يا أمّي، هل هي العِشرة التي تولّدت بيننا هي التي تجعلك اليوم تتعرّفين عليّ من مجرّد عدّة طرقاتٍ على الباب؟!

كان الحزنُ يكسو وجه «حسين» وهو يناول «إنصاف» بعض الأغراض، بينما يتأمّل ملامحَ العجوز بحنينٍ ليس بموْضعه، وكأنّ الشاب ينعي وحدته التي يشمّ ريحها وحده بصوتٍ مختنق، أو كأنّه يفتقدها هي وكأنّها على مشارف توديعه، والمضي قُدمًا في حياتها من دونه، يبدو أنّ «حسين» قد نسي

حقيقة أنّها ليست أمّه، وأنّ وجودها معه مؤقت، وكأنّ «إنصاف» قوسُ قزح النّادر الظهور، والنادر المكوث كذلك!

- ماذا بك يا ولدي؟! هل هناك ما ضايقك في عملك؟!

كانت «إنصاف» تربّت على كتف «حسين» بحنوّ أم؛ وليس بشفقة امرأة ترد جميلًا في عنقها إلى صاحبه.

قبّل «حسين» كتفه موضعَ تربيت «إنصاف» عليه بعينٍ دامعة وهو يتمنّى لو يستطيع تقبيل كفّها مرّة:

- أنا بخير يا أمّي، أخبريني أنتِ هل ينقصك و«ديمة» شيء؟!

- حفظك الله يا ولدي، وما الذي سينقصنا ونحن لنا الله ثمّ أنت، أسأل الله أن يعطيك حتّى يرضيك، وأن يرزقك من حيث لا تدري ولا تحتسب، وأن يرضيك الله برزقك حيث كان.

لم يستطعْ «حسين» منعَ دموعه من الجريان على خديه وهو يتلقّى بأذنيه منها مثله دعاء؛ فأخذ يشيح بوجهه يمينًا ويسارًا وهو يحاول تجفيفها حتّى لا تلاحظها العجوز فتتملكها الرّيبة أو تسيطر على رأسها الظنون، ما الذي يمكن أن يقوله لها وهو الذي يبحث عن جارتها «كارولين» منذُ شهرين حتّى يريحها دون جدوى، هل يخبرها أنّ هناك فتاة تنتظر منه الآن اتّصالًا حتّى يذهب و«إنصاف» إليها فتأخذهما إلى «كارولين»؟!

وماذا بعد أن تجدها؟! هل ستعودان إلى الحيّ صحبة، وتحتميان بأهله ممّن أحرقوا لهما سكنهما؟! أم أنّهما ستذهبان معها إلى مكان ما بعيد فيعيشا معًا وتتركه و«ديمة» للوحدة من جديد؟!

التفتَ إلى الصغيرة فوجدها تنظر إليه وهي تبتسم، مازال دمعه ينساب، ومازال يحاول أن يخفيه حتّى عن «ديمة» التي تعلّق بها كما لو كانت ابنتَه بالفعل، اقترب «حسين» منها وأخذ يتفقّد موضع التّطعيم في فخذها الأيمن وكتفها كذلك وهو يبتسم بحنوّ، كيف يمكنه العيش بدونها؟! كيف ينساها وهو الذي حملها إلى تلك العيادة الخاصّة بضع مرات وطلب من الطّبيبة أن تعطيها تطعيماتها مهْما كان المقابل؛ لأنّ الصغيرة التي ليس لها رقمٌ قوميّ؛ قد رفضت وزارة الصحة أن تمنحها أيّة تطعيمات إلّا إذا كانت مسجّلة بأحد الملاجئ لعديمي الأنساب!

- ستكبرين يا «ديمة»، وستنسين أنّ هناك أنا.. «حسين».. «حسين» اليتيم الذي ذاق مرّ العيش داخل الملاجئ، وأنّني قد رفضت أنْ تتجرّعين فيها ليلة واحدة ولو من أجل حقّك في دولتك التي بلا عدل أو عدالة، ستكبرين يا صغيرتنا، وأرجو من الله أن لا تنسي أنّ فاقد الشيء هو أكثر مَن يعطيه إذا كان فيه من الإنسانية ما فيه..

ستكبرين مشوّهةً بلا نسبٍ وبلا أرض، فاعلمي أنّ الأوطان نحن، ونحن الأوطان..

فإنْ رأيتِ الأوطان سجنًا فنحن مَن بنيناه، وإنْ رأيته خذلانًا فنحن من صنعناه، وإن رأيته مجدًا فنحن من كتبناه وقرأناه ورتّلناه على آذان العالم.

وأرجوكِ لا تنسي أبدًا أنّ الأوطان هي الدّين وليست الأرض؛ فإنْ أعْلَينا ديننا علت بنا أوطاننا، الأوطان يا «ديمة» ليست أسوارًا وسدودًا وحجارةً وموانع تردّ عباد الله عن أراضي الله.

الأوطان أنا وأنتِ كلّ على حدة..

سيري يا نقيّة بوطنيتك من أرضٍ إلى أرض، وكلّ أرض الله لكِ وطن، واعلمي أنه ما حادَ بينك وبين العلنِ إلّا فساد مُضغتنا لو نفْقه، ليس عليكِ من حرج، إنّما الحرج على مَن أنكركِ وظنّ أنّ نكرانه لكِ سينزع إيماننا بكِ.. أي «ديمة» أنا أؤمن بكِ جدًّا فلا تخافي ولا تحزني واكْبري ولا تنسي أبدًا أن تختالي بما لكِ.. أنتِ حقيقة، وكلّ حقيقة ستعلن مهْما عليها طال الأمد.

انتبَه «حسين» إلى رائحة الطعام الشهيّ التي تنبعث من الأطباق خلفه قبل أن تطالبه «إنصاف» بغسل يديه وهي تدعوه لتناول الطعام، فعاد الشابّ من جديد إلى واقعه حزينًا، ونفس السؤال يدور برأسه لكنْ هذه المرّة بصيغةٍ أخرى.

إذا اتصلت بتلك الفتاة الآن، وأخذتنا بالفعل إلى جارتك «كارولين»، ثمّ أنتِ قد قررتِ أن لا تعودي؛ كيف أستطيع أنا تحمّل العيش من دونك أمّي، أنتِ والصغيرة «ديمة» صرتما كلّ حياتي فكيف أستطيع توديعكما بهذه البساطة.. كيف؟!

كلّا، لن أتّصل بتلك الفتاة وليحدث ما يحدث!

****

مازالت «أشجان» تتطلّع لمصابيحها "القدرية" وهي تتساءل عن أسرارها، مازالت توقن أنّ الأقدار لا تعبث، وأنّ لكلّ شيء- مهما كان مؤلمًا- حكمته، مازالت تنظر إلى السماء وهي تستخلصُ الحكمة بحسن ظنّ، ومازالت على يقين أنّها "يومًا" ستلامس "الوميض" الذي يرونه بعيدًا وتراه قريبًا.

– هل تعرف «كافكا» يا «مؤمن»؟!

– هل تقصدين «فرانز».. «فرانز كافكا» الكاتب التشيكي؟!

أومأت «أشجان» برأسها وهي تجيبه:

– نعم هو، عاش «كافكا» قبل وفاته بعام تجربةً فريدة جدًّا، كان «كافكا» يسير بحديقة شهيرة في برلين، فلفتتِ انتباهه طفلة كانت تبكي بُحرقة، والسبب أنّها فقدت دُميتها، عرضَ عليها «كافكا» أنْ يساعدها في البحث عنها، لكنّه لم يجد شيئًا، فاقترح على الفتاة أن ترجع لبيتها على أنْ يقابلها في اليوم التالي ليبحثوا عن دميتها من جديد.

لكنْ في بيته، قرّر «كافكا» أن يكتبَ رسالة على لسان الدمية متوجّهًا بحديثها إلى الطّفلة الثكلى، ثمّ يسلّمها لها في الموعد لأنّه كان واثقًا أنّ الدّمية لن تعود وأنّها ضاعت للأبد.

كان «مؤمن» يتعجّب شرودَ زوجته «أشجان» وهي تحكي له هذه الحكاية باستمتاع جليّ رغم شرودها:

– الرّسالة كانت كالتّالي: "صديقتي الغالية توقّفي عن البكاء أرجوكِ، إنّي قرّرت السّفر لرؤية العالم وتعلّم أشياء جديدة، سأُخبرك بالتّفصيل عن كلّ ما يحدث لي يوميًّا"..

وعندما قابلها «كافكا» في اليوم التّالي قرأ الرّسالة على الطفلة التي لم تتوقّف عن الابتسام، وبدت عليها الفرحة وسط دموعها.

لم تكنْ هذه الرّسالة هي الوحيدة التي كتبها «كافكا» إلى تلك الطفلة، كانت بداية لسلسلة لقاءات ورسائلَ بينهم، وكأنّ «كافكا» قد قرّر أن يكون

هو الرسول بين مجرّد فتاة ودميتها! لكنّ الحقيقة أنْ كان رسولًا للحبّ والسلام بين فتاة صغيرة وكلّ الكون.

اعتدلتْ «أشجان» في جلستها وهي مازالت تتطلّع إلى النجوم مستطردةً قصّ الحكاية على زوجها، والأخير يستمع إليها باهتمام:

كلّ يوم يكتب «كافكا» إلى الفتاة عن مغامرات دميتها وبطولاتها بأسلوب ممتع، جميل، وجذّاب، حتّى قرّر «فرانز» أن ينهي مغامرات الدمية، وهذا حتّم عليه أنْ يجعل الدّمية تعود، فقرّر أن يهدي للبنت دمية جديدة بالتأكيد كانت مختلفة تمامًا عن القديمة، فأحضر معها آخرَ رسائله إلى الفتاة على لسان الدّمية:

"الأسفار غيّرتني، لكن هذه أنا"..

كَبرت الفتاة، وبقيت محتفظةً بدمية «فرانز كافكا» إلى أنْ جاء يوم واكتشفت الفتاة رسالة أخيرة كانت مخبّأة في معصم دميتها؛ وقد كتب «كافكا» فيها أول رسائله إليها: "الأشياء التي نُحبّ معرّضة للفقدان دومًا، لكن الحبّ سيعود دومًا بشكل مختلف".

هنا استدارت «أشجان» بعينين حالمتيْن إلى زوجها الجالس قُبالتها تمامًا لا يفصل بينهما سوى منضدةٍ مستديرة وهي تتوجّه بسؤالها إليه:

– هل تدري كيف عادَ الحبّ لي بعد موت أبي يا «مؤمن»؟!

نهضَ «مؤمن» من فوق المقعد الذي كان يجلس عليه بالجهة المقابلة من الطاولة التي يجلسان عليها داخل حديقة الفندق الرّائعة وهُما يتناولان العشاء، ثمّ دار حول المنضدة الدّائرية من جهة اليمين، ومدّ يديه إلى كتفي

أشجان، وهو يجذبها لأعلى برفق حتّى أوقفها وأخذ يتأمّل عينيها بعمق قبل أن يترك كتفيها ويحتضن كفّيها بين كفّيه، ثمّ هو يرفعهما إلى وجهه وهو يهمس لها في أكفّها كأنهما أذناها، بينما يتناوب عليهما بالقُبل:

– كلّ ما أعرفه أنّي أحبّكِ أنتِ، وأنّ حبّي لكِ خالدٌ، ولن يموت يا «أشجان».

ثمّ احتضنها مردّدًا:

– رحمَ الله أباكِ يا حبيبتي.

وكلّ ما يُطعمُ ذا ضعف، وإنّ للرّوحِ نهمًا، وإنّ طعام الرّوح روحٌ لا حياة بفقدها، وإنّ فقدَ الروح للروح جوعٌ، وَعطشٌ، "فسقم"، وإنَّ وضع الحجر على موضع الخماص وشدّ الوثاق حوله صعبٌ جدًّا، وخماص الأرواح مهلك؛ فإن ملكت القوة أن توثق فوق لوعة الرّوح حجرًا فقد بلغت نصف البرء، وإن كلّ البرء في معرفة قدْرك عند مَن تحب.

****

الإناثُ أرُوضٌ، والذكورُ أمواه، أمّا القوامة في الرجال أنْ لا يمنعوا الريّ، وأن لا يطلبوا الأرزاق، مَن اهتمّ رُزِق، ومَن أهمل مُنِع، ومَن ثار بعد منعه أُلْقِم الأحجار التي من صنيعته.

بدتْ «مريم» غاضبةً جدًّا وهي تستقبل زوجها «هيثم» بمكتبها الذي صارت شريكةً فيه بين ليلةٍ وضحاها؛ الأمرُ الذي أزعج زوجها «منتصر» للغاية، فقرّر التعبير عن انزعاجه بأن يمرّ عليها بنفسه داخل المكتب، ويتوجّه بحديثه إليها وجهًا إلى وجه مِن داخله:

– هذا هو المكتب إذًا الذي صرتِ شريكةً فيه، لم أكنْ أعلم أنّكِ تطيرين من السعادة فرحةً بشيء؛ إلّا عندما قرأت تاريخ الشّراكة بينك وبين صديقتك منذ بضعة أيام على ذاك العقد، أنتِ لا ملام عليكِ إذ لم تستأذني قبل قبول عرضٍ كهذا، فهذا دأبك الذي عرفتك به، ولن يتغيّر فيكِ، أنا لومي على الدكتور «مؤمن» زوج صديقتك وصديقي؛ كيف أنّه لم يخبرني بنية زوجته معك.

مال «هيثم» بجسده قليلًا حتّى استندَ بذراعه على المكتب أمامه، واستطرد حديثه وهو يضغط على حروف كلّ كلمة بشكلٍ مقصودٍ تمامًا:

– أم أنّ الدكتور «مؤمن» لا يعلم أنكِ هنا الآن يا زوجتي المصون؟!

استشاطت «مريم» غضبًا وهي تستمع إلى كلماتِ زوجها «هيثم» تلك؛ لقد سئمت من أسلوبه هذا الذي يستخدمه كمعتادٍ عليه بحُكم وظيفته، هذه طريقته حتّى مع أقرب أصدقائه إليه، وكأنّه يحمل دلائلَ خفية قد تضرّ بها، أو بـ«مؤمن» الذي يذكره بطريقة هزليّة الآن.

تركته «مريم» يتحدّث وكأنّها لا تسمعه، حين نقلت طرفَها إلى المنضدة الصغيرة خلف رأسه، والتي توسّطتها باقة وردٍ رائعة يغلب على ألوانه هذه المرّة اللون البنفسجيّ وزهرة بيضاء وحيدة تتوسّطه، ما بال ذلك المجهول قد حاصرها بوروده في كلّ مكان، لقد صارت الباقة الصباحية من الورود باقتين وليست تلك الواحدة التي كان يرسلها كلّ صباح على عنوان الفيلا مع تلك الرّسالة القصيرة فقط، الآن ما تلبث «مريم» أن تصل إلى عملها هذا في الظّهيرة حتّى تطرق السكرتيرة باب مكتبها وهي تحمل بين يديها تلك الباقة المسائية من الورود وكأنّ راسلها يراها بأمّ عينيه!

مَن هو ذلك المجهول يا ترى؟ وماذا يريد منّي؟!

أنا لم أخبر أحدًا سوى «هيثم» بأمر هذه الشراكة، وبالتأكيد أنّ «أشجان» أخبرت «مؤمن» كذلك.

يا الله! من المستحيل أن ينشغل «هيثم» بها إلى درجة أنّه من الممكن أن يرسل الورود إليها بهذه الطريقة، وطوال كلّ هذه السنين! ثمّ مِن أين له بتلك الكلمات الصادقة على قلّتها التي يكتبها ذلك المجهول لها على تلك البطاقات؟! هل هو «مؤمن»؟! كيف، ومتى، وأين؟! وتلك المحبّة التي رأتها منه لزوجته «أشجان» هل هي كذب؟! مستحيل!

عادَ لونُ البنفسج يعود إلى مقلها من جديد، وعاد طيف «هيثم» معه، وإلى سمعها تسلل صوتُه من جديد وهو يمارس هوايته في التقليل منها، وإفقادها الثقة بنفسها.

ظلّت «مريم» على جلستها وناظراها يتنقّلان بين باقة الورد وبين «هيثم» الذي امتزجت صورتُه مع لون البنفسج في الورود خلفه، كما تداخلتْ ثرثرته مع حديث نفسها إليه فلم تعدْ تراه أو تسمعه وهي تناجي «مريم» بصوت هدر، لا لست تلك التّعسة التي ترسمها لي كلّما وجدت فيّ قوةً.. فالتعسةُ هي التي تظن أنّ الجدار البالي سيحميها، هي التي ركنت إلى حيث لا تنتمي ثمّ ادّعت الغربة، هي التي لم تعِ أنّها الوحيدة التي إن فُقدت عانت الوحدة، وهي التي لم تفقه مَن هي فعاشَت "تنتظر" حتّى تفضي في ظلّ حجر.

كلّما تسلّل إلى أذنيها صوتُه زايدت عليه بنجواها إلى ذاتها وكأنّها تصرخ له من دون صوت؛ صهٍ يا «هيثم»، وَدَعْني أعتذر لي في صورتك كما ينبغي:

- أنا آسفة يا «هيثم»، آسفة جدًّا.. لأنّك أردت القليل من الظّلّ وأنا شجرة عظيمة، فابتلعك ظلّي كـ ليلٍ دَهيم، قبل أن تصل إلى ثماري فتُطعم أو إلى جذعي فتَسكن أو إلى روائحي فتنام. آسفة؛ لأنّك أردتني زهرةً واحدة وأنا حديقة من أزهار اللافندر، وأنّ قلبي يحمل لونها، وأنّ البنفسج لا يليق بك. آسفة؛ لأنّك أردت سهمًا واحدًا من ناظريّ وأنا كنانة كلّ ما فيّ يُصيب. آسفة؛ لأنّك أردتني نجمة وأنا مجرّة لم يضيئني جوارك، ولم يطفئني غيابك، ولم يبتلعني سوادك. وآسفة جدًّا يا «هيثم»؛ لأنّي كثيرةٌ جدًّا عليك، لكنّي قبل الآن لم أكن أُقدّر حجمي جيدًا.

****

ثلاثُ ليالٍ مرّت، و«صفية» تتّصل برقم «حسين» الذي أملاه عليها دون أن يأتيها منه رد، لقد بدا الشابّ صادقًا وهو يحادثها وهو يعدها بأنّه سيعاود الاتّصال بها، لوهلة ظنّت الفتاة أنّ «حسين» سيستخدم رقمها للتّسلية معها، لكنّها ما ظنّت أبدًا أنّها هي التي ستتصل بهذا الإلحاح دون أن يجيب هو!

وتلك المحامية هي الأخرى لم تعاود الاتّصال بها كما أخبرتها منذ بضعة أيام، إنّ تلك العجوز المصابة بعدّة حروق في يديها وبفقدان في ذاكرتها ربما لن تقوى على حياة دور المسنّين المجانية التي سيلقونها بها غدًا أو بعد غد على الأكثر، العجيب هو أمرها مع تلك الرّضيعة التي دخلت معها إلى المشفى، إذ تتشبّث بها العجوز بقوّة وهي لا تتذكّر حتّى ما اسمها!

النّاظر إليهما يعرف مِن الشبه بينهما أنّ هذه الصّغيرة هي حفيدتها، الجميع في عجب من أمر العجوز التي لا تتذكّر شيئًا، ورغم ذلك تتشبّث بتلك الصغيرةً بشدة، وكأنها تعرّفت عليها بذاكرتها القلبية رغم كلّ نسيان!

لم يعدْ أمام «صفية» إلّا حلٌّ واحد؛ أن تذهب بنفسها إلى مكتب المحاماة الخاصّ بالأستاذة «أشجان»، بعد أنْ أغلقت الأخيرة هاتفها المحمول كما أنّها لم تعاود الاتصال بها كما أخبرتها، راجعت «صفية» مواعيد العمل بالمكتب وطالعت عنوانه؛ فوجدت أنّ كليهما مناسبان للذّهاب الآن، وإخماد ضميرها المؤرّق بتلك العجوز كحالةٍ إنسانية تستحق الرّحمة.

وصلت «صفية» أخيرًا إلى عنوان المكتب المدوّن على تلك البطاقة التعريفية به وبمالكته

«أشجان»، استقبلتها السكرتيرة التي تعمل به بروتينية، وهمّت أن تسألها بضعة أسئلة لكنّ «صفية» أوقفتها بإشارةٍ من يدها مستأذنةً إيّاها أن تعطيها فرصة أن تتحدّث وتخبرها ما تريده، أو ما جاءت الآن من أجله، حرّكت السكرتيرة رأسها وعينيها بمللٍ وهي تقول:

– تفضّلي.. تحت أمرك.

– أنا أريد مقابلة الأستاذة شخصيًّا من فضلك، الأمر شخصي.

رمقتها السّكرتيرة بنظرةِ ريبة، وكادت تعترض، لكنّها لم تجد قلقًا من إدخالها إلى الأستاذة «مريم»، ففي النهاية هذا مكتبُ محاماة مفتوحٌ للعامّة، ومن حقّ الجميع أخذ فرصتهم في الحديث مع الأستاذة شخصيًّا مهما كان محور هذا الحديث.

طرقتِ السكرتيرة بابَ مكتب «مريم» وانتظرت حتّى أذنت الأخيرة لها بالدخول، ومن ثمّ أخبرتها بأمر «صفية» التي تطلب مقابلتها بالخارج، فطلبت «مريم» منها إدخالها وهي تناولها أحد الملفّات من أمامها، ثمّ أملت

عليها بعضَ المهام قبل أن تعود إلى مكتبها من جديد، وهي تشير إلى «صفية» نحو باب المكتب قائلة:

– الأستاذة بانتظارك، تفضّلي.

دلفت «صفية» إلى مكتب «مريم» وهي تلقي التحية قبل أن تقف على بُعد خطوات من المكتب تنتظر من «مريم» أن تأذن لها بالجلوس، وقفت مريم خلف مكتبها وهي تمدّ يدها لـ «صفية» بابتسامة:

– اسمحي لي أن أقدّم لكِ نفسي، أنا «مريم عامر» شريكة الدكتورة «أشجان» بهذا المكتب، ما الذي يمكنني فعلُه لحضرتك؟! تحت أمرك، تفضّلي.

جلستْ «صفية» فوق أحدِ المقعدين المقابلين لمكتب «مريم» وهي تشعر بالكثير من الحرج عبّرت عنه بفرْك كفّيها بشكل مستمرّ وهي ساكتة لا تعرف مِن أين تبدأ حديثها أو ماذا تقول وهي ليس لديها ما تقوله بالأساس، حسمت «صفية» أمرها أمام نظرات «مريم» التي تحثّها بها على الحديث في ودّ، فباعدت بين كفّيها وشدّت ظهرها وهي تعتدل في جلستها قبل أن تعيدَ على «مريم» ما قد سبق وقالته لشريكتها «أشجان»، وكيف أنّ الأخيرة قد وعدتها بمعاودة الاتصال بها لكنّها لم تفعل.

كانت «مريم» تهزّ رأسها وهي تستمعُ إلى تلك الحكاية من «صفية» لا شيء مريب في القصّة حتّى تظنّ أنّ شريكتها قد تعمّدت معاودة الاتصال، فبطاقة «أشجان» التعريفية والمدوّن فوقها اسمها وعنوان مكتبها وأرقام الهواتف؛ من الممكن أن تصل بسهولة إلى أيّ أحد، ظلّت «مريم» تستمعُ

إلى ما تقصّه «صفية» عليها حتّى ذكرت اسم «عزة» فقطّبت «مريم» حاجبيها باهتمام وهي تردّد الاسم:

– «عزة»! عجوز! رضيعة!

صمتتْ «صفية» عندما فتحت «مريم» أحدَ أدراجها والتقطت منه ورقة مصوّرة، وجدتها «مريم» بين صور ملفّ القضية ذاك الذي سبق وأخذته معها إلى البيت، عندما قرأت «مريم» كلّ أوراق ذلك الملفّ لم تجد تلك الورقة إلّا دخيلة عليه، فعزلتها عنه، ووضعتها منفردةً في حقيبتها، ثمّ نسيتها حتّى مساء أمس وهي بمكتبها هذا، حين رنّ هاتفها المحمول ففتحت حقيبتها لتخرجه منها فوقعتْ عيناها عليها من جديد، فكّرت أن تتركها بمكتبها حتّى تعود «أشجان» وتتحدّث معها بأمرها، لكنْ ها هي «صفية» قد أتت لتفكّ أحد أحجيات هذه الرّسالة المبهمة أو تزيدها تعقيدًا.. .. «مريم» لم تعدْ تدري!

****

ركنت «أشجان» برأسها فوق كتفِ أبيها وهي تبكي إليه ثقلًا بروحها لا تدري مصدره، فأتاها صوتُه الحنون وهو يضع كفّه الأيمن على خدها الأيسر بلطف:

– أي ابنتي، إنّ اللهَ إذا كَلَّفَ أعان يا «أشجان».. ما أوجع اسمك!

ثمّ أخذ يخلّل لها شَعرها بأصابعه وهو يبتسم قائلًا:

– أنتِ اخترتِ هذا الاسم لنفسك أي بنيتي، وكأنّكِ لم يكفِك شجنٌ واحدُ وقد أجمعت على نفسك كلّ الـ«أشجان»؛ هوّني عليكِ يا سمرائي، وقولي لكلّ ما يلقيه القدر على أكتافكِ: "قَبِلْت"، وابتسمي.

- قَبِلْت.

فتحتْ «أشجان» عينيها ببطء عندما تسلّلت إلى أذنيها رنّة هاتفها المحمول فأيقظتها من حلمِها بأبيها، زفرت «أشجان» بحنق، والتقطت هاتفها وهي تفرُك عينيْها لتميّز هل المتّصلة بها سكرتيرتها أم أنّها «مريم»؟!

بصوتٍ جاهدت أن لا يبدو ناعسًا أجابت «أشجان» على «مريم»:

- «مريم» مساء الخير يا شريكتي.

- «أشجان» كيف حالك؟!

لم تنتظر «مريم» إجابة لسؤالها واستطردت مباشرةً:

- اسمعيني يا «أشجان»، لقد حدث أمرٌ ما وأريد أن أطلعك عليه.

قطّبت «أشجان» حاجبيها وهي تعتدل في سريرها، بينما أخذت «مريم» تقصّ عليها كلّ شيء بدءًا من تلك الرّسالة التي وجدت صورةً منها بالخطأ داخل ملفّ القضية ذاك، ونهايةً باستقبالها لـ«صفية» التي تجلس أمامها على أملٍ أن تجد لتلك العجوز طوق نجاة.

اختلطت كلمات «مريم» وهي تقصّ على «أشجان» ما تقصّه من أمرٍ ليس بجديد على مسامعها، بكلمات والدها الذي كان يزورها في نومها منذ قليل، وظلّت كلمتها التي استيقظت وهي تقولُها استجابة لأمر أبيها: "قولي قَبِلْت" تتردّد بإلحاح يغالب صوت «مريم» الذي يأتيها عبر الأثير فيختلط بكلمتها.. "قَبِلْت.. قَبِلْت.. قَبِلْت.

ظلّت الكلمة تتردّد بخاطرها وهي تستمع إلى صديقتها «مريم» حتّى انتهت، فسألت «أشجان» «مريم» وهي تشعر بضربات خافقها تكاد تشقّ صدرها:

- هل «صفية» لا تزال أمامكِ يا «مريم»؟!

- نعم.

- أعطها هاتفك من فضلك.

عَرضُ الطريق ليس المهلكة، وجانبُه ليس نجاة، عِشِ الحياة من حيث يقينك، تخلّص من ازْدواجيتك وفارق حيرة مفارقك إلى حيث يسير لك قدرك، وإنْ بدا للعيان أنّك تفعل ما لا تريدُ من أجل مَن تحبّ؛ فإنّ افتقاد المغصوب سجنٌ للروح وإهدارٌ للعمر.

جميعُنا نحمل في حشانا الحبّ، حتّى أولئك المكابرين خلف أقنعة إنكاره، حتّى أولئك المنظّرين على المحبّين وما بهم من حِلّ، حتّى أولئك القساة مدّعو الخُلوّ منه كـ حُلمٍ أو كـ سرّ، وحتّى جامدي الملامح أمام لوْعات المعذبين حبًّا.

جميعُنا بلا استثناء (وعاء حبّ) مهْما اختلف النّهل منّا أو بنا.

المتأمّلون فقط يروْن حتّى في أكثر النّاس قسوةً حبًّا، خلف كلّ ملمح جمد حبًّا خمد، وخلف كلّ لسانٍ نظّر جوفًا افتقد، وخلف كلّ المكابرين أمامَ حاملي الحبّ ألف ألفِ غبطة أو حسد!

إنّما الحبّ في كلّ "روح"، والهوى في كلّ "نفس"، والسّلام على مَن لم يُمكِّن روحه من هوى نفسِه؛ فترفّق وترقّق وواسى ولم يعذل.. فلم يُبْتلَ.

إنّما القساةُ هُم سجناء الأنا، الذين ابْتلوا بالكِبر فعَلِقوا في زنازين الماضي الفردية، حيث قُيّدت أرواحُهم إلى شجرة الحبّ الذابلة، وصُلبت عيونهم تذرف الدّمع تحتها فما يزيدها ريّهم لها إلّا ذبولًا، فملحُ الأحداق الذي غاب في حضرة العصافير فهجروا الشجرة هو القادرُ أن يستدعي العصافير يومًا كي تعودَ إلى الشّجرة ذاتها، ربما قد يأنِ القدر يومًا لشجرة الحبّ التي ذبلت بالهجران؛ أنْ تزهر من جديدٍ بعودة مَن هجر أعلاها، وإن كان من بقِيَ أسفلها هو مَن سبق وقتلها بمنتهى القسوةِ ومن دون شهود.

أيقظت «أشجان» زوجَها من نومه وهي تخبرُه بلهفة لم يعتدها «مؤمن» في حديثها من قبل:

– «مؤمن»، مِن فضلك انهضْ حتّى تساعدني في جمع أغراضنا، سنعود إلى القاهرة الآن.

****

ما ضيْر العالم إنْ رافقنا مَن نحبّ، إذا كان العالم هو مَن تخلّى عن الرفق بقلوبهم مع أحبتهم حين لفظوهم، ولم يرأفْ بقلوبنا التي وُلدت بلا أحبّة أن تهديها الأقدار أشباهها وإن لم يجمعْنا بهم أو معهم أو فيهم أرحام؟!

وهلْ للأقدار صوتٌ أعلى مِن أن تجمع فاقدًا بفقيدٍ على قارعة البلاء فيشفى كلاهما من سقم الفقد؟!

ما ضرّ كلّ مَن أضرّونا قبلُ أن يختفوا في شقوق الأيام، أنْ وجدنا ترياقًا مِن زعافهم فلم نعدْ نترنّح على جانبي العمر، وكفّت أيادينا عن تحسّس الجُدر أكتافًا، وألفنا أنفاسًا طيبات لم نعرفْ في حضرتهم غربةً ولا فرارًا؟!

إنَّا محاطونَ بالظلام كرهًا كالأجنّة في الأرحام إلّا إنّا بلا مخاضٍ ولا ميلاد، وكأنّ اختبارنا أنْ نجتهد في أنْ نرى أنفسنا فقط مهْما امتدّ الظلامُ حولنا!

وكأنّ لسانَ حال أقدارنا أن نحذر؛ فنحن لا نُحاط بالظلم والظُلْمة والنفوس المعتمة لنصبح مثلَهم، غير أنّها حقيقة الحياة الدّنيا، وأنّها كبد؛ يجب أن نتذوّق فيها الخيانة لندرك الوفاء ونعيشَ فيها الألم لندرك السّعادة، ونستمع فيها إلى الكاذب لندركَ الصادق، ونرى فيها عدم الوفاء لندرك المُخلص؛ وإنّا لا نبتلى بهذا كلّه أو ببضعه أو بثلّةٍ منه إلّا ليسطع من داخلنا الإنسان، فطوبى لِمَن تشبّثوا بإنسانيّتهم مهْما حاول فاقدوها جرّهم لذات الفقد، أولئك الذين تشبّثوا بثوابتهم، وبأبيضهم، وتذكّروا في لحظات ضعفهم أنّ هذه اللحظات ستمرّ، وأنّ جلّ ما كان سيصبح هيّنًا جدًّا أمام أن يظلّ الإنسان فيهم.. إنسانًا.

استيقظتْ «إنصاف» للمرّة السادسة على هذيان «حسين» وهو نائم، كلما اقتربت منه لتتفقّده وجدته يتصبّب عرقًا وكأنّه يعْدو في صحراءٍ قاحلة بلا نقطة ماء، في كلّ مرّة كانت تهزّه وتسأله: "هل أنت بخير؟!" فيُخبرها «حسين» أنّه بخير ويعود للنوم من جديد، ثمّ لا ينفكّ يعود للهمهمة غير المفهومة وهو يتصبّب عرقًا من جديد.

قضتْ «إنصاف» ليلتَها قلقةً على الشّاب، فلم تجد بدًّا للطّمأنة إلّا أن تنهض من مرقدها وتتوضّأ وتصلّي ما شاء لها أن تصلي من قيام الليل، ظلّت «إنصاف» تصلي وتدعو لـ«حسين» حتّى أذّن الفجر، فأدّت فرضها بخشوعٍ وفي السجدة الأخيرة أطالت الدعاء وعلا صوتها به دون أن تشعر؛

حتّى أنّ «حسين» استيقظ على دعائها له، فجلس مستندًا إلى الحائط خلفه وهو يتأمّلها بمزيج بين الحزن والندم.

ما أنِ انتهت «إنصاف» من صلاتِها حتّى طالعت وجه «حسين» الواجم بقلق فهمّت واقفة وتوجّهت حيث يفترش «حسين» الأرضَ بزاوية الغرفة، فقد سبق وترك لها ولـ«ديمة» سريرَه منذ أوّل ليلة لهما معه، ربّتت «إنصاف» على كتف «حسين» قائلة بنبرة غلّفها القلق:

- هل أنت بخير يا ولدي؟! ما الذي يشغلك إلى حدّ استجلاب الكوابيس إلى نومك بهذا الكم؟!

- كيف عرفتِ يا أمّي أنّ الكوابيس تطاردني ولا تتركني أرتاح؟

- أنتَ على نفس الحال منذُ بضعة أيام، لكن الليلة كانت أطولهم عليك يا ولدي.. ما بك يا «حسين»! هل هناك فتاة ما تشغلك يا بنيّ؟!

فتحَ «حسين» عينيْه فإذا هما مغرورقتان بالدموع، وأخذ ينظر إلى «إنصاف» بحبّ شديد بينما يقول:

- نعمْ هناك إحداهنّ يا أمّي؛ لكنّها ليست بفتاة، والأمرُ ليس عشقًا كما تظنين.

ابتسمتْ «إنصاف» ابتسامة أمّ تظنّ أنّها لمست في ولدها موضعَ حرج، فتنحنحت وهي تديرُ وجهها يمينًا ويسارًا بشيء من الخجل قبل أن تجمع رباطة جأشها قائلة:

- لا تخجل منّي يا ولدي، ربّما لم يرزقني الله بالولد لكنْ يعلم الله ما لك عندي ثمّ أنّـ...

قاطعَها «حسين» بصوت متهدّج إذ لم يستطع حبسَ دموعه أكثر:

– أنتِ لا تفهمين ما أعنيه يا أمّي، أرجوكِ اسمعيني، الأمرُ ليس كما تفكّرين أبدًا.

أزاحَ «حسين» دمعةً من فوق خده، وهو يهمّ واقفًا موليًا ظهرَه لـ«إنصاف» بينما يستطرد:

– أنا أنانيّ.. أنانيّ جدًّا يا أمّـ..

قطعَ «حسين» الكُنية التي طالما نسبَ بها «إنصاف» إلى نفسه قبل أن يستدير يواجهها:

– أنا أنانيّ يا خالة «إنصاف» أرجوكِ سامحيني.

– خالة!

ردّدتها «إنصاف» باستنكار وهي تتمعّن في ملامح الشابّ وهو يستطرد حديثه بلا وعي دون أن يلحظ استنكارها:

– لقد أعجبتني حياتي معكِ يا خالة، حتّى أنني لم أكتفِ بالتوقف عن البحث عن جارتك «كارولين» كما وعدتك فقط، بل إنّني أخفيت عنكِ تلك الأخبار التي أخبرتني بها تلك الفتاة عن جارتك كذلك.

هبّت «إنصاف» واقفةً عندما سمعت اسم «كارولين» واقتربت من «حسين» قليلًا وهي تقول له:

– أنا لا أفهم منك شيئًا يا بنيّ.. عن أيّة أخبار تتحدّث؟ ومَن تلك الفتاة؟ وماذا أخبرتك عن «كارولين»؟! ولماذا أخفيت عنّي الأمر؟!

– سأخبرك كلّ شيء يا أمّـ.. يا خالة ونحنُ في الطريق إلى هناك، سأنتظرك بالخارج وأنتِ من فضلك بدّلي ملابسك وجهزّي «ديمة» وهيّا بنا إلى جارتك وصديقتك «كارولين».

خرجَ «حسين» مغلقًا باب الغرفة خلفه، بعد أن التقط ملابسه المعلقة بعدّة مسامير فوق الحائط خلف الباب مباشرة، كان مسرعًا كشراع أحدِ القوارب الذي دار وأسدل وجرى ليستقبل وجهةَ الريح وليس ليتوجّه إلى حيث يتمنّى، هذه أقدار مثله ممّن لا يملكون أثمان تحقيقِ أمنياتهم العينيّة، فكيف إذا امتدّت أمانيهم لأعمق من مجرّد سكن، وعملٍ، ولقمة حلال؛ ولامست فيهم مناطق الأحلام المحرّمة أن يكون لهم والدان، أظنّ لو استفتى العالم كلّ الولدان والبنات في صحبةٍ واحدة فقط يختارون مسمّاها من بين كلّ البشر لقالوا: "أمّي"؛ نعمْ هي الأمّ كلّ حاجتهم رفيقًا يبدءون يومَهم بدعائها وينهونه بقُبلةٍ على كفّها.. وحضن، وما بين البداية والنهاية يصبح للسعي نيّة أن يرسموا السعادة في عينيها كلّ يوم برؤيتهم، وتطبع هي الفرحَ في كلّ أيامهم بالدعاء لهم.

الأمّ هي الحقيقة الوحيدة التي لا يستطيع أحدٌ إنكارها أو إخفاءها أو استبدالها، عَلَمُ البشرية هي التي ترفرف على وليدها؛ إذ يستحيل أن تحمله رحمين، وليس أصدق مِن رحمِ أم حين يكذب الجميع وتصدق هي وإنْ كانت مكرهةً على هذا الصّدق، الجميع يستطيع أن يخفي بداخله ما لا يريد أن يبديه، ووحدَه رحمُ أمك يعلنك وإنْ أنكرك أبوك نفسه، لا أحد يستطيع أن يكتب خلف أم حقيقة شعورها بوليدها بينما رؤية واحدة لها وهي تحتضنه كافيةٌ أن تنثر في الرٍّوح كلّ السلام.

ربّما هذا ما يؤرّق «حسين»؛ أنّه لم يحظَ بذاكرة شاغرة بذراعي أمّه حوله، لم يسمع اسمه من بين شفتيْها مرّة، هو حتّى لا يعرف لها اسماً، لا يعرف لها ملمحًا، لا يتذكّر لها روائح، لماذا لا يتذكّر الأجنّة روائحَ أمهاتهم؟! هو يريد أن يتذكّرها ولو على صورة رائحة، وإن كانت هي قدْ وضعته ابنَ يومين أمام باب ذلك الملجأ ونسيته!

لماذا نسيته أمّه هناك؟! هل تنسى الوالدات فعلًا أبناءهنّ بهذه السهولة؟! ألم يكفِها عشرته المُنفردة لها وهو في حشاها تسعة أشهر؟! ألم يقلقها سكونه في حشاها لليلة واحدة فطالبته بركلةٍ يؤلمها بها؛ فتعرف أنّه بخير، وبرغم ما تلاقيه من الألم؛ إلّا أنّها تربّت على موضع ألمها وهي تبتسم!

لم يسألْ «حسين» نفسَه قط لماذا أنا بلا أبوين؟! هو لم يرِدْ من والديه إلّا هي فقط.. أمّه ثمّ أمّه ثمّ أمّه. وإنّما على أبيه في حياته ما يستحقّه إذ لم يذكره قط؛ حتّى وهو يقذف به أول مرّة إلى رحم إحداهنّ وهو في سُكر التّابعين من شياطين هواهم، أبوه لم يذكره كأبٍ ولو مرة واحدة حتّى يستحقّ ثانية واحدة من تفكيره كـ ابن.

****

أكبرُ جريمة تحدثُ بحقّ البشريّة هي أنْ نضع القواعد، ثمّ لا نقرّ أنّ هناك مَن هو مستثنًى منها، مهْما تكن القاعدة أو يكنِ المعنيّون بها، ومهْما يكن مبتدعُها أو أينما كان مكانها؛ على رأس الفكْر اليمينيّ تربّعت أو إلى أقصى الفكر اليَساري هوتْ، أو ما بيْن بينٍ ترنّحت ثمّ اختفت، يبقى التطرّف تطرفًا مهْما ألبسه العمومُ من أستارٍ يخفون بها حقيقتهم، الإنسان فقط هوَ ما يبقي التطرّف لقيطًا في كلّ

الأزمان، وكلّ لقيطٍ مشردٌ لا أرض له ولا وطن، وما يعيد المتعصّبون إلى التّيه إلّا أن يفتح الوسطيّون في أسوارهم بوّابات يعبر منها ذوو الألباب، لا شيء يخيف المتشدّدين سوى فكرة تجدُ بين العقول مَن يؤمن بها.

وأوّل ما يؤمن المرءُ به هو نفسه، مهْما يكثر الكافرون بك من حولك، ومهما سنّ لك القساة في الحياة مِن سننٍ تعيقك، يبقى أول طريق الإيمان أن تلتفت على اسمك وأنت تسمعه لأولٍ مرّة ممّن يُبقيك في صدره حتّى تنعس كلّما في النوم رغِبت، وإنّ خصاص الصدور لا تشرَع إلّا إذا كانت القلوب خلفَها كأفئدة الطير، بعض البشر كالطير جُبلوا على الحرية كطائرٍ لا يعلم مِن معناها إلّا رفّ الجناحين.

وعادة الطيرِ أن يستيقظ مبكرًا مهْما كان الطّقس حوله، تبقى زقزقة العصافير في الصَباح ليست إلّا قليلًا من المشاكسة استعدادًا لحربِ لقمة العيش، غير أنّ آذان الأرواح الشفيفة تلتقطها عزفًا، فسلامٌ على مَن يرى الواقع على حقيقتِه، ولا يستنكر على الحالمين رُقيِّهم الذي يطرفون عليه.

«نهلة النمر» إحدى يتيمات الملاجئ التي خرجت إلى الحياة لا تعرف لها اسمًا، كانت مشرفات الملجأ يبدّلنَ اسمها بحسب مزاجهنّ، وبعض أفعال «نهلة»، كانت تشعر دومًا أنّها بلا اسم، حتّى استقرّ اسمها في النّهاية بعد بلوغها سن الحادية عشرة، والتحاقها بالصف الأوّل الإعدادي إلى «نهلة النمر».

رغمَ تفوّق «نهلة» في الدّراسة في المرحلتين الابتدائية والإعدادية، إلّا أنّه وفقًا لما هو مُعتاد في دور الأيتام، أن تلتحق الفتاة بعد اجتيازها الشهادة الإعدادية بثانوي تمريض، لكنّ «نهلة» تمرّدت على هذا المسار،

وقرّرت أن تلتحق بالثانوية العامة، ومن ثمّ التحقت بمعهد الخدمة الاجتماعية؛ لتحصل على درجة البكالوريوس، من أجل أن تعمل فيما بعد كمشرفةٍ في نفس الملجأ الذي كبرت وترعرعت فيه.

مرّ شهران على عملها بدار الأيتام أو (الملجأ) كما يطلقون عليه في الدارج، ثمّ وجدت «نهلة» نفسها في حالةٍ من الضيق وهي كالتائهة بداخله التي لا تعرف من أين تبدأ أولى خطواتها نحو تغيير كلّ ما تراه منكرًا، ومن ثمّ قرّرت أنّها لا تريد العمل في تلك الدار أو أيّة دار أخرى، إلّا أنّها بعد حضور إحدى الفعاليات عن مناقشة مشاكل الأيتام في مصر، وجدت «نهلة» أنّ مَن يتحدثون عن هذه المشاكل بعيدون كلّ البعد عن الواقع الذي يعاني منه الأيتام من نُزلاء تلك الدور، فقرّرت أن تلتحق بجمعيّة "وطنية"، وأصبحت مسئولًا أوّل في وحدة التقييم بتلك الجمعية، وتعطي تدريبات للمتطوّعين الذين يمارسون بعض الوجود في دور الأيتام على مستوى الجمهورية، وكذلك أشرفت «نهلة» على تدريبات للعاملين في المجال قبل أن تقرّر مشاركة تجربتها تحت عنوان (الأبواب المغلقة) عبر مواقع التواصل المختلفة مع الأطفال في الدار، ومع آخرين قد كفلوا أطفالًا قد حرموا من أحضان أبويهم بلا جريرة، من خلال نظام (الأسرة البديلة) الذي يسمح برعاية الأطفال ممّن لا يعرف لهم أمًّا ولا أبًا.

حصلت «نهلة» على شهادة دوليّة مهنية في مجال تعزيز نمو الطفل، واجتهدت «نهلة» في تطبيق قناعتها؛ أنّه على الطفل اليتيم أن يبدأ بنفسه، وأن يكون مقرّرًا لمصيره مهما كانت الظّروف من حوله، وأن يتحدّث عن مشاكله ويكافح من أجل حلّها.

واعلموا- يرحمكم الله- أنّه ما كانت الكلمةُ الطيبة صدقة إلّا لأثرها في النفوس وإن كانت معوجّة، وأنّ الصّالح لنفسه والمصلح لأمّته، وأنّ للإصلاح ثمنًا، وأنّ المُصلحين محتسبون، صابرون، عابرون؛ لا يرون أفعال الناس على ظاهرها، وإنّما هُم عن العلل ينقّبون.

أمّا بعد، فيعملون على الأصل لا الفرع، وإنّ العمل في القاع مرهق، وإنّ المصلح لا يملك الهداية إنّما يمرّ بمعاوله على البشر، ينقّب ويهذّب ويلقي الخير لله؛ أي (لا ينتظر حصادًا لنفسه)، وإنّما جلّ سعادته أن تنبت في قلب مَن لا يعرفه نبتةٌ قد ألقاها- يومًا ما- في قلب مَن يعرف فنقلها الأخير عنه.

استيقظت «صفية» فرحةً على صوت العصافير القادمة من تلك الأشجار داخل أسوار ذلك الملجأ الذي كبرت وترعرعت به هي الأخرى، وقد قرّرت أن تكون نموذجًا مختلفًا فيه كتلك التي كبرتْ وترعرعت تحت رعايتها بين جدرانه.. «نهلة النمر»، لولا الله ثمّ «نهلة» لما خرجت «صفية» من دائرة اليُتم المغلقة بأقفال مجتمعيّة عدة، كأن يقال عن مثلها ما يقال فتُطعم اللّا إنسان فيها بمقال الناس؛ ليكبر على ما نبتت مسامعه عليه قبل أن يعيد كرّة أبوين كانت الإنسانية مقتولةً فيهما، قبل أن تصبح قاتلة في صغيرهما ومن هنا فلا خروج من دوائر البؤس إلّا بضمّة من إنسانٍ فقد حتّى ارتقى عن من دونه، وأعطى حتّى أنقذ وهو على خصاصة. «نهلة» كانت لـ «صفية» هذا الإنسان، وها هي صفية تصبح لـ «كريستين» الإنسان نفسه، وبذلك تبدأ دائرة جديدة من النقاء كم تتمنّى «صفية» لو تتسع وتتّسع حتّى لا يبقى فوق البسيطة ملجأ ولا يتيمٌ داخله بلا هوية.

فتحت «صفية» عينيها على تلك اللّوحة الطولية التي تحتلّ ثلث الجدار المقابل لسريرها داخل غرفتها بملجأ الأيتام الذي ترعرعت فيه، والتي دُوّن على البقعة السوداء داخل إطارها الخشبيّ البسيط كلمات بخيطٍ ذهبيّ لامع.

"حين يقف المسافر عبرَ بلادنا عند قريةٍ ما فإنّه لا يحتاج إلى السّؤال عن الطعام أو الماء، فمجرّد وقوفه عند هذه القرية سيجعل أهلَها يطعمونه ويرحّبون به، هذا أحد جوانب الأوبونتو المتعدّدة، الأوبونتو لا تعني أنّ الفرد لا يجب أن يهتمّ ويثري نفسه، ولكن السؤال هنا: هل تستطيع فعلَ ذلك بحيث يكون في سبيل تطوير المجتمع مِن حولك؟!". «نيلسون مانديلا».

اللّوحة على الجدار هي إحدى إبداعات فتيات الملجأ الفنية، والمقولة داخلها لـ «مانديلا» هي إحدى اختيارات «نهلة النمر» المحفّزة لقيمة الإنسانية المجرّدة، وكلاهما أعظم هدية تلقّتها «صفية» على مدار كلّ أيامها داخل هذه الجدران الأميّة حولها، هكذا عرّف الراحل «مانديلا» الشّخصية الأوبونتو، هو مصطلح يعود جذوره إلى لغات البانتو الجنوب إفريقية، فلسفة الأوبونتو تعني "العطف الإنساني" أو الإنسانية في مواجهة الآخرين، وتروّج لرابطة واحدة تجمعُهم، الفلسفة المعنيّة ظهرت في البداية في جنوب إفريقيا بسبب أزمة الفصل العنصري هناك، وحينما تولّى «نيلسون مانديلا» رئاسة جنوب إفريقيا انتشر هذا المفهوم عالميًّا، «أوبونتو»؛ من لغة الزولو بجنوب إفريقيا والمعنى الحرفي لها هي "الإنسانية"، ولكنّ المعنى المقصود بها يأتي من الاستخدام الجنوب إفريقي لها لوصف مبدأ (الإنسانية تجاه الآخرين) أو ما يترجم أحيانًا بـ (نحن موجودون بسبب الآخرين).

قصاصاتٌ قصيرة لمقولات عظيمة تمتلئ بها آلاف الكتب لن ينتشي بها إلّا من قرأ وبحث واهتمّ، ألقت «نهلة النمر» الضوءَ على البعض منها بما يوافق ما تبنّته من قضايا، وقيمة الإنسان هي أوّل ما عمدت «نهلة» غرسه داخل كلّ بنت هي مسئولة عنها داخل هذا الملجأ أو خارجه، ونعم البنت كانت «صفية»، ثمّ نعم الفتاة أصبحت.

ارتدتْ «صفية» ثيابَها وخرجت من غرفتها وهي تلقي التحايا على زميلاتها بالملجأ هنا وهناك حتّى بلغت مكتب «نهلة»، طرقته ودلفت مباشرةً وهي تحمل لها البشرى أنّها الآن في طريقها إلى المستشفى لتجمع بين العجوز وتلك المحامية التي وافقت أخيرًا أن تلتقي بها:

- أمّي «نهلة»، ادْعي الله أنْ أجد لتلك العجوز مَن يعولها وحفيدتها من الأهل أو الأقارب، خاصّة الصغيرة حتّى لا تلقى المصير ذاته الذي لقيناه من العيش بين مثل هذه الجدران التي كنّا- ومازلنا- نعيش خلفها؛ من أجل إغلاق أبوابها من الداخل على مثل تلك الصغيرة خارجها وهي في حياة غير.

ابتسمتْ «نهلة» وهي تهزّ رأسها بفخر المربّي، بينما تقول وهي تحتضن «صفية» بقوة:

- الحمدُ لله أنّه سبحانه قد منّ عليّ بابنةٍ مثلك يا «صفية»، الزواج لم يكن شرطًا أمام حلْمي في الأمومة بعد كفالتي لكِ وآخرين معكِ كأبناءٍ لي، ما ألطفَ أقدار الله يا حبيبتي، وما أصدق أرحامَ الإنسانية؛ حين لا نبحث في النّاس عن إضٍّ.. إلّا أنّهم أحسن تقويم الله، وكلّ وعاءٍ بما يملؤه راعيه!

****

في حيواتنا الصّغيرة أشخاصٌ مثل هولاكو وهتلر وجنكيز خان، إن لم يستوطنوك كما يريدون؛ أهلكوك كما لم تتخيّل، وإن طردتهم بعدها من حياتك شرّ طردة؛ هُم لا يبالون بالبقاء في كلّ حال، كلّ ما أرادوه تدميرُك وتحويلك لشخصٍ لا تصلح الحياة معه، ستعرفهم منذُ أوّل تعامل معهم إن كنت ذا فطنة، وستعرفهم مِن بعد حين عندما يختلقون لك ألف وسيلةٍ لتلويثك، ثمّ لا يقبلون منك من بعد ألفَ ألفِ إحسان، متى عرفتهم فاحذرهم بالبتر وإنْ كانوا من أقرب شريانٍ للرحم.

غرفٌ كثيرةٌ تتراصّ إلى جوار بعضها، أبوابها جميعها مصفّحة وبلا فتحات تهوية، فتحة التّهوية الوحيدة في مواجهة الباب تمامًا، ليست نافذة فهي بلا ضوء، مجرّد أسطوانة دائرية سدّت نهايتها بدائرةٍ حديدية لها أقطار متعامدة صنعت بعيدًا عن حوافّها مربعات حديدية كثيرة يتسرّب من بينها القليلُ من الهواء، وبمنتصف سقف الغرفة مصباح خافت ضوءه، اللّون الذي ينبعث منه كإضاءةٍ مرهقٌ جدًّا للعين.

غرفتان في نفس المكان شغلتهما حديثًا امرأتان وطفلة.

كلّ ما تتذكّره «مريم» أنّها استيقظت داخل غرفتها على أصوات جشّاء لرجال شداد، وأحدهم قد اقترب بضعَ خطوات نحو سريرها، بينما يلقي لها بفستان أسود طويل وهو يأمرها أن ترتديه فورًا، وأن تأتي معهم، لم يستطع عقلُ «مريم» استيعاب ما الذي يحدث حولها، ظنّت لوهلةٍ أنّها مازالت نائمة، وأنّ هذا حلم، لكنّها حين استعادت تركيزها كلّه عرفت أنّها مستيقظة، وأنّ ما تراه حولها هو الواقعُ بالفعل، في الحالات المماثلة كانت من هي في موضعها

لتبحثَ عن زوجها، أو على الأقلّ تتشبّث من مكانها باسمه على هيئة صرخة، لكنّها لم تفعلْ، كلّ ما فعلته أنّها ارتدت الفستان بسرعة فهي كانت بالفعل بحاجة لارتدائه لتستتر به وقد دخلوا عليها هكذا وهي بملابس النوم في سريرها، بينما زوجها ليس إلى جوارها كعادته في كثيرٍ من الليالي.

- ما الذي يحدث هنا؟! كيف دخلتم إلى هنا؟! ألا تعرفون من أنا؟!

لم تأتِها أية إجابات من أحد وكأنْ لا أحد معها بالغرفة، كانت «مريم» تتحدث بسرعة وهي تزيح من فوقها الغطاءَ لتدور بجسدها دفعة واحدة جهة اليسار، وتدلي بقدميها إلى الأرض وتهمّ واقفة، في هذه اللّحظة تحرّك نحوها الرجل ذاته الذي سبق وألقى إليها الفستان منذ قليل، وهو يقول بينما يقبض على ذراعها ويديره إلى خلف جسدها بغلظة:

- ستعرفين كلّ شيء في الوقت المناسب والمكان المناسب كذلك.

حاولتْ «مريم» أنْ تقاومه ليفلت ذراعها، لكنّه كان قد تمكّن من كلا ذراعيها بالفعل، ولم تشعر «مريم» إلّا بتكّة تلك الأقفال وهي تحاوط رسْغيها في أقلّ من نصف دقيقة.

أظلمتِ الدنيا أمام عينيها فجأة، لم تفقد «مريم» وعيها، بل أحجبت الرؤيا عن عينيها بعصابةٍ سوداء شدّ الرجل غليظُ البنية وثاقَها خلف رأسها بشدّة آلمتها، وأشعرتها بصداعٍ مفاجئ من شدة الضغط.

ما أصعبَ حال العميان! وما أغلى نعمة البصر!

فجأة كلّ الضّوء اختفى من أمام ناظريها واختفت الأشياء، وبدأ تخبّطها والكثير من الخوف.

إلى أين يأخذها أولئك الرجال؟! ما الشيء الجلل الذي حدث حتّى تصبح على مصير كهذا؟! هل هو زوجها؟! هل الأمر متعلّق بـ«هيثم»؟! ترى أين هو الآنً؟! أمعقول أنّه أتى بفعل استجلب عليه المصير نفسه؟! لا شيء قد يستدعي عليها ما هي فيه الآن إلّا هو بكلّ الأحوال «هيثم منتصر» هو كلمة السر.

انتهت درجاتُ السلم أخيرًا، وبدأت تشعر مريم بالهواء حولها وبالكلأ يحتضن من قدميها ما لا يغطيه ذلك الخفّ الذي ترتديه في قدميها، لم يقودها الرجال إلى سيارة بعد، ظنّت «مريم» أنّ سيارة ما تنتظرها بالخارج لتقلّها مع أولئك الرجال إلى مكانٍ ما، لكنّ هذا لم يحدث، وكأنّ الرجال الممسكين بها قد داروا بها عبر الحديقة حول مبنى الفيلا فقط، أخذت «مريم» تدير وجهها إلى كتفها في حركةٍ لا إرادية كتلك التي يؤتيها الأكفّاء وكأنّ الكفيف بتلك الحركة يحلّ أذنه موضع عينيْه!

أبوابٌ كثيرة تفتح أقفالها ويعْبرون من خلالها إلى أبوابٍ أخرى، رائحة المكان رطبة وكأنّ الشمسَ لا تدخله، وأبوابُ الغرف فيه جميعها مصفّحة من النوع الكاتم والعازل للصوت.

فجأةً هكذا يا «مريم» تنامين وتصبحين فتساقين هكذا من أعلى الأرض إلى أسفلها، وكلّ هذا يحدث لكِ وأنتِ داخل مسكنك؟! الأمرُ ليس عقابًا لـ«هيثم» إذًا كما ظننتِ؛ الأمر عقابٌ منه هو وليس له من سواه في شخصك! لكن لماذا؟!

ما الذي فعلته «مريم» حتّى تستحقّ منه أن يفعل بها مثل هذا؟!

حال «مريم» التي زُجّ بها إلى داخل تلك الغرفة بعد أن نُزِع عن رسغيها أصفادها، هو أفضل كثيرًا من حال تلك العجوز التي سبقتها إلى هذا المكان فجرًا وتلك الصغيرة بين أحضانها، «كارولين» التي تحتضن حفيدتها بذعرٍ بينما لا تتذكّر شيئًا سوى رائحة تلك الصّغيرة التي تبتسم لها بسلام حتّى وهي نائمة بين ذراعيها مثلما هي الآن.

****

تعجّبت «صفية» وهي تلجُ من بوّابة المشفى عندما لمحت «حسين» وهو يجلس على إحدى الأرائك بحديقة المشفى الجرداء، ما أن لمحها الشاب حتّى هرول إليها قائلًا:

- آنسة «صفية»، صباح الخير، أعتذر لكِ عن عدم إجابتي لاتصالاتك، سأقصّ عليكِ الأمر كلّه فيما بعد.

استطرد «حسين» كلامَه وهو يستدير مشيرًا إلى حيث تجلس «إنصاف» وهي تحتضن حفيدتها على الأريكة نفسها التي كان يجلس هو فوقها منذ لحظات:

- لقد أحضرتِ الخالة «إنصاف» معي ها هي هناك ومعها «ديمة»، لم أستطِع إخبارَك يومئذ عن الصّلة بينها وبين الخالة «كارولين» لا تعرفين ما تكبّدته من استجوابٍ من كلّ الجلوس على المقهى بعد أن رحلتِ، والحمد لله أنّ الأمر مرّ على هذا فقط.

كانا قد اقتربا بالفعل من «إنصاف» التي جلست في مقعدها وهي تحتضن حفيدتها وقد بدا عليها الكثيرُ من القلق، الأمرُ كلّه منذ البداية مَدعاة للقلق

لكنْ هناك شيء ما يجعل مؤشر الخوف يزداد داخلَ صدر «إنصاف»، فبدا القلق جليًّا داخل ناظريها بالتحديد، كانت تتلفت حولَها بتوجّس وريبة؛ هي لا تستشعر قربَها من «كارولين» رغم تأكيد «حسين» لها أنّها هنا داخل جدران هذا المشفى.

ألقت «صفية» التّحية على العجوز وهي تبتسم لـ«ديمة» بين ذراعيها، حاولت لمس الفتاة لكنّ الصغيرة تكوّرت على كتف «إنصاف» وهي تدسّ رأسها بين رقبة جدتها ومنكبها في نفور، مثلها لم ترَ وجوهًا من هذه المسافة غير وجهي الجدّة و«حسين» وتلك الطبيبة التي تؤلمها في ذراعها وفخذيها بتلك الوخزات كلّما اصطحبها «حسين» إليها لتحصل على جرعات التطعيم الخاصّة بالرّضع في مثل عمرها، من الطبيعي أن يصاب الأطفال في عُمر «ديمة» بالرّهاب من الغرباء، لكن نسب الرهبة تختلف من طفل لطفل؛ من اعتاد الزّحام منهم بحكم دأب الحياة الطبيعية هو أقلّ خوفًا بين الناس بالتأكيد.

رنّ هاتفُ «صفية» النّقّال فأشارت إليهما بأصبعها تستأذنهما في الردّ وهي تدور بجسدها موليةً لهما ظهرها وهي تجيب:

- أستاذة «أشجان» صباح الخير، أنا بالمشفى وفي انتظارك، أين أنتِ الآن؟!

استغرق اتّصال «أشجان» بـ«صفية» دقيقة ونصف الدقيقة فقط قبل أن تلتفت الأخيرة إلى «حسين» و«إنصاف» من جديد وهي تشير إلى هاتفها قائلة:

– إنّها الأستاذة «أشجان»، محامية كانت «كارولين» تحتفظ ببطاقتها التعريفية ضمن حقيبة يدها، يبدو أنّها لديها ما تعرفه، أظنّها متحفّظة نوعًا ما ربما هو طبعها أو سمتٌ ما في شخصيّتها، لم ألتقِ بها بعد حتّى أعرف مَن هي وما علاقتها بالأمر لكنّها حيّرتني كثيرًا عندما اتّصلت بها، وقصصت لها ما لديّ نفت تمامًا معرفتها بأيّ شيء، حتّى ذهبت إلى مكتبها وقابلت شريكتها هناك بعد كلّ محاولات اتصالي بك يا «حسين» وعدم ردّك عليّ– اضطررت أن أفعل–؛ فقامت شريكتها بالاتصال بها، وإذا بامرأة أخرى وكأنّها تبدّلت، بدتِ الأستاذة متأثرة جدًّا وطلبت منّي أن تلتقي بالعجوز اليوم هنا، وها أنا ذا أنتظرها ولكنْ يبدو أن تبدّل حال الأستاذة ليس آخر مفاجأة لي في هذا الشأن؛ فها أنتم هنا أيضًا، ومن غير موعد أو اتّفاق، لا أدري ولكنْ أشعر أنّ الأمر معقدٌ وليس بالسهولة التي كنت أظنها.

التفتتْ «صفية» متوجّهةً بحديثها إلى «أشجان» هذه المرّة:

– عندما ذهبت إلى العنوان المكتوب في هويّتك، كان العقار المدوّن على بطاقتك الشّخصية أنكِ تقطنين فيه محترقًا بأكمله، وجوه الناس هناك كانت تحمل من الريبة ما جعلني أصدّق «حسين» فنفّذت ما طلبه منّي بشأن قصدت تلك الخيّاطة للتّنويه، في توّي توجّهت إليها حتّى لا يشكّ بأمرنا أحد.

عادت تتوجّه بحديثها مرّة أخرى إلى «حسين» وهي تقلّب كفّيها وترفع حاجبيها تعبيرًا عن حيرتها:

– لكن عندما قمتُ بالاتصال بك لأيام متواصلة ولم يأتِني منك ردًّا، اضطررت إلى الذّهاب إلى مكتب الأستاذة «أشجان» بنفسي والتقيت هناك

بشريكتها الأستاذة «مريم»، ومن ثمّ أنا هنا الآن بانتظار شريكتها التي لم تفصحْ لي عن شيء إلّا أنّها ستأتي إليّ بنفسها وتنظر في أمر العجوز، وما الذي يمكن أن تقدّمه لها وللصغيرة معها.

- «كريستين».

نطقتْها «إنصاف» بأسى، ثمّ استطردت بلهفة:

- هلّا أوصلتني إليهما يا ابنتي من فضلك.

كانت تقولها «إنصاف» وهي تهمّ بالوقوف قبل أن تناول «ديمة» لـ«حسين» وتخطو نحو «صفية» راجية:

- «كارولين» مثلي ليس لها أحدٌ سواي، وليس لي سواها، لسنا مجرّد جيران فقط هي صديقتي في العمل منذ عشرات السنين، لم أرَ منها طيلة معرفتي بها إلّا ما يحدث بين الأصدقاء من فعل وردّه، لكن لم تسِئ إحدانا للأخرى قط، والله يا بنيتي ما فرّقني عنها إلّا من أحرق لي ولها مسكننا ليأمن هو.

جرتْ دمعةٌ حارةٌ من عينيّ «إنصاف» جلبت من عيني «صفية» نظيرةً لها وهي تربّت على كتف العجوز وقد تأثّرت بما تسمعُه منها، قبل أن تمسك بأكتافها بين يديها وهي تدْعوها إلى الذّهاب إلى صديقتها «كارولين» بداخل المشفى:

- تعالي يا أمّي سآخذكِ إلى صديقتك الآن، ولننتظر الأستاذة «أشجان» ونحن مع «كارولين» والصغيرة بالأعلى.

التفتَ «حسين» إلى «صفية» عندما كنّت «إنصاف» بأمّي وهو يتأمّلها بينما تواصل حديثها الذي كانت تتوجّه به إلى أمّه «إنصاف» كما يحبّ

أن يكنّيها هو الآخر، لا يدري «حسين» كيف بدتْ له الفتاة في تلك اللحظة ليست بغريبة عنه، وكأنّه يعرفها جيدًا منذ سنين، على الرّغم أنّه كان ينظر إليها وكأنّه يراها لأوّل مرّة.

لقد صدق «سقراط» حين قال: تحدّث حتّى أراك.

****

جابتْ «صفية» كلّ غرف المشفى وهي تهرول بحثًا عن «كارولين» والصّغيرة دون جدوى، سألت الجميع عنها ولا أحد يجيبها إجابة واضحة، الجميع يتهرّب من الإجابة عن أسئلة «صفية» الخاصّة بتلك العجوز، بدتِ الفتاة بينهم كالمجنونة فجأة عندما أظهرها صمتهم وهمهماتهم وهزّات رؤوسهم كمَن تسأل عن وهم وليس امرأة عاشت إلى جوارها ما يقارب الثلاثة أشهر، افترشت «إنصاًف» أرضَ المشفى وهي تحمل «ديمة» من هول الصّدمة، بينما «حسين» يهرول كتفًا بكتف إلى جوار «صفية» هنا وهناك.

لم يتركا شبرًا لم يبحثا فيه، ولم يتركا عاملةً أو عاملًا داخل المشفى لم يسألوه عن العجوز الفاقدة لذاكرتها والفتاة معها، أجمع الجميع على ذات الإجابة:

– نحن لم نرَ شيئًا!

– أين ذهبت «كارولين» وحفيدتها يا «حسين» هل تبخّرا؟! العجوز لا تتذكر شيئًا منذ ذلك الحادث هل من الممكن أنّها قد استعادت ذاكرتها؟! هل من المعقول أنّها عادت إلى الحيّ حيث منزلها وجيرانها؟!

كان الشابّ يقف حائرًا لا يعرف بماذا يجيب؟! أو ماذا يحدث؟! ما هذا الحظّ العجيب الذي يلاحق «إنصاف» منذ ماتت ابنتُها «عزة»؟! كلّ الأحداث التي توالت على خبر وفاة ابنتها التي ماتت وتركت لها حفيدة بلا اسمٍ وبلا أب؛ تقول إنّ والد «ديمة» المجهول وراء كلّ ما حدث وما يحدث.

– قلبي يخبرني أنّ الخالة «كارولين» في مكانٍ قريبٍ جدًّا منّا لكن لا أدري أين هو؟!

كان «حسين» يدور حول نفسه وهو يقول هذه الجملة لـ«صفية»، التي كانت تتلفّت بدورها وكأنّ ما أصاب الشابّ من شعور قد انتقل إليها فقلّدته من دون قصد.

توقّفت «صفية» عن الدّوران حولها وهي تنتفض عندما رنّ هاتفها الجوّال في يمناها فجأة، أشارتْ إلى «حسين» تخبره أنّ المتّصلة هي المحامية «أشجان» ثمّ فتحت الاتصال وهي تلهث:

– أستاذة «أشجان» أين أنتِ؟!

أتاها صوت «أشجان» باكيًا وهي تخبرها أنّها بالأسفل إلى جوار «إنصاف» والصغيرة، فأخبرتها الفتاة أنّها و«حسين» في طريقهما إليهما على الفور، سحبت «صفية» الشاب من ذراعه دون وعي وهي تحدثه دون أن تلتفت إليه قائلة:

– هيّا يا «حسين» المحامية وزوجها وصلا بالأسفل ويبدو أنّهما التقيا بالخالة «إنصاف»، وأنّ الأخيرة قد أخبرت الأستاذة «أشجان» أننا لا نجد العجوز «كارولين» والصغيرة «كريستين»، فقد تأثر صوت الأستاذة كثيرًا وهي تخبرني أنّها بالأسفل معها.

لا يدْري «حسين» كيف اعترته تلك القشعريرة التي سرتْ بجسده عندما جذبته «صفية» من ذراعه، فأخذ يتأمّلها وهي تتحدّث دون أن تلتفت إليه.

يا الله! ما أشبه «صفية» بالملائكة!

ربّما لم يرَ «حسين» ملاكًا من قبل ليشبّه به «صفية»، لكن ربما أيضًا لن ترى الملائكة في الأرض إلّا في صورة مَن هي صفيّة كـ«صفية» التي تجاوره الآن، بمثلها فقط يعترف العيان بتجسيد الملائك، هي من أولئك الإناث اللواتي تسكن البراءة قسماتهنّ، لم يكن حديثها على مهلٍ حتّى يغريه صوتها أو تؤثره طريقتها في نطق الكلمات، الأمر ليس له علاقةٌ بما يراه منها، إنّ السّر في «صفية» هناك حيث روحها الخفية التي لمست قلب «حسين» منذ لحظات فاقشعرّ بدنُه، وجعلته يلتفت إليها ويراها.

وصلَا أخيرًا إلى حيث تركا «إنصاف» تفترش الأرض بالأسفل ومعها «ديمة»، الدكتور «مؤمن» زوج الأستاذة «أشجان» يقف مستندًا إلى الحائط وهو يحتضن وجه زوجته إلى صدره، والأخيرة تبكي بحُرقة، استوقف بكاؤها جسدي «صفية» و«حسين» عن الاندفاع نحوهما، وأخذا يتبادلان النّظر بدهشةٍ وهما يسألان بعضهما عبر نظرات العيون ماذا هناك؟!

ربّما تتأثّر «أشجان» أو سواها وهي تستمع إلى القصّة على لسان «إنصاف»؛ لكن ليس إلى درجة ما يشاهدان «أشجان» عليه.

جثا «حسين» على ركبتيْه أمام «إنصاف» وهو يسألها:

- ما الأمر يا أمّي؟! هل هذه هي الأستاذة؟! لو أنّها هي فلماذا تبكي الأستاذة «أشجان» هكذا؟! ما الذي حدث هنا يا أمّ؟!

كانت «إنصاف» تتطلّع إلى وجه «حسين» وهي تبكي غير مصدّقة ما سمعته من الدكتورة «أشجان» منذ قليل، وهي تتوجّه بحديثها إلى زوجها الدكتور «مؤمن» بهستيريا مرددةً:

– هي يا «مؤمن» هي، أمّي يا «مؤمن».. أين أمّي وابنة أخي أين؟! أين «كريستين» يا «مؤمن»؟!

كادت «إنصاف» تهمّ يقول شيء ما، لكنْ يبدو أنّها تراجعت عنه قبل أن تقول:

– ليس هنا يا «حسين»، سأخبرك بكلّ شيء يا ولدي، لكن ليس الآن، وليس هنا.

طلب الدكتور «مؤمن» مِن الجميع أن يتّبعوه وهو يصطحب زوجته إلى السيارة، ويجلسها بها فقد كادت تفقدُ وعيها مرّتين لوْلا أنّها امرأة قوية تملك رباطة جأش رغم بكائها المتواصل من هول صدمتها بما سمعته.

كمْ عانت هذه المسكينة من هذا السّر طويلًا، «أشجان» أو «إيفون»– كما كان اسمها قبل موت أبيها– قد أفنتْ عشرين عامًا من عمرها وهي تفرّ من هذا اليوم، لم تكن تتخيل أبدًا أنّها ستقبل على مقابلة والدتها من جديد بعد كلّ ما عانته معها ومع أخيها غير الشقيق «مينا» من رهق.

يكمنُ السّر فيما أخبرها به أبوها قبل موته بأيام، وذلك الملفّ الذي أعطاه إيّاها وهو يوصيها أنْ لا تقوم بفتحه إلّا بنفس اليوم الذي يموت فيه.

وبعد موته بساعاتٍ فقط قامت «أشجان» بفتح ذلك الملفّ، ويا هول ما وجدت فيه وما قرأت!

كانت «أشجان» أو «إيفون» تحبّ والدها بجنون، ذلك الملفّ الذي تركه لها قبل أن يموت كان كافيًا أن يقتل أيّ تعلق بينها وبين أبيها؛ لكنّ ما كان بينهما من خاصة محبةٍ وثقة وقرب؛ هو ما جعل أبوها يأمنها هي دون غيرها على سرّه الذي عاش به ومات تاركًا إيّاه لابنته أمانةً ومسئولية كذلك.

لا تستطيع «أشجان» أن تنسى ما مرّت به من فواجع، كم تبدّل حالها من فتاةٍ منطلقة مفعمة بالحياة إلى فتاةٍ منطوية لم تعدْ ترى في الحياة ما يستحقّ الشغف، الحال الذي تسبّب لها في الكثير من الانتقاد من الجميع، والكثير من المشكلات كذلك بينها وبين والدتها «كارولين» وأخيها «مينا» على النطاق الضيّق، بدأ الأمر بين «أشجان» وبينهم مبكرًا إذ دخلت في اكتئاب شديد بعد موت والدها بعدّة أيام فقط، تلك الوصية التي تركها لها أبوهاً والذي كان مستهلّها اعترافًا أنّه لم يعدْ «عماد صبحي»، وأنّه أصبح «عبد الرحمن محمد»، قد توالت عليها الصّدمات من بعد ذلك الاسم على هيئة طلبات من «أشجان» أو «إيفون» حينها، والكثيرُ من الوصايا التي قسمت الابنة شطرين حتّى لملمت نفسها في سنين طوال من القراءة بعد.

أوّل مطالب والدها أنْ لا تخبر أحدًا بسرّه مهما طال بها العمر، وأن تتركهم يدفنوه في مقابر العائلة ثمّ تقوم هي بإخراجه ودفنه في مقبرته التي ابتاعها سرًّا، والذي ترك لها عقدها مدوّنًا به عنوانُها، وقد أرفق بالعقد وصية منفصلة؛ "أن تصبح المقبرة من بعد عام من دفنه به سبيلًا للفقراء، مَن مات وليس له مكان يدفَن فيه فليدفَن إلى جوَاره، وهذه أمانة تركها بعنق ابنته إلى يوم القيامة".

كلّ ما تركه أبوها في ذلك الملفّ كان يهوي على رأس «أشجان» كالصاعقة، لم يكن الأمرُ سهلًا عليها أبدًا، كانت كمَن تتفصّد ألمًا من دويّ صراخها الصامت وهي لا تستطيع إفشاء سرّ أبيها إلى أيّ أحد، أسماء كُتُب عديدة قد دوّنها لها أبوها كوصيةٍ لها أن تقرأهم، العجيب أنّ أباها لم يوصِها بترك دين أو اعتناق آخر؛ كلّ ما أوصاها به أن تقرأ.. أن تقرأ كثيرًا، وفي كلّ شيء، ولا تخف من توجّهٍ ولا ترهب من فكْر، وأن لا تستمع لمن يمنعها عن الإطلاق في دربِ القراءة مهما يكن.

****

رياحُ الخريف لا تُسقط إلّا مَن يصيب حياتك بالزّحام وهو ميت، لن تُسقط إلّا ذاك الذي خلا من الخير فما عاد يستحقّ العيش في الأعالي، لكنه يكابر بالتشبّث حتّى يسقط مجبرًا.

دلفَ «هيثم» إلى الغرفة التي احتجزَ رجاله «مريم» داخلها وهو يحمل سيجارًا في يمينه بينما يساره داخل بنطاله تختبئ، قبل أن يقف على مسافة من زوجته الجالسة على تلك المرتبة على الأرض، وإلى جوارها طعامها لم تمسّه، وهو يرمقها بنظرات مستجوبٍ لم يعرفْها قط، بدا «هيثم» كغريبٍ لم يعاشر «مريم» ولو ليومٍ واحد.

نظراتُه إليها متفحّصة، ونظراتها إليه متحدّية، مَن هي في مثل وضع «مريم» كانت لتصرخ حين ترى «هيثم» بألف (لماذا)؟! وعشرات (ما جريرتي)؟! لكنّها لم تكن تريد أن تبدي له ضعفًا، وكلّ ما أظهرته له عبْر عينيها هو قمّة التحدي، أربكته بالفعل نظراتها إليه حتّى أنّه لم يستطعِ التحدّث إلّا بعد أن تنحنح عدّة مراتٍ أولًا:

- بالتّأكيد تعرفين يا «مريم» لماذا أنتِ هنا، أليس كذلك؟! أم أنّكِ مازلتِ قادرة على لعبة القطّ والفأر معي كما هو دأبك دائمًا؟!

أشاحت «مريم» وجهَها عنه دون أن تنبس ببنت شفة، فاستشاط هو غضبًا وألقى السيجار من يده على الأرض وأخذ يدهسُه بحذائه من شدّة الغيظ وهو يتقدّم بضعَ خطوات منها قائلًا بحنق:

- لنْ يفيدك صمتك في شيء، قولي لي كلّ ما تعرفينه عن تلك العجوز وحفيدتها، وما علاقتهما بصديقتك «أشجان»، الأمر ليس بهذه البساطة التي تظنّينها، الأمر جلل يا «مريم»، ولا بدّ أن أعرف منكِ كلّ ما الذي تعرفينه بصدده.

التفتتْ «مريم» إلى «هيثم» وهي تقطّب جبينها متمتمةً في دهشة:

- بل ما علاقتُك أنت بهذا الأمر يا «هيثم»؟! ومَن الذي أخبرك بشأن تلك العجوز وحفيدتها؟! حتّى «أشجان»! من أين لك أن تعرف أنّ هناك رابطًا ما بين صديقتي وتلك العجوز؟!

قهقه «منتصر» قهقهاتٍ عالية وهو يستمع إلى زوجته وقد بدت كالسّاذجة أمامه وهي تسأله تلك الأسئلة متناسيةً مَن هو «هيثم منتصر»، ربما هي محقّة في تساؤلها عن علاقته بالأمر أمّا دون ذلك فإنّ سذاجتها بالفعل تضحكه طويلًا.

أوْلاها ظهره وهو يقطع ضحكاته فجأة، قبل أن يقول بصوتٍ جادّ:

- إمّا أنّكِ لا تعرفين مَن أنا يا زوجتي العزيزة، وفي هذه الحالة قد تتألمين طويلًا قبل أنْ تعرفيني، وإمّا أنّكِ قد نسيتِ من أنا، وهنا يجب أن أذكّرك بنفسي، وإمّا أنكِ تعرفين وتدّعين السّذاجة لغرضٍ ما في نفسك،

لا مجال للألاعيب اليوم يا «مريم» ليس الأمرُ كباقات الورود تلك التي ترسلينها إلى نفسك لتجعليني أنشغل بكِ وألهث خلفك هنا وهناك، الأمرُ أكثر تعقيدًا هذه المرّة، وربّما لن يفلت منه كلّ من يعرف عنه، ولو كلمة واحدة، لذلك تحدّثي معي بكلّ ما تعرفينه، وإلّا..

قطعَ حديثه وهو يتوجّه من جديد يواجهها بجسده مستطردًا:

– وإلّا سيأخذونك من هنا دون رجعة، الخيار خيارك يا زوجتي المصون.

تركتْ مريم كلّ حديثه وتشبّثت بما ذكره بخصوص باقات الورود:

– ما الذي ذكرته الآن بخصوص باقات الورد؟! هل قلت إنّني التي كنت أرسلها لنفسي؟! هل عنيت ذلك حقًّا؟!

اتّسعت عينا «هيثم» دهشةً وهو يحدّق بوجهها مستنكرًا على النّساء قدرتهنّ على انتقاء ما يلامسُ عواطفهنّ حتّى في أحلك المواقف، ثمّ لم يلبث أنْ قال لها وهو لا يزال في شروده داخل حالهنّ:

– يا الله! كلكنّ لكن نفس التفكير! نعم لقد اكتشفت أمركِ بخصوص باقات الورود تلك، كلّما قمتِ بتغيير محلّ الزّهور كنت أرسل أحدَ رجالي إليه لمعرفة من يكون الرّاسل، جميع عمّال المحالّ التي كنتِ ترسلين منها الورود إلى الفيلا قد أجمعوا على أنّ الرّاسل هو امرأة لها كلّ مواصفاتك.

ثمّ صمت برهةً وهو يرمقها بنظرة مشفقٍ يغلب على باطنه الكثير من السخرية:

– أحقًّا هذا كلّ ما لفت نظرك من حواري؟! يا للنّساء!

تذكّرت «مريم» حلماً قد راودها الليلة الماضية قبيل ساعات من دخول أولئك الرجال عليها بغرفة نومها، إذ التقت بشخص ما في رؤياها، شخص هي تعرفه جيدًا، لكنّها في الواقع لا تتذكّره، ودارً بينهما ذاك الحوار الذي بدأته «مريم» سائلة:

– لماذا افترقنا رغم كلّ هذا الحبّ؟!

– لأنّ هذا الحبّ جنّة، والأرض ليست ضمن الفراديس.

– وكأنّك تخبرني أنّ لنا في الجنّة لقاء!

– بل إنَّا الآن في الجنّة، وإلَّا كيف أتيتِ إليّ هنا؟!

كان سؤالُ الرجل ذي الوجه المألوف هو آخر ما استيقظت «مريم» عليه من نومها قبيل دخول أولئك الرجال إلى غرفة نومها.

هل مِن المعقول أنّ من يرسل الورود إليها هنا معها في هذا المكان؟!

أيمكن أن يكون عاشقها ذاك خلفَ باب إحدى الغرف المجاورة لغرفتها هذه؟!

أو ما هو تفسير ذلك الحلم؟! ومَن هو ذلك العاشق يا ترى الذي يتعمّد إيهام «هيثم» بما أخبرها به الآن؟!

تلاشتْ من عيني «مريم» صورةُ زوجها «هيثم» الذي كان يقف أمامها في جمود وهو يحكّ ذقنه بين الفينة والأخرى، بينما يتأمّل شرودها في توجّس، ترى ما الذي يشغلها إلى هذا الحدّ حتّى أنّها لم تعدْ تشعر بوجوده؟! وكأنّ روحها قد تجاوزت ذلك الباب خلفه، وخرجت تطرق كلّ الأبواب المجاورة بحثًا عنه.. ذلك القريب الذي أرسل إليها روحه على هيئة زهور.

****

هي المرّة الأولى منذُ عاد الدكتور «مؤمن» وزوجته «أشجان» إلى مصر؛ التي يطأ عتب منزلهما أناسٌ سواهما، وجوهٌ لا يربط بينها رحمٌ أو نسب أو جيرةٌ أو صداقة أو حتّى سابق معرفة قديمة، قد اجتمعا فجأةً على وجع واحد، بينما بعضهم كان يشاطر أوجاع مَن يحب أمثال: «مؤمن» الذي كانَ يشاطر زوجته حزنها على اختفاء والدتها التي لم ترها منذ عشرات السنين، و«حسين» الذي يشاطر «إنصاف» ألمها على غياب صديقتها التي لا تعرفُ عنها شيئًا منذ شهور، أمّا «صفية» فهي تتألّم من أجلهم جميعًا وهي لا تربطها أية علاقة بأحدٍ منهم؛ وكأنّها عابرة السبيل في كلّ الحكايات، تلك التي لا تحمل في جوفها إلى المارّين إلّا الإنسانية تقدّمها لهم ثمّ تتولّى إلى الظلّ ولا تلتفت.

لكنْ أنّى لها أن لا تلتفتَ وهناك «حسين»، لم يكن يعرف الشابّ عن «صفية» شيئًا حتّى بدأت تتحدّث وهي تقوم بتمريض «أشجان» بحسب إرشادات الدكتور «مؤمن» لها:

– ما أعجبَ الأقدار التي جمعتنا هنا الآن على اختلاف ظروفنا وطبقاتنا الاجتماعية المتفاوتة بشكلٍ لا يعقل، ربّما تظنون الآن أنّكم لا تعرفون عنّي شيئًا إلّا اسمي.

ابتسمتْ «صفية» ساخرةً من الحقيقة وهي تستطرد:

– أنا أيضًا لا أعرف عنّي سوى اسمي.. «صفية» وفقط، مَن يكون أبي.. لا أدري، من هي أمّي.. لا أعلم، أين ولدت.. لست أعرف. كيف وصلت إلى ذلك الملجأ.. لا فكرة لديّ. كلّ ما أدركتُه وأنا بين جدران تلك الدار

المتخصّصة في رعاية الأيتام؛ أنْ لا أحد- إلّا مَن رحم الله- يرعى الأيتام هناك إذا لم يرعَ اليتيم نفسه بنفسه، الله من رحمني ثمّ أمّي «نهلة النمر» من كارثة انتظار الأكتاف تحت كفوفي، فشُدّ عودي وأنا لا أنحني لخطوبٍ مهما اشتدّت، أو مهما عودي ضعف.

الجميعُ واجمون وهُم يستمعون إلى «صفية» وهي تتحدّث عن نفسها، ووحده «حسين» بدا على ثغره شبحُ ابتسامة لم تكدْ تظهر حتّى اختفت في ثانية وهو ينقلُ ناظريه بين الجميع حرجًا أن يكون رآه أحد، الموقف لا يحتمل إبداء ما يدور بنفسه الآن، لكنّ هناك شعورًا خفيًّا بدأ ينمو بالفعل داخله تجاه «صفية»، وكلّما تحدّثت الفتاة أكثر كلّما ازداد يقينه بحقيقة شعوره تجاهها أكثر وأكثر.

لم يخطرْ يومًا على بال «حسين» أنّه سيقرّ لنفسه ذلك الحقّ في التطلع إلى أية أنثى صغيرة في العمر كانت أمْ كبيرة، كثيرون مِن أقرانه يقبعون خلف الآكام ليلتفّوا كالأفاعي حول الشّاردات من الفرائس هنا وهناك، ومن ثمّ يمتصّون منهنّ متعتهم حتّى آخر قطرة، لكنّ «حسين» قد عرف طريقَ صوم الشّهوات مبكرًا دون فضل من أحد سوى الله، شيء ما فيه يأبى أن يفتحَ على نفسه هذا الباب ربّما هو تأثّره بسماع سورة (يوسف) لا يدري، لكنّه منذ استمع إليها أوّل مرّة، وشيء ما وقرَ في قلبه حالَ دونه ودون شهوته في النّساء.

جذبَ «حسين» طرف الحديث من «صفية» ليكسر حاجز الصمت قبل أن يسود بينهم من جديد:

- أنا أيضًا يا «صفية» لا أعرف عن نفسي إلّا اسمي.. «حسين» وفقط، ولا فضل عليّ من أحدٍ إلّا الله، ثمّ..

وأشارَ بوجهه إلى حيث تجلس «إنصاف» وهو يستطرد:

– ثمّ أمّي «إنصاف» التي لم تنفكّ ترعاني منذ وطأت بقدميّ ذلك الحيّ، حين ذهبت إلى هناك وأنا طفلٌ في العاشرة من عمري، كلّ شيء حولي كان يدعوني للضياع، لكنّ الله هو مَن هداني إلى الثبات، وإن كنت قد حدتُ بعضَ الشيء عن الدرب، وما أعادني إليه إلّا هذه الملاك هناك.. أمّي «إنصاف».

استدار «حسين» إلى «صفية» وهو يسألها:

– هل تعلمين لماذا لم أتّصل بكِ كما وعدتكِ عندما قابلتكِ أوّل مرّة هناك في الحي؟! خفت أنْ أخسر وجود أمّي «إنصاف» ومكوثها معي بعدما تجد الخالة «كارولين» وتقصّ عليها حقيقة ما جرى.. فيذهبا معًا ويتركاني للوحدة من جديد.

تنهّدت «إنصاف» على ذكر اسم صديقتها وهي تهمس:

– ترى أين أنتِ الآن يا «كارولين»؟!

رنّ هاتف «صفية» المحمول فأشارت كعادتها بكفّها أن يصمت الجميع حتّى تجيب الهاتف، وكأنّها قد اعتادت تلك الحركة من كثرة وجودها بين صخب الناس في المشفى أو داخل الملجأ كذلك، قطّبت «صفية» حاجبيها وهي تستمع إلى حديث إحدى زميلاتها بمدرسة التّمريض والتي تعمل أيضًا بذلك المشفى معها ممرضةٌ تحت التمرين، أغلقت «صفية» المكالمة وهي لم تنبس ببنت شفة، ولكنّ ما بدا على وجهها أقلق الجميع، فهتف «حسين» باسمها متسائلًا في قلق:

– «صفية»، مَن الذي يهاتفك في هذه السّاعة؟! ولماذا وجهكِ مصفرًّا هكذا؟!

أجابته «صفية» وهي مشدوهة:

– إنّها زميلتي بالمستشفى، اتّصلت الآن لتخبرني أنّ رجالًا غلاظَ البنية قد اقتحموا المشفى فجر اليوم ثمّ اصطحبوا الخالة «كارولين» معهم إلى خارج المشفى، وقد طلبوا من الجميع أن ينسوا ما حدث، وأن لا يذكروا العجوز لأحد، وإلّا سيلقون مصيرًا يكرهون يوم ولادتهم عليه.

انتبهت «إنصاف» إلى كلمات «صفية» وقد وقر في نفسها أنّ الأمر متعلق بابنتها المرحومة «عزة» وذلك المجهول الذي تزوّجها عرفيًّا ثمّ تنصّل من الزيجة حين علم من ابنتها بأمر حملها في «ديمة»، بينما الدكتور «مؤمن» قد هبّ من مقعده أثناء حديث «صفية» وهو يقطّب جبينه محاولًا فهمَ ما يدور حوله، لا يدري لماذا التفت إلى «ديمة» في تلك اللحظة وكأنّه استمع إلى حديث جدّتها الذي يدور في نفسها الآن، فتوجّه بحديثه إلى «إنصاف» وهو شارد الذهن:

– خالة «إنصاف»، هل لي بسؤال من فضلك؟!

أومأتِ العجوز برأسها علامة القبول، فاستطرد «مؤمن»، ولكنْ هذه المرّة وهو بكامل انتباهه:

– هل تعرفين مِن أين أتت ابنتك المرحومة «عزة» ببطاقة زوجتي التعريفية التي أرفقتها بتلك الرسالة قبل وفاتها، قبل أن تطالبك بقصد مكتب «أشجان» وإعطائها إيّاها مرفقة بتلك الرسالة؟!

وضعت «إنصاف» الفتاةَ إلى جوارها على الأريكة ثمّ همّت واقفة وهي تجيب «مؤمن»:

– لستُ أدري يا دكتور «مؤمن»، وليتني أعرف أيّ شيء لنرتاح جميعنا من هذا الكابوس، كلّ ما عرفته هو ما سبقَ وأخبرت به زوجتك الأستاذة «أشجان» حين ذهبت إلى مكتبها قبل أن تحل بنا كلّ هذه الكوارث.

قلّبت العجوز كفيها وهي تطأطئ رأسها مستطردة حديثها وكأنّها تحدّث نفسها:

– ما الذي حدث في الدنيا؟! هل أرواح بعض الناس صارت رخيصة على البعض الآخر إلى هذا الحد؟! بدءًا بتهديد ابنتي وجنينها بالقتل، ثمّ محاولة قتلي التي راح ضحيتها ابنة «مينا» الرضيعة وحماته وكثير من سكّان العقار معهما لمجرد أنّ القاتل لا يريد لجريمته نسبة فشل ولو واحد بالمائة فأحرق العقار بأكمله!، والآن خطف «كارولين» وحفيدتها! ولا أحد يدري ما المصير الذي نحن مقبلون عليه بعد كلّ هذا! هل صرْنا في غابةٍ شعارها المغالبة وقانونها الوحيد أنّ البقاء للأقوى؟!

تنهّد «مؤمن» وهو يتوجّه بناظريه إلى غرفة زوجته «أشجان» قبل أن يقول:

– أمرُ المؤمن كله خير يا خالة «إنصاف»، لوْلا رسالة ابنتك تلك وزيارتك لزوجتي «أشجان» بشأنها؛ لما عرفت «صفية» عنوان مكتب المحاماة الخاص بزوجتي ورقمها، ولما تواصلت معها كما حدث، ولما رقّ قلبها إلى والدتها بعد هذا العمر.

ثمّ التفت «مؤمن» إلى «صفية» و «حسين» الصّامتين بينما في قلوبهما عمل كلام طويل وهو يستطرد قائلًا:

– دائماً هناك حكمةٌ وراء كلّ بلاء يا خالة، دائماً هناك شيء جميل بداخل كلّ الحكايات المؤلمة.

أصدرت «ديمة» صوتًا خافتًا وكأنّها تلفت انتباه «مؤمن» إلى وجودها فابتسم وهو يخطو إليها هامسًا:

– ليس بالضرورة أن تكون الغابة سيئةً إلى هذا الحد، طالما أنّ بها حمامة سلام كـ «ديمة» وشجرة طيبة كـ جدتها، حتماً سيجذب الهديل آذان الطيبين وسيلتّفون حول الشّجرة، ومن طلب السّلام خافته الوحوش وإن اجتمعت جميعها.. من أجل قتل حمامة واجتثاث شجرة.

****

ومِن أسرار الله في خلقه الرّوح، وما للروح من خفايا، كأنْ يستلقي المرء فوق الأرض بجسده فيغفو فتحلّق روحه في فلا الرؤى وتقابل مَن تحب.

– انظر.

أشارت «مريم» إلى السماء ثمّ استطردت:

– كلّ هذه الغيوم على الشمس ليست إلّا دمعي من فرط حزني منك.

ثمّ أشاحت بوجهها عن نافذتها وهي تطفئ ناقوس موعده بدمعة، وتلقي على روحه المتحسّسة سلام.

نامتْ «مريم» وهي لا تدري كم الساعة، لكنّها حين استيقظت بعد ذلك الحلم عرفت أنّها الحادية عشرة صباحًا، وأنّ روحها قد فارقتها حين غفتْ لتعاتب روحه على موعد استقبالها للورود الذي حرمت منه، وبالتأكيد هو الآن لا يدري عن ذلك شيئًا.

ما حيلة الممنوعين من السعي إلّا الأحلام؟!

هي الرّوح تسعى حين يُحبَس الجسد، وهذا هو اليقين الذي لا يمكن للقساة سجنه أو منعه، كـ زاجل الحمام تحلّق الروح تحمل رسائل النفس الحبيسة إلى مَن تحب.

أما الصديق فهو قلبٌ يعرف ما بصاحبه، وإن تعفّف الأخير في النداء عند النوازل، وقلوب العارفين حين تسمع تلبّي، وبعد.. فالغلبة للصّادق وإنْ كَثُر الخونة، فاشددْ على قلب مَن أقْدَم حاملًا الحبّ فيه، واعلمْ أنْ لا شيء يهزم أعداءك إلّا أنْ يروا فيك قوةً بمَن تحب.

وهناك في منزلها على ضفاف النيل، استيقظت «أشجان» من نومها وهي تردد اسم «مريم» في هلع، وجبينُها يتفصّد عرقًا، «مؤمن» ليس إلى جوارها في السرير، وعلى مقعدِها الهزّاز استلقت «إنصاف» وهي تلتحفُ «ديمة» أسفل أحد الأغطية الخريفية وهما تغطّان في نوم عميق، تذكّرت «أشجان» كلّ ما حدث بالأمس دفعة واحدة، يبدو أنّ ذلكً العقار المهدئ الذي حقنتها به «صفية» بناءً على إرشادات «مؤمن» قد شوّش ذاكرتها قليلًا، لكنّها في لحظة استعاد عقلها كلّ الأحداث فأجهشت بالبكاء من جديد.

لا شيء يمحو في الإنسان حنينَه إلى مَن حملته كرهًا ووضعته كرهًا مهما ادّعى البعض أنّهم قادرون على طيّ صفحة الأمومة كاحتياج من ابنٍ لأمّه، الأمومة ليست احتياج؛ الأمومةُ فطرة وكذلك البنوّة، غير أنّ ذاكرةً بعض الأبناء التي قد تمتلئ بسوء تصرفات الأمهات؛ ليست كذاكرة الوالدات التي لا تمتلئ إلّا بكلّ جميلٍ قد رأوه في صغارهم مهما أساءوا،

المُعضلة تحدث عندما تختلّ هذه القاعدة بأن تتلوّث ذاكرة الأمومة بتركيز زلات الصغار فلا تغفر.. الأمومة مغفرة مطلقة، وبلا شروط.

ليتَ «كارولين» فطنت بفطرتها إلى تلك الفجوة التي خلّفتها وفاة والد «إيفون» حينها- أو «أشجان» حاليًا- في نفسها، لم يكن الأمرُ هيّنًا على فتاة في العشرين حُمّلت بكل ما أسرّها به أبوها من أسرار، إن الثماني سنوات التي قضتها «أشجان» مع والدتها وأخيها «مينا» كانوا أسوأ سنوات عمرها، الصّراع النفسيّ الذي كانت تعيشه بين التيه والحقيقة والحب والفقد والواقع بكلّ متناقضاته التي عاشتها وحدها؛ كان يجعل منها مريضة نفسية في عيني والدتها وأخيها، بينما هي كانت كيرقةٍ تختبئ في شرنقتها حتّى تنبت لها أجنحة وتطير.

إصرارُ «مينا» على خطبتها من صديقه ذاك الذي كان يمتهن الطبّ هو الآخر، كان هو آخرَ خيط يربط بين «مينا» وبينها، حاولت كثيرًا أن تتشبّث بأذيال والدتها تحتمي بها، لكنّ «كارولين» كان دأبها دأبَ معظم الأمّهات خلف الجدران العربية، إذ لا شخصية لها في وجود ذَكَرٍ بالبيت حتّى لو كان هذا الذّكر هو ولدها الذي يفتقد إلى الحكمة أو الاحتواء، ما بالها إذا كان العرق من الجنوب؟! الدّم الصعيدي دائمًا ثائر مهْما بلغ حامله من مكانة علمية أو بلغَ من عُمر، هو سمتُ الأرض والعرق الذي تجري الدماء فوق أولاها ساخنة ودافئة داخل ثانيها، الدّم فوق الأرض أو في العروق هو ما يجعل العصبية عنوانَ ذكورهم الرّئيس، والأمّ في كلّ الأحوال تزكّي هذه الذكورة جدًّا.

كانت خطبة لا تجوز، لكنْ أنّى لـ«أشجان» أن تفصحَ عن هذا بعد ما أقدمت عليه قبل سنين ولم تخبر به أحدًا، بعد قراءة كلّ تلك الكتب لم تعد «إيفون» هي «إيفون صبحي»؛ بل أصبحت «أشجان عبد الرحمن».

اضطرّت «أشجان» أن تقبل بالخطبة لبعض الوقت ثمّ تحاول إيجاد أيّ سبب تنهي به هذه العلاقة التي من المستحيل أن تكتمل، تمامًا كما تركت أباها داخل مقبرة العائلة ليلة كاملة قبل أن تنفّذ وصيّته وتقوم بنقله إلى مقبرته بالعنوان في عقدها الذي خبّأه ضمن أوراقٍ كثيرة داخل ذلك الملفّ قبل أن يتركه لها قبيل موته بأيام، والذي بسبب ما تركه والدها لها فيه؛ أصبحت هي على كلّ ما هي عليه الآن.

حين التقت «أشجان» بـ«مؤمن» عن طريق ذلك الجار لها والذي كان صديقًا لـ«مؤمن» كذلك؛ لم يتوقع الدكتور «مؤمن» أنّ مثل «أشجان» ستقبل به زوجًا ربما كان ليصبح صديقًا لها مثل ذلك الجار الذي كان من أقرب أصدقاء «مؤمن» إلى قلبه، لكن أن توافق أن تصبح زوجته؟! لم يظن «مؤمن» أنّ علاقته بها أمرٌ هيّنٌ أبدًا؛ حتّى قرّر مصارحتها بنيته ليجد ما تلقيه «أشجان» على مسامعه هو أغرب من أعتى خيالٍ قد يجمح به كاتب في لحظة تجلٍّ!

كانت زيارة «مؤمن» قصيرةً لكنّها كانت كافية أن لا يعود بعد انتهائها إلّا وفي خانة الحالة الاجتماعية بهويّته (متزوج)، تاركًا اسمه مكتوبًا على هوية «أشجان» ومنقوشًا بروحها.

الحبّ إنْ لم يكبر مستصغره في مدّة قصيرة جدًّا فهو ليس حبًّا، ولن يكون؛ الحبّ كالومضة التي تخطف البصر قبل أن تشعلَ في كلّ شيء حول الشّطرين

كلّ ما يحول بين الضلع وكلّه، إن لم يكنْ كلّ ما بينهما جافًّا بلا حياة ينتظر على عظيم أشواكه تلك الشرارة حتّى يحترقَ ويصبح رمادًا تذروه الرياح في لحظات، فلا ينتظرنّ اثنان في بعضهما سكنًا مهما طالتْ بينهما كلّ أيام التوفيق، إنّ ما يُحاك في النفس من أثوابٍ تسويفية يرتديها الغريبان على أمل أنْ في الغد سيتآلفان، وفي الغد سيتحابّان، وفي الغد سيتفاهمان، فيأتي الغد وهما يتعايشان، ويتغافلان، ولا يسكنان، ويفتقران إلى الأدنى من كلّ شيء، ولا يجدان من ذلك الأدنى إلّا كلّ شحّ، وفي المسافات الصّفرية ما أقتل الشحّ بين نفسين لم يذوقا كيف الحبّ فلم يعرفا كيف السكن!

مثل العلاقة بين صديقتها «مريم» وزوجها «هيثم» تمامًا.

استفاقت «أشجان» من ذكرياتها البعيدة حين استحضرت ذكر صديقتها «مريم» في خاطرها للمرّة الثانية في دقائق، فانتفض جسدها مقشعرًّا مرّة أخرى وهي تردد اسم صديقتها من جديد.. «مريم».

– ترى أين أنتِ الآن يا «مريم»؟! قلبي يخبرني أنكِ لستِ بخير يا صديقتي.

****

لم يذهب «مؤمن» إلى مشفاه منذُ قطع أجازته قبيل ليلتين، ولا يزال لم يفتح هاتفه المحمول بعد، هاتفه النّقّال على وضع صامتٍ منذ سافر هو وزوجته لقضاء تلك العطلة معًا، «مؤمن» فعليًّا مازال في تلك الأجازةٍ مع زوجته التي كان مبتدأها سفرهما إلى صعيد مصر لقضاء تلك الجولة السياحية التي سبقَ واقترح فكرتها على «أشجان» لتخفيف حدّة التّوتر بينهما جرّاء ذلك الاعتراف لها عن طبيعة علاقته بـ«هيثم» وأسرته.

ما لبث مؤمن أنْ عرض على «أشجان» عرضه ذاك حتّى وافقت الأخيرة على الفور بعد أنْ أصبحت «مريم» شريكةً لها بمكتب المحاماة الذي لم يذع صيته بعدُ بين أسماء مَن يمارسون المهنة؛ نظرًا لحداثة استقرار «أشجان» و«مؤمن» في وطنهم مصر.

سبقَ وأخبر الدكتور «مؤمن» نائبه في إدارة مشفاه أنّه في أجازة، وأنّ المشفى من الآن في حوْزته حتّى يعود، وأنّه عليه اتّخاذ دوره في إدارته كنائبٍ له من دون انتظار تعليمات من «مؤمن» حتّى تنتهي أجازة الأخير ويعود، المشفى في النّهاية عبارة عن مشروع وكلّ مشروع داخله عمالته التي تغطّي حركة سيره، سواء كإدارة أو كأطباء يمارسون مهنتهم بداخله من خلال تخصّصاتهم المختلفة.

خرجتْ «أشجان» من غرفتها وهي تستند براحتيها على الجدار الذي يفصل بين غرفة نومها وبين غرفة المعيشة حيث يجلس زوجها «مؤمن»، خطواتها ثقيلة ورأسها شبه مترنّح وبين خطوة وأخرى تقف وهي تتحسّس رأسها بألم، أصدرت عدة تأوهاتٍ رغمًا عنها فانتبه «مؤمن» إليها وهُرِع باتجاهها يحتضن كتفيها بأحد ذراعيه حتّى قبض على كتفها بكفّ يده، بينما يلتقط كفّها الذي تتحسّس به جبينها متألمة بكفه الآخر.

– حبيبتي، صباح الخير، كيف حالك اليوم؟! بماذا تشعرين أخبريني؟! لماذا غادرتِ السرير؟! تعالـ ....

قاطعته «أشجان» بصوتٍ واهنٍ وهي تضغط قليلًا بكفها على كفه:

– أنا بخير يا «مؤمن» لا تقلق، أنا فقط أريد هاتفي النّقال، لم أجده إلى جواري في غرفتي، لا بدّ أن أتّصل بـ«مريم»، ألم تلاحظْ أنّها لم تأتي إلى المشفى

أول أمس ولا أعرف هل اتّصلت بي على جوّالي أم لا ، أين الهاتف حتّى أتفقّدها، قلبي يخبرني أنّها ليست بخير.

يا الله! كيف سقطت «مريم» هكذا من تفكير «مؤمن» بين ليلة وضحاها، وكأنّها غير موجودة؟! إنّه ولأوّل مرّة منذ وفاة والده لا يتذكّر «مريم».. وإرسال الورد!

يا الله لقد نسي «مؤمن» لأوّل مرّة منذ عشرة أعوام أن يرسل لـ«مريم» تلك الباقة التي صارت اثنتيْن منذ قبلت شراكة العمل مع زوجته.

«مؤمن» أيضًا لديه من الأسرار ما لم يبح به حتّى لزوجته «أشجان» نفسها، الأمر ليس أنّه يحبّ إخفاء الأشياء ليبقى له من حياته ما لا يعرفه عنه أحد، ليس هذا من سمت «مؤمن»؛ بل إنّه مؤرّقٌ بالفعل بهذا السّر الذي لم يكن يعرفه حتّى وفاة والده منذ عقدين وقبيل لقائه بـ«أشجان» بأيّامٍ فقط.

بعض الأمور تحدث، لكنّ تصديق وقوعها قد يكون مستحيلًا على العقول البشرية، فيفضّل المرء أن يبقِها في طيّ الكتمان على أن يعلنها فلا يجد من يشاطره حقيقة أنّها حدثت، ما أقسى الواقع حين يصبح نتاج ما حرّمه الله على عباده أو بينهم!

في وسطٍ لا يعرف حلاله من حرامه، لا شيء يصبح منطقيًّا بالمرّة، وكلّ ما هو ليس منطقيّ سرّ، وكلّ سرٍّ له طرفان نديّان أو متّفقان أو أحدهما يكون مستضعفًا والآخر متجبّرًا، بين مثلهما مهْما كانت طبيعة ما بينهما من مسمّى، يعلّق دومًا من لا جريرة له إلّا أنّه أصبح نتاجَ ذلك المسمّى فصار بلا إرادةٍ منه هو كلمة السّر التي ترعب البعض وتقلق آخرين، وقليلًا ما يحزن عليها أحد.

لكنّ «مؤمن» حزين جدًّا على «مريم» منذُ عرف مَن هي، ومَن تكون بالنسبة إليه.

أفلتَ «مؤمن» كفّ زوجته وكأنّ «أشجان» قد صعقته باسم «مريم» حين ذكرته، قطّبت «أشجان» حاجبيها باندهاش إذ كاد يسقطها بعد أن أفلت كفّها الذي كانت تستند به عليه بهذا الشّكل، استندت بظهرها إلى الحائط خلفها حتّى لا تسقط، وأخذت تتأمّل ملامح زوجها التي تبدّلت فجأة وقد تفصّد من جبينه العرقُ بغزارة بينما أطرافه ترتجف.

- «مؤمن»، ماذا بك؟! أنت ترتجفُ يا حبيبي، هل أنت بخير؟!

لم ينبس «مؤمن» ببنت شفه، بل خطا مسرعًا نحو غرفة المعيشة وأحضر هاتف «أشجان» النقّال وعاد مسرعًا وهو يناوله لها:

- اتّصلي بـ«مريم» بسرعة يا «أشجان»، لا بدّ أن أعرف الآن أنّها بخير.

قطّبت «أشجان» حاجبيها أكثر وهي تتعجّب من لهفته ولهجته كذلك، إنّ «مؤمن» لم يقل: "لا بدّ أن نعرف".. لقد قال: "لا بدّ أن أعرف"! وبدلًا من أن يقوم باصطحابها إلى غرفة المعيشة وإجلاسها أولًا ثمّ يناولها هاتفها؛ لقد أفلت ذراعيه من حولها وهُرِع يحضر الهاتف لها وهي قدماها لا تقويان على حملها!

لم تستطع «أشجان» أنْ تخفي دهشتها فارتسمت جليّةً على ملامحها، لكنّ «مؤمن» في تلك اللحظة لم يكنْ يراها حتى، رغم أنّه كان ينظر إليها مباشرةً بكلتا عينيه.

****

حينَ تهبّ رياح الخطر فجأة قد يهرع مَن يفزع تاركًا خلفه حتّى ولده، ربّما هي قاعدة الخوف التي لا يستثنى منها أحد، لكنّ رحمة الله التي تسع كلّ شيء قد تمنّ أحيانًا على بعض النّفوس ببعض الإيثار الذي لم يسبقهم إليه أحد، حتّى أعتى مَن آثروا على أنفسهم على خصاصة، ما أجملَ تلك النفوس، وما أقوى رباطها حين تتشبّث بمَن تحبّ في وقت لا مكان فيه إلّا لـ (نفسي نفسي).

انْهمك «حسين» في تغيير أقفال مكتب الأستاذة «أشجان»، بينما «صفية» تتأمله وهي في عجب من أمره وأمرِ اهتمامه بها، حين أصرّت «صفية» أن تذهب لتبيت ليلتها في الملجأ ولم تنزِل على رغبة الدّكتور «مؤمن» أن تبقى و«حسين» بشقته حتّى يدبّر كلّ منهما أمره، فليس من المنطقيّ أن ترجعَ هي إلى الملجأ أو إلى مدرستها وعملها كذلك في ظلّ ما أخبرتها به زميلتُها عن ما حدث مع «كارولين» على أيدي أولئك الرجال، ربّما سيعودون من أجل «صفية» أو يذهبون إليها في مدرستها أو يتبعونها إلى ملجأ الأيتام الذي تعيش به كمشرفةٍ حتّى يتسنى لها المبيتُ فيه بعد أن أتمّت السّادسة عشرة منذ أكثر من ثلاثة أعوام، وكذلك «حسين» لم تعد غرفته بذلك السّطح تصلح للعيش فيها بعد الآن، من وصل إلى «كارولين» و«مريم» بحثًا عن «إنصاف» و«ديمة» ومن المحتمل أن يصل إلى «صفية»، بالتأكيد لن يترك مثل «حسين» يفلت من يده، الجميع آلوا إلى المصير ذاته على اختلاف أدوارهم، الكلّ مطارَد، الكلّ مُستهدف.. لم يعدْ أحد آمنًا.

أمامَ إصرار الفتاة على الذّهاب إلى الملجأ والمبيت فيه، لم يجد الدكتور «مؤمن» من بدٍّ إلّا أنّه قد أحضر نسخةَ مفاتيح مكتب المحاماة الخاصّة بزوجته،

وناولها إيّاها وهو يطلب منها الذّهاب إلى مكتب «أشجان» والمبيت فيه، على مضضٍ وافقت «صفية» وهي تشعر بالكثير من الحرج، لم يتركها «حسين» تذهب إلى ذلك المكتب وحدها، استأذن الدكتور «مؤمن» في أن يذهب معها ليوصلّها إلى هناك، ومن ثمّ أخبره أنّه سيقوم بتغيير أقفال المكتب حتّى تطمئنّ «صفية» أن لا أحد من العاملين بالمكتب سيقوم بفتحه عليها وهي داخله، أشار «حسين» بكفيّه بحركةٍ لا معنى لها ولكنّها حملت عنه الكثير من الحرج الذي شعر به لأنّه قد قرّر شيئًا كهذا بهذا الشّكل التلقائي فهمّ معتذرًا:

– لا تؤاخذني يا دكتور «مؤمن» ليس لي الحقّ في اتخاذ قرارٍ بتغيير الأقفال هكذا، ولكن ليس من المعقول أنْ تنام «صفية» هناك ثمّ تجد مَن يفتح عليها الباب، ربما تكون نائمة فتفزع، أو أن تكــ....

قاطعَه دكتور «مؤمن» وهو يشير برأسه مبتسمًا:

– هوّن عليك يا ولدي، لست بحاجة إلى كلّ هذا التّبرير، أنا أتفهّم الأمر، اذهب الآن وافعلْ ما يريح قلبك تجاه «صفية»، وأنا في الصّباح سأتصل بالعمّ «سيد» عامل البوفيه حتّى أخبره أنْ لا يأتي مبكرًا، وسأجري اتصالًا إلى السكرتيرة كذلك وأخبرها بأمر «صفية» لا تقلق على فتاتــ..

قطع الدكتور مؤمن كلمته، وابتسامتُه تتّسع على ثغره فاستدرك قائلًا:

– لا تقلق على الفتاة يا «حسين»، بإذن الله كلّ الأمور ستصبح بخير.

شعرت «صفية» بالحرج إذ أنّها صارت محورَ حديثهما وهي بصمتها المغلف بالحياء تلتحف، إلّا أنّ «حسين» قد تهلّلت أساريره وقد استشعر من كلمات الدكتور «مؤمن» أنّ شعوره تجاه «صفية» يجد مَن يباركه،

مثله لم يكن يجرؤ على الحلم بفتاة حتّى وهو نائم، حتّى وإن كانت في مثل ظروف «صفية» التي تتشابه كثيرًا مع ظروفه، معروفة القاعدة أنّ المتشابهيْن يتنافران، لكنّ بعض النفور هنا من المُهلكات كما أنّ بعض القبول مهلك لأمثالهما كذلك، لا ثوابت لأيتام الملاجئ في حيواتهم، إلّا أن يكون أحدهم مختلفًا كـ«حسين» وإحداهنّ متفرّدة كـ«صفية»، ثمّ لتكتب الأقدار كلمتها، والسّلام على من يقرأ وهو مؤمنٌ أنّ قدره كله خير.

****

أبشع الزّنازين الفردية تلك التي خلف الصّدور محلّها، حيث يُسْجَن في فؤاد أحدهم الحُب بلا جريرة، لمجرّد أنّ (النصيب) قد سبق أحدهم إليها، أو سبق إحداهنّ إليه!

قريبٌ جدًّا منها هو ذلك المجهول الذي كان يرسل إليها الورود، لكنّ «مريم» أبدًا لم تره كما ينبغي، دائمًا الأصبع الذكوريّ المعقوف على الأصبع الأنثويّ منذ الصغر لا تأخذه الفتيات على محْمل الجدّ، ما الذي قدْ يمثّله اسم «أحمد» لامرأة كـ«مريم» إلّا أنّه الآن أخو زوجها وفقط، حتّى وإنْ كانت كبرت معه كتفًا بكتف، ويومًا بيوم، وقلبًا دون قلب.

على الرّغم من أنّ كلّ حياة «أحمد» صدمات، إلّا أنّ أكبر صدمةٍ تلقّاها «أحمد منتصر» بحياته كانت هذا الصّباح بتوقيته هناك في «لندن»، حين عاود صديقه الوحيد الدكتور «مؤمن» الاتصالَ به أخيرًا من بعد ما يزيد عن مائة اتّصال من «أحمد»، لكنّ «مؤمن» لم يكن يجيبه، كم شعرَ «أحمد» أنّ «مريم» ليست بخير، ليلتان لم يغْفُ فيهما لحظة واحدة، ولم يترك فيهما هاتفه الجوّال من يديه،

عدم إجابة «مؤمن» لعشرات الاتّصالات منه رسّخت بداخله قلقه، حتّى جاءه اتّصال «مؤمن» أخيرًا ليخبره الأخير عبر الأثير أنّ «مريم» ليست بالبيت منذ ليلتين، ولا أحد يعرف عنها شيئًا حتّى أخوه «هيثم» ذاتُه.

كان صراخُ «أحمد» عبر الأثير مدوّيًا حتّى أنّ أذن «مؤمن» قد أصابها صفيرٌ مزعج لفينةٍ، حاول «مؤمن» لدقائقَ تهدئته دون جدوى، كان «أحمد» يصرخ وكأنّ أحدهم يمسك سكينًا ويمزّق في أحشائه هناك!

- «مريم».. يا الله.. «مريم».. يا «مؤمن».. «مريم»..

كمْ ظلمت الأقدار «أحمد» في «مريم»، لكنّ أكثر من ظلمه مع الأقدار من النّساء هي «مريم» ذاتها، بينما «أحمد» مِن بين الذكور هو مَن ظلم نفسه مع أقداره حين علم قدرها في نفسه ثمّ تركها تجدل من نفسها كلّ هذه العناءات لها وله.

لا يختار العاشق لنفسه مهْما حرص، فلا إرادة لَمن وهب إلّا أن يترك الموهوب يكتب له- بعد الله- مصائره، وكأنّ طائر الإنسان يفارق عنقه إلى مَن يحبّ حين يحب!

ربّما «مريم» لا تعرف أنّها مَن بدّلت مصير «أحمد» وغيّرت مسار حياته بأكملها، لكنّ «هيثم» فطِنَ إلى هذا جيدًا، وهو مَن استغلّ عشق أخيه الطاهر في قلبه لـ«مريم»؛ ليحوّل أخاه إلى ساكتٍ عن كلّ المنْكرات التي يراها حول «هيثم» رؤيةَ العين، وصامتًا كذلك عن ذكرها هي.. أمام العالمين، وهو الذي يتقرّب باسمها إلى ربّ العالمين ليلًا ونهارًا؛ دعاءً لها ورجاءً بها، وأمنيةً فيها، ثمّ يأمرها بالتّأمين بعد كلّ صلاة وكأنّها تسمعه:

- قولي آمين.

«أحمد» الذي تفرحه نسمة تلفح وجهَه على ذكر اسم «مريم»، أو زخّة مطر تشاطره دمعه عندما يغلبه الحنينُ إليها، أو غيمة صيفيّة تواري عنه الشّمس وهو يرفع أكفّه إلى الله بالدّعاء لها بظهر الغيب، وما أسعده لو وافقَ ذكرها اتصالاً من «مؤمن» يخبره الأخير فيه عبرَ الأثير أنّ «مريم» بخير! كيف سيكون حالُه وهو يستقبل مثله اتّصالاً من صديقه ليخبره أنْ لا أحد يعرف أين هي «مريم»؟! إذًا «مؤمن» الذي كان حمامة السّلام لروحه يأتيه من ريح «مريمه» بقبس بردٍ حين يخبره أنّها بخير، ها هو نفسه الذي يشعل نارًا في قلبه وهو يخبره أَنّ «مريم» ليست بخير.

ومِن أين بالسّلام للعاشق حين يفقد أثرَ مَن يحبّ وهو على المسافة مصلوب؟!

أوْ هكذا خُيّل لأخيه!

ليس حقيقيًّا أنّ «أحمد» مغلوبٌ باسمه كما ظنّ شقيقه «هيثم»؛ لمجرّد أنّ مثل الأخير لديه سلطة تصنيفه من مجرّد اسمه، إنّما يكبّل من صدق عشقه بسعادة مَن يحبّ، وحدها «مريم» مَن ألقمته للوهَن حين وافقتْ على الزّواج من أخيه، حين أُرّقت بعنته، وانتظرت مودّته، وصبرت على حجريّته وتصلّب ذائقته في الحب.

هل استسلم «أحمد» لغربته لأنّ هذا ما أراده أخوه؟! كلّا، لقد فرّ «أحمد» بعينيه من نار النّظر، أنْ يرى «مريم» بصحبة مَن لا تستحقّه حتّى وإن كان أخاه.

كان «أحمد» على يقينٍ بأنّ «هيثم» سيؤذيها، لطالما أخبرَ «مؤمن» بذلك، لم يكن الأخير يصدّق كلّاً ما ينقله إليه «أحمد» مِن ظنّ، كان يستنكر عليه كلّ

الأفكار التي تراوده فيفصح عنها إليه، حتّى حين صرخَ له الآن أنّه يعرف أين «مريم» ظنّ «مؤمن» أنّ «أحمد» مجرّد عاشق يهذي أو أخٍ بين نار عشقه ونار ظنونه، لكنّ «أحمد» سيثبت له قريبًا جدًّا أنّه على يقين.

– لم يعدِ الأمر ظنًّا يا «مريم»، ولم يعدْ يحول بيني وبينكِ إلّا تذكرة سفر ومحطتيّ إقلاعٍ وهبوط.

****

عاود «مؤمن» الاتّصالَ عدّة مرّات بالعمّ «سيد» عامل البوفيه في مكتب زوجته دون أن تأتيه من العجوز إجابة، لا سبيل إلى «مؤمن» إلّا أن يعاود الاتّصال من جديد حتّى يجيب الرّجل، ليس الأمر أنّ «صفية» تنامُ الآن هناك بالمكتب وحدها، وأنّه على مؤمن أن يخبر الرّجل بذلك قبل أن يوقع نفسه والفتاةَ في حرجٍ من دون داعٍ؛ بل الأمر أنّ سكرتيرة «أشجان» هي الأخرى هاتفها مغلَقٌ على الدّوامٍ، الأمر الذي استدعى في نفس «مؤمن» قلقًا على قلق، هل لاقتِ المرأة المصيرَ نفسه التي لاقته «كارولين» و«مريم»؟! يا الله ما هذا الذي يحدث؟ ولماذا كلّ هذا العناء الذي يتكبّده الجميع لمجرّد أنّ أحدهم وعد أكثر من مرّة وأخلف؟!

إنّها الفوضى بأبشع صورها حين تستشري في دولة القانون؛ فتمسي الدولة لأناسٍ دون أناس، ويصبح القانونُ على رقاب بعضٍ دون بعض.

مَن الذي يصدّق أنّ هناك عقارًا قد أحرق بمَن فيه مِن أحياء دون معرفة الجاني؟! وأنّ هناك امرأتيْن وطفلةً لا أحد يعرف أين هُم من غير تحرير محضرٍ أو تقديم بلاغ؟! أي عقل قد يستوعب أنْ لا أمان لَمن يضارُ في وطنه إلّا أنً يسكت أو... فإنّ مصيره القتل أو الخطف أو المطاردة؟!

أكثر ما يعذّب «أشجان» أنّها امرأةُ قانون؛ أنّها لا تستطيع حتّى السؤال عن والدتها وليس تحرير محضر بخطْفها، وابنة أخيها وصديقتها «مريم» يا الله! إلى أين تذهب مَن هي مثلُ «أشجان» بكلّ هذه الأمانات في رقبتها؟! إلى أين؟! أين؟!

– أريد أنْ أزور قبرَ أبي يا «مؤمن»؟! هل تسمح لي؟!

حنينٌ مفاجئ راودَها إلى أبيها، وإجابةٌ سريعة أتتها من زوجها:

– بل سأذهب معكِ يا حبيبتي.

ثمّ استدار «مؤمن» إلى «إنصاف» الجالسة في زاوية الغرفة على سجادة الصّلاة، بعد أن أدّت صلاة الظهر، ثمّ جلست تردّد بعض الذكر في سكون، شرد «مؤمن» قليلًا رغم أنّه كان يتوجّه بحديثه إليها:

– أمّي، "البيت بيتك، أرجوكِ لا تتحرّجي من شيء، كلّ شيء قد تحتاجينه موجود في المطبخ، لن نتأخّر بإذن الله، سأتّصل بـ«حسين» ونحن في الطريق، وسأجعله يأتي ويبقى معك حتّى نعود".

– اذهبَا يا ولدي ولا تقلقا عليّ، وجزاكما الله خيرًا على كرم الضّيافة هذا، أناسٌ غيركم لم يكونوا ليكرموا مَن هي مثلي، وأنا وابنتي السَّببُ في كلّ ما أنتم فيه.

لحظةٌ من الصمت سادتْ، كان «مؤمن» و«أشجان» فيها أقربَ إلى التشتت من صمت الإقرار كما ظنّت «إنصاف»، حتّى اتّجهت إليها «أشجان» قبل أن تقفَ على مسافة منها وهي تقول:

- سامحيني يا خالة «إنصاف»، أنا لا أجيدُ العناق وإظهارَ المشاعر أو مشاطرتها، سامح اللهُ والدتي حين لم تفهمْ أنني كنت طفلةً تنتظر منها ضمّة، فلمّا لم أحصل عليها منها نفرتُ من كلّ صدرٍ غير صدرها.. فأرجوكِ سامحيني على جمودي معك غير المقصود.

استدارتْ «أشجان» قليلًا حتّى استقبلت بعينها زوجَها على يمينها وهي تستطرد:

- وحدَه «مؤمن» مَن صبر على نفوري هذا، وإن كنت مازلت لا أبادئه الاقتراب، لكنْ لم أسمحْ لسواه أبدًا بضمّي ولم أرِحْ هامتي بعد أبي- رحمة الله عليه- إلى فوق أكتاف «مؤمن» وبين يديه.

كانت «أشجان» تتحدّث وهي تخطو نحْو زوجها فاستبقها الأخيرُ، ولَمْلمها في صدره بحبّ وهو يتمتم:

- ليتني أستطيع أنْ أخبّئك بين لحمي وعظمي وفي حشاي.. ليتني أستطيع يا «أشجان»، ليتني..

في مواقفَ مماثلة كانت مثل «إنصاف» لتختفي من المشهد بهدوء وتتركهما ينعمان بلحظتِهما الخاصّة هذه، لكنّ العجوز اقتربت منهما، وقامت باحتضانهما معًا وهي تباركهما بالدّعاء، طالت الضمّة قليلًا حتّى شعرت «إنصاف» بذراع «أشجان» وهي تنسحب من حوْل زوجها لتستقرّ على ظهر العجوز وهي تضغطها منه إليهما أكثرَ وأكثر.

رنّة جوّال «مؤمن» هي ما أنهت هذه اللّحظة الحميميّة بينهم، حين اضطرّ أن يتفقد هاتفه ليعرفَ مَن المتّصل، هُم في وقتٍ فاصلٍ لا يصلح فيه تجاهلُ رنّات الهواتف، خاصةً حين يصبح المتّصل هو العمّ «سيّد» الذي لم يُجب على

عشرات الاتّصالات من قِبل «مؤمن» خلال ساعتين ماضيتيْن، أشار بيده إلى الهاتف قبل أن يجيب العجوز:

– أين أنت يا رجل؟ لقد اتّصــ...

قطعَ «مؤمن» حديثَه فجأة حين أتاه عبرَ الأثير صوتٌ أنثويّ، فتنحنح في حرجٍ وهو يقول:

– عذرًا، أليس هذا هو هاتف عمّ «سيد» الذي يعمل بمكتب المحاماة الخاصّ بالأستاذة «أشجان عبد الرحمن»؟!

أتتْه الإجابة عبرَ الأثير بـ"نعم" تأكيدًا بأنّ الرّقم صحيح، ثمّ ما لبثت ملامح «مؤمن» أن تبدّلت إلى الأسى بسرعةٍ وهو يستمعُ إلى محدّثته برهبةٍ قبل أن يردّد في حزن:

– إنّا لله وإنّا إليه راجعون، لا حول ولا قوّة إلّا بالله.. البقاء لله، سامحينا يا أمّي كنت والأستاذة بعطلة، لم نستطعْ خلال يومين سابقين الوصولَ إلى سكرتيرة الأستاذة أو إلى العمّ «سيد»- رحمة الله عليه-، تقبّلي اعتذارنا وتعازينا.

قطّبت «أشجان» حاجبيها وهي تهزّ رأسها:

– ما الذي حدث يا «مؤمن»؟

– البقاء لله.. عمّ «سيد» في ذمّة الله.

– إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ربّي يغفر له ويرحمه، كم كان رجلًا طيبًا! متى حدث ذلك؟

– منذ ثلاثة أيام.

– يا الله! كيف لم تخبرني السّكرتيرة بالخبر؟! ولماذا هاتفها مغلَق؟! وكأن مكروهًا قد حدث لها هي الأخرى.

– لستُ أدري يا «أشجان»، لكنْ أظنّ أنّها بخير جدًّا، ألم يخطر ببالك أنّ ما حدث لوالدتك ولـ«مريم» قد وقعَ لهما بعد زيارة «صفية» تلك لمكتبك، ومقابلتها لـ«مريم» على اعتبارها أنتِ.. لماذا اختفت والدتك و«مريم» في اليوم التالي لتلك الزّيارة مباشرةً؟

بدتِ الفكرة لـ«أشجان» مرْعبة جدًّا، هل وصلَ والد «ديمة» المجهول ذاك إلى مكتبها، وجنّد سكرتيرتها كذلك؟! يا الله! متى حدث ذلك، وأين، ولماذا؟! هل قام بتهديدها أمْ بإغرائها بالمال حتّى سال لعابُها فوافقت على خيانة الأمانة؟!

– «أشجان»، هل مازلتِ ترغبين في زيارة قبر والدك؟!

– نعم، من فضلك هيّا؛ أنا أشعر أنّني أختنق، قد أجد بعض الهواء النقيّ هناك.

خطفَ «مؤمن» هاتفه النّقال من على الطاولة وهو يُخبرها أنّه سيجري اتصالًا بـ«حسين» حتّى تستعدّ هي للذهاب، انْهمك «مؤمن» في حديثه مع الشّاب بينما أعدّت له «إنصاف» كأسًا من الشاي وضعته أمامَه على الطاولة وهمّت تنصرف إلى المطبخ من جديد لولا أنّ «مؤمن» أوقفها بإشارةٍ من يده، وقفت العجوزُ عند مدخل غرفة المعيشة تنتظر من «مؤمن» أن ينهي حديثه

مع «حسين» حتّى تعرف منه ماذا يريد، ما أنْ أنهى «مؤمن» اتّصاله حتّى سألته «إنصاف» باهتمام:

- ألك حاجة يا ولدي؟!

- كنت أودّ أخذ رأيك في أمر ما يا أمّي.

اعتدلتِ العجوز في وقفتها وهي تقول:

- رأيي أنا! خيرًا يا ولدي! نسأل الله الهداية والرّشاد.

- تفضّلي أمّي بالجلوس أولًا لو سمحتِ.

جلستِ العجوز وهي متحفّزة تنتظر باهتمامٍ أن تعرف ما هو الأمرُ الذي يريد «مؤمن» أخذ رأيها فيه.

- إنّ عمّ «سيد» مات- رحمة الله عليه-، والسكرتيرة كما تعلمين لا ندري عنها شيئًا بعْد، وبالتّأكيد مكتب «أشجان» بحاجةٍ إلى شخصيْن يحلّان محلّهما، ولا أدري لماذا خطرَ ببالي «حسين» و«صفية» للوظيفتيْن، فما هو رأيكِ؟

- يا ولدي، جزاكَ الله خيرًا على طيبتك ودماثةِ خلقك، أسأل الله أن يرزقك كلّ ما تتمنّى، لكن....

اعتدلَ «مؤمن» في جلستِه وهو يستدركها للحديث بكلّ ما في نفسها:

- لكنْ ماذا يا أمّي؟ أرجوكِ تكلّمي دون تحفّظ.

ابتلعتِ العجوز ريقها وهي تجيبه:

- ربّما «حسين» مناسبًا، واختيارُه له موفّقٌ، فأنا عشتُ معه لأكثر من شهرين وما وجدتُ فيه إلّا كلّ خير، وأشهد اللهَ على ما أقول دون تزكيةٍ عليه،

لكن ماذا عن «صفية»؟! الفتاة ممرّضة، ولا خبرة لديها في مجال السّكرتارية، وأنا لا أعرف عنها أكثرَ ممّا تعرفه أنت يا بنيّ.

– أظنّها سبق وقالت وهي تقصّ تلك الأمور عن نفسها أنّها تعمل ضمن إدارة الملجأ، السّكرتارية ليست مُعضلة بالنسبة لـ«صفية»، أو لأيّ أحدٍ سواها، الأمر سهل. وستنمو خبرتها بالممارسة، أمّا عن خلقها فكلّنا يؤخَذ منّا ويُردّ في الخلق يا أمّي، لنُحسِن الظنّ بها، وإنْ شاء الله نجد فيها ما ظنناه.

هزّت «إنصاف» رأسَها تفهّمًا وهي تبتسمُ برضًا قبل أن تقول بصوتٍ يبعث في مَن يستمع إليه الطّمأنينة:

– بارك الله فيك يا ولدي، ورزقَك والأستاذةَ «أشجان» كلّ خير، مَن أحسن مع الله؛ اللهُ لن يضيّعه.

أمّن «مؤمن» على دعاء العجوز وهو يبارك القرارَ بطمأنينة:

– على بركة الله، الخيرةُ في ترتيب أقدارنا لكلّ أمرٍ من أمورنا، والله إنّي أنظر لتدابير القدرِ وأنا مُندهش، ومُنتظر لكلّ تنويرٍ سندركه بعد انتهاء هذا المخاض المؤلم، إنّي آملُ في الله خيرًا.

– ونعمَ بالله يا بني.. ونعم بالله.

في الطّريق إلى حيث يرقد والدُ «أشجان» في قبره بسلام، أفضى «مؤمن» إلى زوجته بما في نفسِه من أمر «صفية» و«حسين»، فأيّدت «أشجان» الفكرةَ وإن أبدت له نفسَ تحفّظ «إنصاف» عن «صفية»، فكرّر «مؤمن» لزوجته ما سبقَ وقاله للعجوز، لكن يبدو أنّ «أشجان» لم تقتنعْ كليةً بالفكرة، إلّا أنّها لم تبدِ اعتراضًا عليها في النهاية.

وصَلَا أخيرًا إلى المقابر التي ابتلعَ الطريق إليها بقيّة النهار، على كلّ حال فـ«أشجان» تحبّ زيارة والدها في هذا الوقت من المساء دومًا، وقفت «أشجان» في جلالٍ تبكي أمام شاهدِ والدها الذي حُفر فوقه اسمه باللّون الأسود اللامع، أخذت تقرأ بعض سور القرآن الكريم في حزنٍ قبل أن تبدأ حديثها إلى والدها وكأنّها تراه، انسحب «مؤمن» إلى الوراء قليلًا تاركًا لزوجته المساحةَ التي تحتاجها وهي تختلي بأبيها حتّى تنعمَ وحدها بأنْ لا يسمعها إلّا هو.

اقترب شابٌّ عشرينيّ من «مؤمن» بتودّدٍ، بيدَ أنّه عامل المقابر الجديد الذي ألقى التحية على «مؤمن» وهو يسأله، بينما ينظر إلى «أشجان» أمامهما:

- مَن لكم في تلك المقبرة يا ترى؟!

- إنّه والدها، هل أنت جديدٌ بالمكان؟! لم يسبقْ لي أن رأيتك من قبل.

- لستُ جديدًا، لكن أبي هو الحارس السابق هنا، وقد توفّاه الله منذ أيام- رحمة الله عليه- فأخذت مكانه بناءً على وصيته.

- رحمة الله عليه.

أشارَ الشابّ إلى المقبرة التي تقف أمامها «أشجان» قائلًا:

- هذه مقبرةُ أبي أيضًا، أظنّ أنذ أحدهم قد اشتراها وجعلها وقفًا لله.

ابتسمَ الدكتور «مؤمن» نصفَ ابتسامة وهو يتذكر ما سبق، وأخبرته «أشجان» به؛ أنّ أباها قد أوصى بقبرِه لذوي الحاجة بعد عام من دفنه فيه، فأخبر «مؤمن» الشابّ بأنّ مَن اشتراها هو والدُ زوجته التي تقف هناك،

كان «مؤمن» يتحدّث بصوتٍ خفيض بينما الشابّ كان يجهرُ بحديثه من دون قصد:

– سبحانَ الله حضرتك.. هل تعلمُ حضرتك أنّ داخل هذا القبر مع أبيها وأبي دُفن منذ ما يقارب الثلاثة أشهر شابٌ مسيحيّ وزوجتُه، كانا قد توفّيَا في حادثٍ مروعٍ ولمّـ....

قطعت «أشجان» حديثَ الشاب بالتفاتتها المُباغتة التي أفجعته، خاصّةً مع جحوظ عينيها وهي تخطو مباشرةً إليه، وكأنّها لم تعدْ ترى أمامها سواه:

– ماذا قلت الآن لو سمحت؟! حدثني بالتفصيل من فضلك عن ذلك الشابّ وزوجته، ما الذي حدثَ ذلك اليوم؟ ومتى كان موعدُ دفنهما بالتحديد؟!

انتفضَ الشاب وهو لا يدري ما الذي يحدُث حوله، هل قال شيئًا كان عليه أنْ لا يقوله؟! ما الغريبُ في ما قاله فاسْتدعى كلّ هذا الهلع في السيدة التي تتوجّه بحديثها إليه الآن؟!

بينما الشابّ غارقٌ بين ارتباكه وكل هذه الأسئلة في رأسه؛ نقلت «أشجان» طرفها إلى «مؤمن» وهي تقول له بصوتٍ راجٍ:

– هل قال شابّ مسيحيّ وزوجته؟! يا الله! أمعقولٌ أنّ أخي وزوجته الآن في أحضان أبي؟! أمعقول! يا الله! «مؤمن» أرجوك قلْ له أنْ يخبرني كلّ شيء عن أخي «مينا».. ما الذي حدث مع أخي؟!

لم تهتم «أشجان» قبل تلك اللحظة بمعرفة ما هو مصير أخيها الذي آل إليه وزوجتِه بعدَ تلك الحادثة، وكأنّها أسقطته كله من رأسها وقلبها وتفكيرها كذلك، لم تستطعْ «أشجان» نسيان كلّ ما فعله أخوها معها.

إنّ القسوة على (النون) تجعل أرواحهنّ مُعاندة، وعَنَد الأرواح أنْ تهجر بلا عود؛ تعند العين بهجْر النظر، ويعند الأنف بهجْر الشمّ، وتعند الذاكرة بهجر التذكّر، ويعند القلب بهجر الحنين، ويعندُ الثغر بهجر الحديث، وهجر القُبل، وهجر استقبال الزّفير من صدرٍ ليس لهامتهنّ فوقَه سكن.

على رقّتها فهي بعد السّقوط جارحة، لن تمدّ يدٌ رفعتَها أبدًا ليدٍ أسقطتها، هي تشدو تعاويذ غضب بعد أول جُرح منك، وإنْ حيزت على ذات اليد الدنيا قبل.. أمّا بعد، فهي خُلِقت لتهوّن عليك كبدَ عيشِك وتُعينك على السّير بشيء من الرّقة وكثيرٍ من العناق، لا تكن لها كأشواكِ صبارٍ ثمّ تمدّ لها بعضك، لن تثقَ في كفّ ممدودٍ سبقَ وأسقطها، فاحذر كلما هممت دفعَها أوّل مرّة.. و"احتضن".

****

متى سمعت أو قرأتَ مِن قبل عن مصطلح الحرب الباردة؟! وأين؟! ومتى؟! وماذا تعرف عنها؟!

لقد بدأتِ الحروب الباردة من دولٍ ضدّ دول، منذُ أُطلقت تلك الأقمار الصناعية المختلفة الجنسيات في الفضاء، ثمّ أُتبع إطلاق تلك الأقمار بمدّ كابلات الإنترنت عبر المحيطات والبِحار من قارّةٍ إلى أخرى، فصار كلّ شيءٍ ينتشر بسرعةٍ فائقة فاقت سرعة الضوء والصّوت نفسهما.

في زمن الحروبِ الباردة، لم يعدْ هناك أرضُ معركة، ولا عاديات تستقبل بظهورها الفرسان، ولا سيف ولا رمح ولا سهم.. في زمن الحروب الباردة صار الفضاءُ هو ساحةَ القتال وليس الأرض، وصارت الكلمةُ والورقة والصوتُ والصورة هُم أدوات النّزال، وأمّا العاديات الفضائيّة فصارت أسرع من رفّ العين حين تطرف؛ إذ بضغطة زرّ تُضرب أعناق، وببثّ مباشر تقوم دول، وبإذاعةٍ صوتية يظهر أناسٍ ويختفي آخرون.

في زمنِ الحروب الباردة، لم يكنْ «أحمد منتصر» يعرف أنّه حين يدعم الإنسانية فإنّه بذلك قد شنّ حربًا ضدّ أخيه «هيثم منتصر» دون قصدٍ منه ولا نية.

بدأ «أحمد» دعمَه للإنسانية منذ أكثر من عشرةِ أعوام قبل الآن، حين أنشأ باسمه عدّة صفحاتٍ إلكترونية وبدأ ينشر فوق بعضها كلّ الانتهاكات الإنسانية التي تقابله، ويبثّ- عبر مواقع أخرى- كلّ ما يسجّله من سلبيّات هنا وهناك، كان «أحمد» يقوم بتوثيق كلّ شيءٍ تقع عليه عيناه بحسب ما يتيح له الموقفُ نفسه، فإمّا يقوم بالتقاط صورٍ من دون صوت، وإمّا يقومُ بتسجيل صوتٍ من دون صورة، وإمّا يقوم بتوثيق الموقف بالصّوت وبالصورة، ومن ثمّ يقوم بنشر كلّ هذا على حائطه في كلّ موقع إلكترونيّ باسمه.

كلّ يوم كان يمرّ عليه كان يذيع صيته في فضاء الإنترنت وبين أصحاب الحساباتٍ على مواقع التواصل الاجتماعيّ المختلفة، كلّ يوم كان يمرّ كان يزداد متابعو «أحمد» أكثر وأكثرَ حتّى صار محلّ ثقة من البعض، فبدأت تنهال عليه الصّور التي تدعم الإنسانية من كافّة أنحاء الجمهورية،

وكثيرون صاروا يمدّوه بالانتهاكات الحقوقية هنا وهناك وهُم يطالبونه بنشْرها، لم يقتصرِ الأمر على الصّور فقط؛ بل والأفلام التوثيقيّة القصيرة وتسجيلات الصوت والمستندات الورقية كذلك.

كلّ شيءٍ بضغطةِ زرّ يتمّ رفعُه داخل أحد المواقع، ومن ثمّ يتمّ إرساله إلى أي مكانٍ فوق البسيطة بمنتهى السّرعة، وكلّ شيء كان يتمّ عرضُه وإن كان مجتزئًا!

وربّما هذه هي معضلةُ مَن يستقبل من كثيرين، ثمّ ينشر كلّ ما يستقبله دون مراجعة، لكنّ «أحمد» كان يتحرّى كلّ ما يصله بنيّة {فتبيّنوا}؛ وليته لم يفعل.

كمْ كان اسم أخيه «هيثم» متورطًا من قدمِه حتّى رأسه، في الكثير والكثير من الصور والصّوتيات والمرئيات كذلك.

مِن هنا، بدأ الخلافُ بين الأخ وأخيه، أحدهما يدعمُ الإنسان ويغلّب فيمَن حوله القيم الإنسانية، والآخرُ يتبع الأبالسة ويتقرّب من دون مَن حوله إلى الشياطين، ما لبث أن تحوّل الخلافُ من قبل «هيثم» إلى صراع، فالصراع إلى عنصرية، فالعنصرية إلى مطاردة، فالمطاردة إلى سجن، ثمّ هدنةٍ ونزولٍ على اتّفاق؛ أن يخرج «أحمد» من «مصر» بلا رجعة، فإنْ عاد فلا يبكيَنَّ على نفسه، وكم كانت المقايضة غالية! فـ«هيثم» كان يعلم جيدًا أنّ «مريم عامر» هي نفس «أحمد منتصر» التي من المستحيل أن يقامر بها أبدًا.

لم يكتفِ «هيثم» بما أملاه على أخيه «أحمد» مقابلَ سلامة مَن لوّح له بها.. «مريم»، بل سافر مع شقيقه إلى خارج البلاد بنفسه، وتأكّد «هيثم» بنفسه من استحالة عودة «أحمد» إلى «مصر» من جديد.

ربّما وافق «أحمد» على صفقةِ سفره خارج البلاد، وأن لا يعود ناشطًا إنسانيًّا مهما كتب اللهُ له أن يعيش، لكنْ ليس بالضرورة أن يصبح المرء إنسانًا باسمه لأنّه فلان ابن فلان فقط، من الممكن أن ينشئ المرءُ صفحةً باسم الإنسانية نفسها، اسم مستعار ومن ورائه هو إلى طريق ما ابتدأه دون اسمه؛ لكنّ لا يزال على الدّرب بنفسه وعقله وأفكاره، أمّا وجهه فقليلٌ من التنكّر يغيّره، وأمّا صوته ففي أحبال «أحمد» الصّوتية من المرونة ما تجعل نبرته تتبدّل من صوتٍ إلى آخرٍ مختلفٍ دون أدنى عناءٍ منه.

عاد «أحمد» يدعم الإنسانية من جديد، لكنْ هذه المرّة وهو بعيدٌ عن وطنه، حيث أنشأ عدّة صفحات إلكترونيّة باسم مستعار على كلّ مواقع التواصل الاجتماعي المختلفة، وبقي فوقها إنسانًا يخدم الإنسانية وفقط، أمّا لسان حال «أحمد منتصر» كلّما هاتفه شقيقه «هيثم منتصر» أن يردّد مقولته الشهيرة: "إنّ النّفوس المختارة حين تحزن تنذر لله صومًا، وصيامُ المختارين الصّمت، واتخاذ الأماكن القصيَّة عن البشر".

هبطتِ الطائرة القادمةُ من مطار «لندن» بمطار القاهرة بسلام، قبل أن يغادر معظم ركاب الطّائرة متنها، وبقي ثلّةٌ بين حواملَ وأسرٍ وكبارٍ في السن، من بين كبار السنّ الذين يهبطون سلّم الطائرة، كان هناك عجوزٌ يهبط درجاتِ السّلم شبه الرأسيّ بظهرٍ محنيّ، وهو يتكّئ على عكّازٍ في إحدى يديه وبعض خصلات شَعْره الأشقر الذي غالبه البياض تتطايرُ في الهواء بانسياب، صحيحٌ أنّ العجوزَ لا ينتظره بالمطار أحد، لكنّه هو مَن كان بروحٍ مشرئبّة كمَن ينتظر قادمًا، والحقيقة أنّه هو القادم لَمن لا تنتظره.

****

منذُ عاد «مؤمن» وزوجتُه من زيارة قبر والدها أوّل أمس و«أشجان» في غرفتها ترفض الطّعام والشراب والحديث كذلك، لماذا نحزنُ فجأة أمام الموت وإنْ كان زائرًا لعزيزٍ حذفنا اسمَه يومًا من قائمة الأحباء؟!

لم يشكّ «مؤمن» للحظةٍ أن زوجته لن تكون في غير الحالة التي هي عليها منذ عرفت أنّ أخاها مات، بينما «أشجان» اعتقدتْ أنّ «مينا» منزوعٌ من قلبها منذ سنين، حتّى سمعت ما سمعته أوّل أمس من ذلك الشابّ- حارس المقابر- عن دفن شابّ يدعى «مينا وجيه بيشوي» وزوجته حديثًا إلى جوار أبيها، ورغم أنّ هذا لا يجوز في الدّين الإسلاميّ، لكنّ نفسًا لا تدري أين تموت هي أيضًا لا تدري أين تدفَن!

قدرُ الله حين شاء نزل، ثمّ هو أبوها همزةُ وصْلها القلبية بكلّ من نزعتهم أفعالهم من فؤادها سابقًا، أن يهبَ والد «أشجان» مقبرته لله، فأوّل مَن يُدفن فيها بعده هو ربيبُه وزوجته رغم كلّ شيء!

عدّة طرقاتٍ على باب غرفة «أشجان» تزامنت مع صوت «إنصاف» الهادئ إذ العجوز تستأذن «أشجان» بالدخول.

- من فضلكِ يا خالة «إنصاف» أريد أن أكون وحدي لبعض الوقت.

لم يُثنِ رجاء «أشجان» العجوزَ عن رغبتها في الدخول فعاودت الاستئذان مرّة أخرى:

- أريدك في شيء هامّ يا ابنتي، من فضلكِ أنتِ اسمحي لي أنْ أدخل الآن ربما لا وقت لديّ إلّا الآن صدّقيني.

أوخزت العجوزُ ضميرَ «أشجان» بتلك الكلمات، لكنّها لم تكن تقصدُ ذلك، هي بالفعل تشعر أنّ أجلها قد اقترب وهي لديها ما تريد أنْ توكله

لـ«أشجان» قبل أن ترحل عن هذه الحياة الدّنيا، وكأنّ قدر «أشجان» أن تحمل أمانات الجميع!

على مضض همّت «أشجان» بالجلوس بوسطِ السرير بدلًا من استلقائها فوقه وهي تدعو «إنصاف» للدخول:

- تفضّلي يا خالة.

دلفتِ العجوز إلى غرفة نوم «أشجان» المعتمة على ضوء النهار الذي تكبّدت شمسه السّماء لكنّ الستائر السوداء التي قامت «أشجان» بإغلاقها قد جعلت الغرفةَ تبدو في زمان غيرِ الزمان الحقيقي الذي يحيط بها من الخارج.

- يا الله! ما هذه العتمة التي تحيطين نفسك بها يا ابنتي؟! هل أضيء المصباح أم أفتح السّتائر قليلًا؟

أشارت «أشجان» إلى النافذة وهي تضع كفّها على جبينها استعدادًا لصدمة الضوء على عينيها المُغْمضتين:

- بل أزيحي الستائر قليلًا من فضلك.

اقشعرّ جسد «أشجان» حين شعرتْ بدفء يلامس كفّها، فتحت عينيها دفعة واحدة فوجدتها تنظرُ إليها بعينيها السّوداوين وهي تبتسم كالملائكة، بينما تتشبّث بأصبعها وتجذبه في مرح، لم تستطعْ «أشجان» منعَ نفسها من الابتسام للصغيرة، و«ديمة» مازالت تشاكسها بابتسامتها البريئة وهي تجذبها من أصبعها مُصدرةً همهماتِ الصّغار وهي تضرب بقدميها في الهواء، «أشجان» لا علاقة لها بهذه الكائنات الصغيرة، ولا تعرف أي شيء عنها أو

عن كيفية التعامل معها، كثيرًا ما كانت تتعجّب من عدم توْقِها إلى الإنجاب على غير رغبة زوجها الذي لم يخْفها في بداية زواجهما، ولكن دون إلحاحٍ منه.

كمْ تخشى «أشجان» على نفسها مِن التعلّق، إنّها تعاني من رهاب التعلّق، ثمّ قلق الخوف من الحرمان لأيّ سبب، كلّ شيء فيه من العاطفة ملمحٌ تفرّ «أشجان» منه فرارًا، كم عانى «مؤمن» معها في بداية زواجهما، نفورُها كان أطغى مِن حلولها عند المسافات الصفرية، لكنّ «مؤمن» كان زوجًا بدرجة عاشق، يعرف متى يقتربُ منها ومتى يوليها ظهره، متى يبسطُ له أكفّه، ومتى يحتضنُ الهواء لمجرّد أنّ أنفاسها فيه، متى يستقبل هامتها على كتفه ومتى يستقبل رأسَها في صدره، ومتى يحدّثها بما في نفسه، ومتى يصمت وهو يستمع إلى ما في نفسها، «مؤمن» كان يرى في «أشجان» مُهرةً لا يعجبها في العالم صخبه، ففتح لها ذراعيه ولم يزعجها بكثرة النّداءات، لقد مدّ لها روحه جسرًا، وتركها هي تأخذ طريقَها إليه.. ولم يبرحها حتّى بلغته.

لا تزال «ديمة» تلامسُ أصابع «أشجان» ببراءة، ولا تزال الأخيرة سابحةً في أغوار حقيقتها التي لم تفصح عنها أبدًا لأحد.

- اللّهم بارك. أظنّ أنّ «ديمة» قد اختصرتْ عليّ الكثير من الكلام يا ابنتي باطمئنانها إلى روحك دون بذلٍ منكِ، قلوبُنا يقلّبها الرّحمن بين أصبعيه كيف يشاء.

رفعَتْ «أشجان» طرفَها إلى العجوز التي كانت تتحدّث بصوتٍ واهن؛ فإذا بوجه المرأة شاحبًا، وقد بدا عليه الإعياء جليًّا.

- خالة «أشجان»، ماذا بكِ؟! هل أنتِ مريضة؟! هل هناك شيء يؤلمك؟!

سالتْ دموع العجوزِ دافئة على وجنتيْها وخرج صوتُها مختنقًا بالعبرات:

– بل أنا بين حنينَيْن؛ حنيني لابنتي وحنيني لأمّكِ يا «أشجان»، أريد أنْ أرى أمّكِ لمرّةٍ أخيرة قبل أن أذهب إلى ابنتي.

اقشعرّ جسدُ «أشجان» للمرّة الثّانية، ولكنّ هذه المرّة ليس إقرارًا من مسامّها بقرب أحدهم منْها، ولكنْ إقرارٌ من روحِها بأنّها تعلّقت بـ«إنصاف» بالفعل، وكأنّ حنيني العجوز انتقلا إليها.. فاقشعرّ جسدُها حنينًا لأبيها وأمّها! فتمتمت بصوتٍ باكٍ:

– رحمَ اللهُ أبي وابنتك يا خالة، وجَمعني الله وإيّاكِ بوالدتي على خير.

ضمّتْ «إنصاف» رأسَ «أشجان» إلى صدرها وهي تؤمّن على دعائها مربّتةً على كتفها بحنان، بينما «ديمة» مازالت متشبّثة بأصبعها وهي تسبحُ بقدميها وذراعيها في الهواء.

– أريدُ أن أدعَ لكِ أمانةً وأطلب منكِ شيئًا يا ابنتي، وأنا ممّا سمعته منكِ وعرفته عنكِ من ولدي الدكتور «مؤمن»؛ أعرفُ أنّكِ للأمانة أهل.

نطقتْ بها «إنصاف» حين شعرت بـ«أشجان» وهي تسحب رأسها من بين ذراعيها في هدوء، فأفلتَتْها العجوز وهي تجلسُ إلى جوارها، وأخذت تلامس «ديمة» مداعبة، فاعتدلت «أشجان» في جلستها وأخذت تهندمُ ملابسها وهي تعيدُ إحدى خصلات شَعْرها إلى الوراء قائلة بعينين يتلألأ الدمع فوقهما:

– خيرًا يا خالة، وإنْ كانت الأماناتُ أتعبتني، لكن تحت أمر حضرتك.

أخذتِ العجوز كفَّ «أشجان»، ووضعتها فوق صدر «ديمة» وهي تنظر إلى الصغيرة بإشفاق:

– هذه هي أمانتك يا ابنتي.

صمتتِ العجوز لحظة لتعطي لـ«أشجان» فرصةَ الاعتراض إنْ أرادت، لكنّها لم تستقبل منها أيّ اعتراض، وإنْ بدت على وجْهها الدّهشة فاستطردت العجوز حديثها:

– أنتِ دكتورة في القانون، جِدِي لهذه الصّغيرة من التّجهيل مخرجًا، واجعليها بين النّاس معرفة، النّاس يا ابنتي يخشون الغريب، فما بالك إنْ بدا لهم بلا أصل، أنا أمامك الآن واحدةٌ من الأصول بشحمي ولحمي، أنا «إنصاف» جدّة الصغيرة «ديمة»، وأمّها هي ابنتي «عزة»، ما ذنبُ الحمامة أنّ نسرًا غرّر بأمّه.

ألمٌ بصدر العجوز إثر وخزةٍ فيه جعلت «إنصاف» تقطع حديثها، فهبّت «أشجان» واقفة تتفقّدها في قلق:

– هل أنتِ بخير يا خالة؟

والتفتتْ «أشجان» باتّجاه باب الغرفة، وهمّت أن تنادي على زوجها الدكتور «مؤمن» لكن العجوز أوقفتها وهي تطمئنها:

– لا تقلقي يا ابنتي، أنا بخير. دعيني أتمّم حديثي معكِ أولًا وقبل أيّ شيء، أمّا الأمانة فهي «ديمة»، وأمّا الطلب فهو شقتي.

نظرتْ إليها «أشجان» وقد بدتْ عليها الحيرة، فسعلت العجوز قبل أن تستطرد:

– كنت أنوي أن أكتبها باسم «ديمة»، لكن ما كنت أعرف كيف يمكنني كتابتها باسمها والصّغيرة بلا اسم! أوّل أمس استخرتُ الله في أمري، وقرّرت أن أكتب الشقة باسم «حسين» و«صفية»، لقد صارحني الشابّ برغبته في الزّواج من الفتاة، فليبيعاها ويشتريَا بثمنها شقّة تناسبهما في مكانٍ آخر، وليتزوّجا ويهْنَئا بحياتهما آمين.

ابتسمتِ العجوز في وهنٍ وهي تستطرد مداعبةً قلب «أشجان» بحبّ:

– البركةُ في أبيكِ يا بنت أبيكِ، هو فتح قبره لَمن هُم بلا قبر، وأنا فتحت بيتي لَمن هما بلا بيت. أبوكِ مَن ألهمني، رحمة الله عليه يا ابنتي، هي صدقتُنا الجارية بعد أنْ يتوقّف فينا كلّ شيء، اللّهم ارْحمنا يوم يتخلّى الولدُ والخلّ.

هذه المرّة، خان الدّمع عينيّ «أشجان» فلم يبقَ حيث تواريه دائمًا، غافلتها دموعها وانسكبتْ على وجنتيها حارّة، وكأنّ عينيْها فوّهتي بركانٍ طال داخلهما غليانُ الدّمع فسال حارقًا وجنتيها:

– لا أراني اللهُ فيكِ مكروهًا يا أمّي، وجمعني وإيّاكِ بوالدتي على خيرٍ عاجل غير آجل.

لم تستطعْ «إنصاف» كبحَ جماح نفسها أن لا ترتمي في أحضان «أشجان» بعد أن سمعتها منها لأوّل مرّة منذ استقبلتها وزوجها في هذا البيت– أمّي–.

اليوم، صار لـ«إنصاف» من البنات اثنتان، ولها من الذّكور ولدان، وهي التي ظنّت أنّها بعد وفاة ابنتها الوحيدة «عزة» لن تسمعَ هذه الكلمة أبدًا إلّا من «حسين»؛ الشاب اليتيم الذي طالما كنّاها بها حتّى حينما كانت «عزة» على قيد الحياة.

لم تكن تتوقّع العجوز التي اعتبرتْ «أشجان»- في تلك اللحظة- هي آخر إضافة في قائمة أبنائها من رحم القدر؛ أنّ هناك ابنًا جديدًا يهاتف الآن الدكتور «مؤمن» بالخارج، وأنّه سينضمّ الليلة إلى قائمة إخوته في أمومتها.

****

ليسَ بين المسافر والمُقيم إلّا الإيمان، وكلّ مذبذبٍ في الحُبِّ مسافرٌ وكلّ ثابتٍ مقيم، غير أنّ بعضَ الأجزاء الخفيَّة من الصّور المسموعة خانقة، درجة الحبّ فقط هي التي تجلب على المحبِّ عند الصّمت حسن الظنّ أو سوءَه، فلا يُخفي محبّ شيئًا عن عمدٍ؛ إلّا من فرط ما يحملُه من "حزن" أو "ضعف"، كلاهُما وجعٌ لحامله، ذلك الذي يحمي شطرَه من كشفٍ مسيء، وعلى مَن امتثل لأمرِ الله ها هنا سلام.. ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدَ لكم تسؤكم﴾.

لم تنفكّ «أشجان» تسأل زوجَها عن أسباب عودة صديقه «أحمد» في هذا الوقت، عندما أخبرَها «مؤمن» أنّ «أحمد» عادَ إلى مصر فجأة، وأنّه في طريقه إليه الآن، لكن "مؤمن" لم يعطِها إجابة واضحة، الأمرُ الذي زرع في نفسِها الحيرة، كلّ ما تعرفه «أشجان» عن «أحمد» أنّه شقيق «هيثم» وزوجها، والأخير أصدقاء من الدّرجة غير الحميمة، لكن يربطهما ببعضهما شيء ما، سبقَ وحدّثها «مؤمن» عنه مؤخرًا، ولكن قلبها يحدّثها أنّ الأمرَ أكبر من مجرّد شراكةٍ قديمة، ولها امتدادٌ بين الأسرتين من جيلٍ إلى جيل، وأغرب ما عرفته «أشجان» بهذا الصّدد أنّ «هيثم» لا يعرف عنٍ علاقة زوجها بشقيقه شيئًا مثلها تمامًا الآن، الأمر الذي اضطرّها لتوجيه الكثير من التساؤلات لـ«مؤمن»،

والأخير لم يفصحْ لها إلّا بالقليل ثمّ يصمتُ طويلًا، ماذا سيقول لها زوجها وكلّ ما بينه وبين «أحمد منتصر» لا يصلح الإفصاح عنه لأيّ أحد مهْما كان قريبًا منه، ستسامحه زوجته يومًا ما إذا أفصح القدر عن حقيقة كلّ شيء.

– حسنًا، سأعود اليوم إلى عملي يا «مؤمن»، لقد أخبرتني «صفية» أمس أنّها أعطت مواعيدَ لبعض الزّبائن، وأنّ منهم مَن يريد التعامل معي شخصيًّا، وليس مع أحدٍ من محاميّ مكتبي، لا بدّ للحياة أن تستمر رغم كلّ شيء.

أشاحتْ بوجهها عنْ زوجها للحظةٍ قبل أن تتّجه إلى غرفتها وهي مندفعة من شدّة الغيظ، ثمّ وقفت على باب الغرفة وهي ترفع أصبعها أمامها وكأنّها تحذّره:

– اليوم سأحرّر محضرًا بتغيّب أمّي، وسأضعُ في المحضر تفاصيل زيارة «صفية» لمكتبي أوّل مرّة، ومقابلتها «مريم» واختفاء سكرتيرتي المُريب، سأضع بالمحضر كلّ شيء.. كلّ شيء.

ثمّ دلفت إلى غرفتها، وأغلقت بابَها خلفها بقوّة، حتّى أنّ «إنصاف» هرولت وهي تستند إلى الحائط مِن أثر الدّويّ الذي أفزع «ديمة» وجدتها معها:

– ماذا هناك يا ولدي؟! هل كلّ شيءٍ بخير؟! لقد سمعـ..

– لا تقلقي، ليس هناك شيء يا أمّي.

كان رأسُ «مؤمن» بين راحتيه وهو يجيبُ العجوز دون أن ينظر إليها، رفعت «إنصاف» كفّها في الهواء تضربُه وهي تستديرُ عائدة إلى الداخل، بينما تردّد بعض الذكر.

كلّ شيء يسير باتجاهٍ غير الذي تمنّاه «مؤمن»، حين جاءته مباركة قراره في أن يعود إلى مصر، اكتشف «مؤمن» بعدَ وفاة أبيه أنّ الأخير وأمّه لم يخرجا من البلاد إلّا مجبريْن، عرف «مؤمن» السّر بعد أنْ عادَ والداه إلى الوطن، وهُما في التّوابيت ليدفنا فيه، ليست الشّراكة التي تحدّث بها إلى زوجته بين أسرته وأسرة «منتصر» بشراكة المال أو حتّى الأرض؛ إنّها شَراكة الدّم، وكلّ ما دون الدّم هيّن لكن هَوْن الدّماء لا يجهره إلّا الطواغيت ممّن يملي الله لهم.

لكنّ الله يفلتهم حتّى حين عندما يكون بينهم مَن هو مثل «أحمد».. «أحمد منتصر»، الذي خطفه الحبّ فاعتزل، ومَن ركنه سطع من داخله الإنسان ولم يأفُل.

كانت فكرة «أحمد» عن الحبّ أنّه ذلك الشّعور الذي تختبره المسافة فيكتحل به القلب، وتتوشّح به الرّوح، ويسمو به البدن، حتّى أنّ الأرض لتطوى بين متحابّيْن بنظرة للقمر أو باستقبال شعاع شمسٍ فجأة من خصاص النوافذ، وكانت فكرته عن السعادة أنْ يرى مَن يحبّ سعيدًا، ظلّت قناعاته في الحبّ والسّعادة كما هي حتّى وجد «مريم» بين ذراعي أخيه!، داهمه ساعتَها الحزن، لكن ما بدأ ترنّحه، بكاؤه ونحيبه؛ إلّا عندما لم يجد سعادتها في عينيها، وما جنّ جنونه إلّا وهي تنعي بنفسها نفسَها إليه وهي تقصّ له حالها مع «هيثم».

كانت «مريم» حزينةً إلى حدّ الانكسار، وكانت الكلمات تخرج من جوفها كشظايا الزجاج المكسور تدمي دواخلها ودواخله أيضًا وهي لا تدري:

– لكن.. لماذا؟! لماذا يجب عليّ أن أبكي الأشياء التي تُكسر؟! والعادات التي تتغير؟! واللّيالي التي تُهجَر؟! والصّباحات التي لا يكون مبتدأها "صباحي أنتِ"؟! لماذا يجب أنْ لا يلتفت هو وأبقى أنا أسيرة المواعيد؟!

ككُلّهن يريدني؟! أم كلّهن يراني؟! ليت أخاك يُجيبني، ليت «هيثم» يُريحني بإجابةٍ فشتّان بين أن يريد وأنْ يشعر؛ الأولى من النّفس، والثّانية من الروح.. وبالرّوح نحب.

– وإيّاكِ أحبّ يا «مريم».

استردّ «أحمد» بهذه الجُملة الزمان والمكانَ الحاليّيْن من براثن ذكرياته التي تداهمه بلا رحمة منذُ عرف بخبرِ اختفاء «مريم»، قبل أن يجفّف برفق دموعه التي أغرقت وجهه وهو مستندٌ برأسه إلى مقعده داخل السّيارة الأجرة وهو في طريقه إلى عنوان صديقه «مؤمن»، ظلّ يتفقّد وجهه في المرآة الجانبية للسيارة بين الفينةِ والأخرى في قلق حتّى أنزله السّائق أمام العقار الذي يقطنُ الدكتور «مؤمن» في الطابق العاشر منه، اجتاز مدخل العقار برشاقةٍ جلبت الدّهشة على وجه حارس العقار وهو يتابعه بنظرة انبهار لمْ يدرِ «أحمد» ما سببها، ظنّ أنّها من أجل المال، فمدّ يده في جيب بنطاله وأعطاه ورقة مالية، النّقوشُ فوقها باللّون الأخضر، قلّبها الرّجل في كفيْه وهو يبتسم وعلاماتُ الدهشة تزول من وجهِه، بينما يتمتم مرحّبًا بكلماتٍ إنجليزية ركيكة لم يبالِ «أحمد» بالرد عليها وهو يدور حول نفسه داخل المصعد قبل أن يغلق بابه وهو يضغط على الرّقم عشرة فيبدأ المصعد في الصعود.

فتحَ «مؤمن» بابَ الشّقة متوجسًا بعدما نظر من العدسة المكبّرة المثبتة في منتصفه تمامًا، وأطلذ بجزء من رأسه وهو يتساءل:

– مَن حضرتك؟! أيّ الأدوار تريد؟! هذا هو الدّور العاشر يا سيدي.

– افتحْ يا «مؤمن»، أنا «أحمد»، كفّ عن المزاح يا دكتور.

مزاح! عن أيّ مزاح يتحدث هذا العجوز؟! كلا إنّه صوت..

- «أحمد».

تركَ «مؤمن» البابَ يفتح على مصراعيه وهو يصرخ باستغراب:

- «أحمد منتصر»! لكن كيف.. كيف...

وأخذَ «مؤمن» يرسم بكلتا راحتيه دوائرَ في الهواء وهو لا يعرف لسؤاله صيغةً من شدّة دهشته.. كيف استطاع «أحمد» أن يصبح هذا العجوز الذي يقف أمامه؟!

****

جلسَ «أحمد» و«مؤمن» في غرفة مكتب الأخير بشقته وقد أغلق «مؤمن» بابها عليهما من الدّاخل قرابة ساعتين، قصّ له فيها «أحمد» كلّ شيء عن تنكّره، وكيف أنّه تلقى مجموعة من الدورات في فن التنكر، وكيف أنّه برع في هذا المجال وحصل على جوائز دوليّة فيه.

- لم تقلْ لي أيّ من هذا من قبل!

شردَ «أحمد» بفكره قليلًا وهو يقول:

- ليسَ كلّ ما يعرف يُقال يا «مؤمن»، بعض ما يخصنا حين يخرج لسوانا قد يضرنا وسوانا على حدٍّ سواء، كلّ شيءٍ بمقدارٍ يا صديقي.

صحيحٌ «أحمد» لديه حقّ، الأفضل أن نكتفي من البعض بما نسمعه ونراه، بما يظهرونه لنا من جانبهم، فإنّ حقيقة البشر كاملة مرهقة، ولا قِبَل لنا بها في كثيرٍ من الأحيان، وإن الاطّلاع الكلّي هو بينَ أخطارٍ قد تحاوطنا معهم، أو يعني انطفاء نورهم في عيوننا أو إحراقهم على يدينا رغمًا أو بدمٍ بارد،

لنلتقطَ منهم أفضل صورة طالما أنهم حريصون عليها، فبعض الناس لا يعجبهم في أنفسهم ما يعرفونه هُم عنهم، ويحاولون محوه أو في ذلك يجتهدون، والبعض الآخر لديه من الأسرار ما يستجمع أشرار العالم وكأنّ حديث البعض للبعض كجرحِ أحدنا في محيط أسماك القرش، هل تفرق الفكوك حينها بين نازفٍ وسليمٍ؟!

– عندك حق يا أحمد؛ فقط أخبرني من أيـ..

قاطعَه «أحمد» بإشارةٍ من أصبعه، وكأنه يقول له لأ.. لأ، لأ:

– ألم تَعِ ما قلتُه بعد؟! يا «مؤمن»، لا تسألني كيف حصلت على جواز السفر بهيئتيَ الجديدة هذه، لكنْ دعني أبشّرك أنّني قد حصلت عليه من هنا من داخل مصر، أبشرْ يا «مؤمن» لا يزال الشّرفاء هنا في مصر في كلّ مكان صدقني.

ورفع راحته وهو يعلّق سبّابته في بطن إبهامه مؤكدًا:

– في كلّ مكان..

قطّب الدكتور «مؤمن» حاجبيه في حذر:

– ما الذي تنوي فعله يا «أحمد»؟

– سأحارب النجوم في كبد فضائهم، ولنرَ ما الذي يمكنهم فعله أمام كلّ الحقائق التي ستنهال على أسمائهم اسمًا اسمًا، بعدها سينقلب كلّ شيء رأسًا على عقب ومن ثمّ سأعيد «مريم» وحماتك «كارولين» وحفيدتها والكثير.. والكثير معهم سيعودون إلى ذويهم بإذن الله.

هزّ الدكتور «مؤمن» رأسَه عندما تذكّر حال زوجته وهو يقول بأسى:

- اليوم جنّ جنون «أشجان»، لقد سألتني عشرات الأسئلة التي لا يمكنني الإجابة عنها، فلفظتني إلى عنادها، وأخبرتني أنّها ستحرّر محضرًا باختفاء والدتها، وستدوّن فيه كلّ شيء.

ربّت «أحمد» على كتف «مؤمن» مطمئنًا إيّاه:

- لا تقلق يا صديقي سيتغيّر كلّ شيء بسرعة، لن يصبح لدى أحدٍ وقتٌ يلتفت فيه إلى مثله بلاغ صدقني.

نطقها «أحمد» هو يدور حول مكتب «مؤمن» وهو يستأذنه في الجلوس على جهاز الحاسوب الخاصّ به، فأشار له «مؤمن» بإيماءةٍ من رأسه وإشارة من يده تعني تفضّل، سجّل «أحمد» خروجًا من حسابات «مؤمن» كلّها، وانهمك في إنشاء حسابات جديدة، و«مؤمن» يتابعه بفضول:

- ألنْ تزيل تنكّرك هذا يا «أحمد»، كلّما التفتّ إليك أشعر بالغربة يا صديقي.

ابتسم «أحمد» بحزنٍ وهو يضغط فكّيه حتّى صدر عنهما صريرٌ.. هو لا شيء بجوار الصّرير الذي تصدره روحُه، ولا أحد يشعر به، أخذ يضرب بأصابعه على أزرار لوحة المفاتيح أمامه لأكثر من ساعة بقليل دون توقف.

- ما هذه السّرعة المملّة للإنترنت، وكأنّه سلحفاة؟! ما بال كلّ تقدمٍ في هذا الوطن يأتي متأخّرًا عن كلّ أوطان العالم، متأخّرًا جدًّا.

لم يجبْه «مؤمن» واستند برأسِه إلى الحائط خلفه، وأغلق عينيه وكأنّه غطّ في نوم عميق.

أدارَ «أحمد» شاشة الحاسوب ليجعلها في مواجهة الأريكة التي يجلس فوقها «مؤمن»، وأخذَ «أحمد» يطرقع بوسطاه وإبهامه وسبّابته ليلفتَ نظر «مؤمن» إليه وإلى شاشة الحاسوب، فتح الأخير عينيه قائلًا:

– أنا مُستيقظ فقط، شردَ ذهني في كلّ شيء يحدُث حولنا فأغمضت عيني من كثرة الصّور.

– لا أريد لذهنك أن يتشتّت ولا لعينيك أنْ تغمضا، فقط راقبْ معي ما سيتمّ نشره على هذه الصّفحات؛ فإنّ الشهبَ ستبدأ في الانفجار، وكذلك النجوم، ستهوي خلال دقائق من الآن.

نطقَها «أحمد» وهو ينظر إلى ساعته مستطردًا:

– بالتّحديد بعد ساعتين وخمسةٍ وأربعين دقيقة من الآن، أي في السابعة مساءً بالضبط.

****

لم تنتَهِ «أشجان» من عملها بعد، لكنّها طلبت من «صفية» أن تعتذرَ لَمَن لم تقابله من أصحاب القضايا بالخارج، على أنْ تلقاهم في اليوم التالي لَمَن لا يزال منهم متشبثًا بها كدفاع عنه في قضيته، ألمٌ برأسها لم تستطعْ «أشجان» أن تتحمّله بعد خروج تلكَ المرأة من مكتبها وهي تدعو لها لقبولها قضيّتها، ليست مجرّد زبونة تقصد بشكلٍ عشوائي مكتب محاماة ما لتوكل لصاحبتِهِ قضية، إنّها إحدى الممرّضاتٍ اللواتي تعملنَ في مشفى زوجها الدّكتور «مؤمن»، عرضتِ المرأة قضيّتها، وكادتْ تغادر لكنّها أبت إلّا أن تمحو أحد أحْجيات الحكاية التي تصلُ إلى «أشجان» على هيئة شخوص ليس بينهم رابط إلّا الإنسانية.

- بالمُناسبة يا أستاذة، هل جاءتك امرأة منذ بضعة أشهر لترفع قضيةَ نسبٍ ما على زوجها الذي تزوّجها عرفيًّا، ثمّ تنصّل من أبوة وليدتها؟!

انتبهت «أشجان» للسيدة التي استطردت دون انتظار ردّ لسؤالها:

- مسكينة تلك المرأة، كانت تهذي كثيرًا أثناء عملية التوليد، لمّا استفاقت من التخدير أنا أعطيتها بطاقة مكتبك التعريفية -كان الدكتور «مؤمن» سبق ووزع علينا بعضها كدعايةٍ لحضرتك-، وقلت لها إنّكِ ستتعاطفين معها ومع ابنتها خاصّة.

تنحنحتِ المرأة في حرجٍ وهي تستكمل حديثها بصوتٍ منخفض:

- خاصّةً أنّ حضرتك لم تنجبي، وتعرفين معاناة مَن هي مثلها من المشتاقات إلى الأطفال.

لم تتلقّ المرأةُ ردًّا من «أشجان»، فشعرت بالحرج أكثر وأكثر قبل أن تستأذن في الذهاب وهي تسأل نفسها.. ما الذي قلته! يا لغبائي! كيف أشير إلى أمرِ عدم إنجابها بهذا الشكل؟! ظلّت المرأةُ تلوم نفسَها همسًا حتّى خرجت من مكتب «أشجان» وأغلقت بابَه عليها من الخارج.

صداعٌ برأس «أشجان» يكادُ يفتك بها، بخلاف أنّها لا تأكل جيدًا منذ بضعة أيام؛ فإن كلّ الأحداث التي مرّت بها ترهقها بشدّة، مفاجآت بلا نهاية وأحداث متلاحقة، يصعب على مثلها التّعايش مع كلّ هذا الزّخم من الأحداث الخاصّة، لا تدري هل هي اعتادت الوحدة حتّى ألفتها، أم أنّ «أشجان» قد خُلقت للوحدة من الأساس؟!

إنّ من البشر مَن لم يُخلق لرفقة البشر، تكوين البعض فوق هذه البسيطة غير قابل للخلط، بعض البشر كالشّمس والقمر، وكنجوم الهداية، هُم أنفع في مدارهم، هُم أجمل في أماكنهم، هُم رائعون جدًّا من تلك المسافة، يا ويلَ مَن يطمع للصعود إليهم، فالشمس تحرق من يقترب، والقمر لا أنفاس لنا فوقه، وحتّى النجوم ونحن نرنو للَمْسها بطول التطلّع قد تهوي بنا.

قبلَ وفاة والدها كانت «أشجان» تكتفي به، وبقربها منه فقط، لم يحتلّ أحد بداخلها مكانه سوى «مؤمن»، في بداية حياتها معه كان رهاب القرب مازال يسيطر عليها، والأنثى حين تخافُ تقسو، وعلى قدر أنوثتها كمْ كانت «أشجان» قاسية! حتّى جدل لها «مؤمن» اللجام الذي يليق بها وزيّنها به، حين أدرك أنّ سكنها ليس في إحكام الوثاق أو قوة القبضة؛ لم يجد سكنها إلّا في انعكاسها بعينيه، وعينيه بها تبتسم في كلّ أحوالها، على قدر ما عاشت «أشجان» السّعادة مع «مؤمن»، على قدر ما هي الآن تخشاه وتخشى أن يعرف في الحزن على يديه! كلّ شيء حولها يدورُ بسرعة وهي ليست مُعتادة على هذا اللّهث، أمعقول انتهى عهدُ «أشجان» مع السلام!

وكأنّ نصيبَنا من الكبد حين تطولَ بنا السّعادة، يلضمه الزمان لنا في مسبحة الأيام، وما أقسى مسابح الماضي حين تنفرطُ تحت أقدامٍ لا تجيد الاتزان.

طرقتْ «صفية» بابَ مكتب «أشجان» قبل أن تدلف إلى داخل حجرة المكتب وهي تحمل عدّة ملفّات بين يديها، وضعت الملفّات على المكتب وهي تقول:

– هذه ملفّات القضايا التي أمرتني بأخذها من الزّبائن بحسب ترتيب حضور أصحابها كما أمرتِ يا أستاذة، كنـ..

توقّفت الكلمات في حلق الفتاة عندما قاطعتها «أشجان» بتلك الجملة:

– حدّثيني عنها يا «صفية».

فهمتْ «صفية» مقصدَها فقطبّت جبينها وأخذت تفرك كفّيها وهي تدور برأسها يمينًا ويسارًا في توتر، أشفقتْ «أشجان» على حال الفتاة وهي تطرف وتميل برأسها، ثمّ تعود وتقيّمها، لا تدري ماذا تقول، أو ماذا تقصّ عليها؟! كم تخشى «صفية» من ردّة فعل «أشجان»، ماذا تفعل إنْ تعبت هنا على سيرة والدتها؟! «صفية» رأسها امتلأ بالتساؤلات ولا تزال «أشجان» تنظرُ إليها قبل أن تكرّر بملامح جامدة:

– حدّثيني عن أمّي يا «صفية»، الأمرُ يسير، فقط احكي لي عن تلك الأيام التي قضيتِها معها، وبالتفصيل لو سمحت، سأسهّل الأمر عليكِ لتخبري «حسين» أنّكما عائدان معي إلى البيت؛ لأنَّ أمّي «إنصاف» تريدكما، واحكي لي عن والدتي في الطّريق، ومباركٌ لكما مقدّمًا.

– «حسين»، لا تبدو أستاذة «أشجان» بخير، إنّها تتنقل في حديثها بسرعة من أمرٍ لآخر، قلبي يخبرني أنّ الليلة لن تمرّ على خير.

نظرَ إليها الشابّ بدهشةٍ، وهمّ أنّ يقول شيئًا لكنّ «صفية» أكملت حديثها:

– هيّا لتحضر السيارة من المرآب أولًا ثمّ سنتحدّث في الطريق.

– في الطريق! إلى أين؟!

– أمّي «إنصاف» تريدنا، ومباركٌ مقدّمًا.. هذا ما أمرتني الأستاذة أن أبلّغك به منذ دقيقة واحدة.

طيلة الطريق و«أشجان» تسأل و«صفية» تجيب، نصف ساعة لم تستطع «صفية» أن تفهمَ لماذا كانت «أشجان» تستحثّها في الحديث عن والدتها وقد بدت جامدة إلى هذا الحدّ وهي تستمع إليها؛ حتّى بلغوا منزلها في السّادسة إلّا الربع مساءً بالتمام، كان المنزل هادئًا جدًّا على غير العادة، فمنذ وصلت «ديمة» إليه والبيتُ صار صاخبًا جدًّا، أو بالغرفة التي تستضيف فيها «إنصاف» على وجه الخصوص.

لا يزال «مؤمن» و«أحمد» بغرفة مكتب الأوّل، بينما «إنصاف» و«ديمة» في غرفة الضّيوف نائمتان، شعرتِ العجوز بهم فانتبهتْ قبل أن تجلس في سريرها مرحبةً بالجميع، خاصّة «حسين»، استدارت باتّجاه «أشجان» وهي تنظر إلى عينيها نظرةً ذات مغزى، فأومأت الأخيرة لها وهي تغمض عينيْها في إشارةٍ منها أنّها نفّذت ما تريده العجوز، التي وضعت في تلك اللحظة راحتها على صدرها، وتنهّدت في ارتياح، قبل أن تتجاذب مع «حسين» و«صفية» أطراف الحديث، وعيناها على «أشجان» مازالت، حتّى أشارت لها برأسها إشارة أنِ الآن.

على الفور فتحت «أشجان» حقيبتها، وأخرجت منها بضعة أوراق ناولتها للعجوز قبل أن تستأذنهم في الذّهاب إلى تفقّد زوجها، همّت أن تخرج من الغرفة فإذا بكفّ صغير يعلق في طرفِ تنّورتها، وصاحبته تضرب

الهواء بقدميها وهي تهمهمُ بغنج الصّغار، وكأنّ الله قد أعلمَ «ديمة» بطبيعة «أشجان»، فقرّرت الصغيرة لمسَ روحها كلّما وقع منها شيء بين بنانها الصّغيرة جدًّا والبريئة جدًّا كذلك، ومَن يستطيع الإفلات من هذا الجمال، ومِن هذه البراءة.. مَن؟!

التقطتها «أشجان» وخرجت بها من الغرفة دون أن تلتفت إلى أحد، وكأنّ الكون قد خلا إلّا منهما! والجميع يراقبون المشهدَ بتأثرٍ صامتٍ حتّى خرجت «أشجان» بـ«ديمة» وكأنّ الأخيرة هي سلامُ الأولى المفقود، فتركت الجميع وراءها، واتّجهت إلى ركنها لكن ليس وحدَها هذه المرّة.. لقد أخذتها «ديمة» وهي التي قلّما يأخذها أحد.

****

تعلّقت «صفية» و«حسين» في رقبة «إنصاف» يعانقاها بحرارةٍ، ودمعهما ينهمر بغزارة يغرقُ وجهيْهما، لا يصدّقان جبرَ الله لهما وكرمَه عليهما في صورة هذه العجوز.

لم يكنْ أيّ منهما يظنّ أنّ هذه الحياة ستكون بانتظاره أبدًا، إنّ أعلى معطيات المنطق كانت تنبئ أحدهما بمستقبلٍ لا يتجاوز أن يمرّ يومه وهو على قيد الإنسانية لا يزال، أعلى مُعطيات المنطق كانت في أن يمرّ النهار وأحدُهما على قيدِ مكان لقمة العيش لا يزال، مُعطيات المنطق كانتْ في أن يجد أحدُهما الآخر ويجمعها غرفة أسفلَ عقار ما أو أعلى سطح ما، على أن لا يفكّرا في رقم أكثر من جمعهما، إلّا أن يجازفا بواحدٍ وهُما لا يضمنان له أية حياة.

لكن.. ما أكرمَ الله حين يأمرُ بكافٍ ونون لَمن لا يملك في واقعه شيئًا إلّا حبّ الله له!

أمّا ما بين «صفية» و«حسين» مِن حبّ؛ فهو حبّ اثنيْن لم يصبهما العمى في البدايات، ولا النّدم في النّهايات بإذن مَن جمعهما، اثنان التقيا على عيوبهما وارتضيا بأحدهما للآخر «خَلْقًا وليس خُلُقًا»، حتّى إن أمطر القدر على أحدهما كان الآخر له مظلّة، وهنا القوامة لصويْحبات العاطفة ممّن أحببن فصدقنَ، وإلّا ما كانت «هي» خير متاع.

ضمّت «إنصاف» كفّيهما إلى صدرها وهي تبارك لهما مسكنَهما، وأبدت لهفتها أن تصبح العقبى لسكنهما عنْ قريب، أخذت العجوزُ تنقل ناظريْها بينهما وهي تنصحهما بحبّ أمّ مبتدئةً حديثها من وجه «حسين»:

– لا شيء يَجْبُر كسْرَها؛ فرفقًا بذاكرةٍ لا تنسى.

أثرُك فيها مرهونٌ بكلّك، منذ أوّل رفعة طرفٍ إلى وجهها كمتأملٍ، وإنّك بعد هذا في ساحها مجاهدٌ في ترك الأثر.

إنْ وعدتَ وفّ، وإن لم توفّ اعْتذر، والأفضل أنْ لا تَعِد بما لا تحتمل الوفاءَ به، وأن لا تحتمل منها ما لم يعْجبك لبعْدَ حين، لا تستعمل معها سيف الحياء فكلّ ما يؤخَذ بسيف الحياء حرامٌ، إنْ أردت لها صلاحًا في الدين فكنْ ذا دينٍ أو اجتهدْ وعلّمها الاجتهادَ دون تعالٍ على كبائرك.

واعلمْ أنّها تستطيع التفرقةَ بين نبرة المحبّ ونبرة المتربّص فاخْفض ورقّ، إيّاك وحاضرٌ لا يُعاش من أجل مستقبلٍ قد لا يأتي، النّفوس صنوفٌ والأرواح جند؛ وأوّل التّناكر كثرة الجدل.

أمّا قبل،

فهي اليوم خلفَ باب وليٍّ، ولها خلفَ ذاك الباب أسرار، وغدًا هي في صدرك؛ لكن بين اليوم والغدِ إنْ كثر النّفورُ فلا تجتهدْ أن تصلَ روحك

بروحٍ منك تنفرُ، تفقد منها الأبعد من قشورها فقد أكبروها على الكتمان والصمتً.

وأمّا بعد،

فإنْ كنت ناكحَها لا مَحالة فتحسّس روحَها كلّ ساعة، وتفقّدْ قلبها بين الحين والحين، اجدلْ لها مِن فهمك ما يسعدُها، انظرْ إليها دومًا من حيث أُمِرت "رفقًا لفرط رقتها"، "واتّقوا لفرط ضعفها"؛ وإيّاك ونُدَب الروح فإنّها تبدأ بكسرة وتُتبَع بحزن وتُخلَف بصمت.. إن قَصُر انهارت، وإن طال تشرنقت.

وإنّك صاحب الدّرجة عليها: "أطعم روح امرأتك قبل جسدِها يا «حسين»؛ يرحمك الله".

ثمّ استدارت إلى «صفية» وهي تبتسم:

– تظلّ حواء تنتظر من آدمِها الحبّ، فإنْ لم تجدِ الحبّ فيه انتظرت وُدّه، ثمّ رحمته، ثمّ معروفه.

أمّا بعد صبرها يا ابنتي، فإنّها تصمت في انتظار الإحسان، فإنْ لم تنلْه طوعًا نالتْه غِلابا.

ولا يغرنّك أنّكِ من ضلع وأنّ الضلوع سمتُها الهشاشة؛ فإنّ هامةً استغنت عن الاسْتناد قد برأت ًمن عِوج الضّعف، ومن ملكت قُوَّتها يا ابنتي ملكت قُوتَها.

مِن جديدٍ عادت «إنصاف» بناظريْها إلى «حسين» وهي تشاكسُه بابتسامة، بينما تستطرد نصائحها إلى صفية:

- إثمُ الحبّ الذي لا غفرانَ له يا «صفية»؛ أنْ لا تسمع المرأة إلّا صوتَها في وقت يكونُ الرجل فيه ذبيحًا، هي طبطبتُك التي لن تُخفِ نُدبَ الجراح فيه، لكنّها توقفُ نزفًا وتنقذُ حياة، الشّدائد مذابحُ يا ابنتي، وإنّ الأوردة تَعنِدُ إذا لم يسمعْ خريرَ نزفها مَن يشاركنا المسافةَ صفر.

واعلمي أنّه ليس بتذلّلك يعود إذا رحل، وليس بسقوطك يزدادُ رصيدك عنده، تعفّفي عن "صدقة الودّ" فلا تنكسري لتطلبيها، فإنّ من تمام الحُبِّ أن يريدكِ المحبّ شامخةً وعزيزة، وإنّ من تمام الوفاء أن تفي لنفسك أوّلًا.

قبضتْ «إنصاف» على كفّ «صفية» بشدّة، وكأنّها تؤكّد على شدّة ما ستقوله:

- ابنتي الحنون، ما وجدت في الحاسدين أشرّ نفسًا إلّا تلك التي تدّعي المحبّة ومِن بين كلماتها يُسمَع الفَحيح، وما وجدت في المحسنين أطيبَ نفسًا إلّا تلك التي تجتنب "كلّ الظّن" وهي تظنّ أنّها بذلك تمتثلُ لكلام الله وتُحسن الظنّ به!

يا طيبة، لقد نهى اللهُ في كتابه عن "كثير من الظّن" لأنّ "بعض الظنّ إثم"؛ لكن أن تُبغَضي جهارًا وتُحصَى عليكِ نعمُك فتؤذي ثمّ تُنفضي عنْ ما آذوكِ سوئه بحسن ظنّكِ، فحاشاكِ إلّا أن يكرّر فيكِ الأذى حتّى تهلكين!، العين حقّ يا «صفية» ومن يمدّ عينيه بالشرّ إليكِ عادةً هو مَن يشاركك الرّؤية إلى ما متّعكِ الله به، فاحذري يا غالية.

صمتتْ «إنصاف» لفينةٍ قبل أن تضمّهما إلى صدرها وهي تدعو لهما:

- أسألُ الله لي، ولكما، عدمَ التفات الرّيم، فالنّار ليست الأسرع إلينا من الجنّة يا أبنائي، ولكنْ ليس مَن سعى في ثباتٍ كمَن يلتفت.

****

السّابعة إلّا خمس دقائق، و«أحمد منتصر» لا يزال غافيًا على الأريكة بغرفة مكتب الدّكتور «مؤمن» داخل شقّته، لقد تركه «مؤمن» حين شعر بعودة «أشجان» من عملها فاستأذنه وذهب يتفقّدها، فتمدّد «أحمد» على الأريكة، ويبدو أنّه غلبه الإرهاقُ فراح في النّعاس، دقّ منبّه هاتف «أحمد» في السّابعة تمامًا، فانتفض من غفوته، وهبّ واقفًا وهو يصرخُ باسم «مؤمن» بلا انقطاع.

لم يهْرَع إليه «مؤمن» وحده، بل الجميع هُرِعوا إلى حيث صاحب الصوت إلى «أحمد» الواقف بوسط غرفة المكتب الخاصّة بـ«مؤمن» وهو يخبرهم:

- لقد بدأت الحرب.

نطقَها «أحمد» وهو يشير إلى الحاسوب فرحًا لأنّ كلّ ما زرعه طيلة ثلاثِ ليالٍ وهو هناك في لندن قد أتى وقتُ حصاده، ظهر أوّلُ منشور مجدول على تلك الصّفحة بالاسمّ المستعار الذي قام «أحمد» بإنشائها منذُ سنوات، والتي سبق ونشر فوقها ألوفًا من الحقائق، وصار ينتظرُ منشوراتها ما يُقارب الخمسة مليون حساب فما فوق.

الحقائقُ هذه المرّة كلّها من نصيب شخصٍ واحدٍ فقط.. كلّ عشْر دقائق منشور، وكلّ منشور بحقيقة مُفجعة عن شقيقه.. «هيثم».. «هيثم منتصر».

لم يكنْ «أحمد» يبقي «هيثم» خارجَ نطاق منشوراته فيما سبق إلّا من أجلها هي.. من أجل «مريم» وسلامة «مريم» فقط، صفقةٌ ووافق عليها «أحمد»

حتّى بلغه أمر إخفاء «مريم»، المرأةُ التي من أجلها تركَ كلّ شيء في السّابق قد وضعه الزمن في اختبارٍ أمرّ من اختبار زواجها من أخيه، أن يتمّ إخفاء «مريم» وهو يعلمُ أين هي، ثمّ يصمت.. لو دفع «أحمد» حياته ثمنًا لحياتها فسيموت وهو راضٍ، بينما حالُ دعاء قلبه: "اللّهم احفظها لي وردّها لي ردًّا جميلًا".

الجميعُ وقوفٌ بألحاظٍ شاخصة، «إنصاف»، «مؤمن»، «أشجان»، «أحمد»، «حسين» و«صفية»، والليلةُ طويلة بما أثارتْه تلك المستندات التي تلقى على كلّ وسائل التواصل الاجتماعي من هناك، من لندن، بينما «أحمد» في مصر! يا لأسلحة الحروب الباردة حين تمسي سلاحًا ذا حدّين! فتصوّب إلى صدور مَن لمعوا فوقها بالكذب والتدليس وقلب الحقائق، ها هي بضاعتُهم ترَدّ إليهم وقد شارف اللّيلُ الدّهيم أن ينقشع.

مِن بين الحقائق في تلك المنشورات المجْدولة التي تنشر تلقائيًّا كلّ عشر دقائق على مواقع التّواصل الاجتماعي؛ بضعة مرئيّات جمعت بين «هيثم» و«عزة» في عدّة أماكن مختلفة، ما أنْ رأت «إنصاف» ابنتَها حتّى خرّت أرضًا وهي تبكي بحرقةٍ، بينما تردّد اسمها:

- «عزة»، ابنتي «عزة».. «عزة».. «عزة».

قطّب «أحمد» حاجبيه وهو ينقل ناظريه بين الجميع في حيرة متسائلًا:

- مَن هي «عزة»؟!

لم تأتِه إجابة مِن أحد، بينما التفّ الجميع حول «إنصاف» يواسونها، ثمّ انسلخَ «مؤمن» منهم، واقترب من «أحمد» قائلًا بصوتٍ منخفض:

- «عزة» هي بنتُ الخالة «إنصاف»، وهي السببُ في كلّ ما جرى ويجري حتّى الآن.

استرسلَ «مؤمن» في حديثِه مع «أحمد»، وأخذ يقصّ على مسامعه كلّ ما جرى من بداية زيارة «إنصاف» لمكتب زوجته «أشجان» وحتّى اللحظة التي تمّمها هو بهذه المرئيات عن أخيه.

- إذًا، فوالد الفتاة هو.. «هيثم»؟!

- نعم، الآن فقط يا «أحمد» قدْ عرفنا أنّ «هيثم منتصر» هو والدُ الصّغيرة «ديمة»، وعرفنا، أيضًا، أنّه كان متزوّجًا عرفيًّا مِن والدتها «عزة»، لكنّه فيما بعد أنكر كلّ شيء، ثمّ حدث ما توالى بعدُ من أحداث.

اقتربَ «أحمد» من «إنصاف» وهو مطأطئ الرأس أسفًا:

- سامحيني يا أمّي، لم أكنْ أقصد نبشَ جرحك، رحمَ الله «عزتنا»، وأيمُ الله إنّ مُصابنا فيها يا أمّ جَللٌ، هي ليست «عزتك» وحدك، هي «عزتنا» جميعًا، وإنّا لابنتها لحافظون.

أدار «أحمد» رأسَه إلى شاشة الحاسوب خلفَه قبل أن يستطرد:

- إنّ ما شاهدته الآن أمامَك على هذه الشاشة ما هو إلّا علامة تشتّت بين دوائر «هيثم» مهْما كثروا مِن حوله، أمْ تظنّين أنّ مَن قام بتصوير هذا،

ومَن أرسله؛ ليس بقريبٍ من «هيثم»؟! بل هو أقربُهم إليه، لكنّه باعَ لَمن لن يبيعه، ففي دوائر أخرى هناك مَن يبيع أخاه، ثمّ يُباع هو قبل أخيه، ولا عزاء لَمن لا عهود لهم ولا وفاء.

على جمْعهم حول «هيثم» إلّا أنّ قلوبهم شتى، لا يأمن أحدُهم الآخر مهْما وجد منه من خير، تجد يُمناهم في سلام، بينما تخفي يُسراهم وراء ظهورهم الخناجر، وعند أقرب مصلحةٍ لهم أو أبعد خطرٍ عليهم؛ يذبح بعضهم بعضًا بلا رحمة، وهذا ما سيحدث عمّا قليل، ستبدو البغضاءُ من قلوبٍ، وأفواهٍ، وأيادٍ، وسيتفرّقون من حول «هيثم» على بغضائهم، هي الكراهية والكراهية تيهٌ؛ بينما المحبّة سلام.

إنّ القلوبَ لا تُقَدّ من دُبُر؛ نحنُ حُمّال المحبّة مَن نخلع أفئدتنا من صدورنا ونهديها لَمن نحبّ، وفي الحبّ لا خزائن لأبعاض المحبّين إلّا أن يلملمها مَن يَفِي؛ حتّى أنك قد تلتفت يومًا ما فتجد أبعاضَك مصانةً كنفائس، عند أبعدِ شخصٍ كنت تظنّ فيه حبًّا، ذلك المجذوب الذي يسير خلفَ خطاك وهو موقنٌ أنّ الحياة أنت، وإنْ كنت حرفًا أو أبعاض صور!

وليتَ «مريم» أدركتْ ما لها من نفائسَ في قلب «أحمد منتصر».

****

حينَ يأتي الطّوفان ما من عاصم ولا منجٍّ إلّا الله، وإن استعصم ابنُ نبي بجبل، كلّ مستعصم بغيرِ الله هالكٌ وإنْ سجد وقدّم كلّ فروض الولاء، في أقلّ من ساعتين انقلبت الدنيا رأسًا على عَقب، حتّى لم يعدْ هناك جحرٌ

يصلح أن يختبئ «هيثم» فيه بعد أنْ أمسى كالفأر المذْعور، الذي غُلّقت المصيدةُ عليه، هي مكالمة هاتفيّة واحدة استقبلها من رقمٍ خاص، مكالمة تحوي رسالةً مختصرة جدًّا بعد أن سأله المتّصل:

– "هل قرأتَ وسمعتَ وشاهدت ما يتمّ نشرُه لك من فضائح على مواقع التواصل الاجتماعي؟!"

حينَ جاءته الإجابة بنعم؛ بادره صاحبُ الصوت قائلًا:

– "إذًا، لتنتحر يا «هيثم»، فإنّك في كلّ الأحوال ميت"!

كان يتصبّب عرقًا كالمُصابين بالحمّى، وأخذ يرجو الرجلَ بصورة أقرب إلى الإذلال، لكنّ المتّصل أغلق الخطّ بوجهه قبل أن يُعطيه أية فرصة للرّد، ثمّ قطعت كلّ خطوط الاتصال عن فيلا «هيثم» وعن هاتفه الجوال كذلك.

الكلّ تخلّى و«هيثم» يعرف جيدًا معنى أنّ الكلّ قد تخلّى عنه، المتّصل كان صادقًا فيما قاله له.. «هيثم» اليوم سقطتْ ورقته، وهو بالفعل في كلّ الأحوال ميت! حاول بضعَ مرّات أن يردي نفسه بطلقةٍ من مسدسه المرخّص، لكنّه لم يملك الشّجاعة أن يطلق الرصاص على نفسه.

يا الله! الكفّ التي طالما حضنتْ مسدسَه بشغف، والأصابع التي طالما ضغطت على زناد نفس المسدّس، وحصدت من الأرواح العشرات، ومِن دون أن يطرف له جفن؛ هي نفس الكفّ التي ترتجف الآن بشدّة ولا تستطيع أن تحصدَ روحًا أخيرة، وبعدها لا حصاد ولا أموات جدد في رقبته،

إذْ هي رصاصة ستخرُج من فوّهة مسدسه إلى رأسه، وينتهي كلّ شيء، ما أغلى الرّوح حين يمسي حاملها هو القاتل وهو المقتول!

مِن مُضحكات القدَر أنّ «هيثم» هو مَن فرّق دمَه بين الخلائق، هي رصاصةٌ تلقّاها في منتصف جبهته؛ ثمّ ستقيّد الجريمة بالنّهاية ضدّ مجهول، نهاية حتمية متوقعة لَمن هو مثله– فمَن كثُر عداؤه تفرّق دمُه.

بينما «هيثم منتصر» أمْسى مهزومًا وهو غارقٌ في دمِه داخل فيلته، كان هناك مَن هُم بطريقهم إلى زوجته «مريم» حيث حبسها «هيثم» في ذلك السّرداب أسفل الفيلا، والذي مدخله من داخل غرفةٍ خلف مبنى الفيلا الضخم، حيث جاوز زرّ صغير أحدَ الإطارات الذي كان يحوي لوحةً زيتيةً ضخمة على أحدِ حوائط الغرفة، ما أن يضغط أحدهم فوق ذلك الزرّ حتّى تدور اللّوحة مفسحةً عن بابٍ تظهر من خلفه سلالمُ ذلك السرداب الخفيّ.

لقد سبق عطره طيفَه كما هي عادتُه دومًا، فاستدارتْ «مريم» إلى باب الغرفة المصفّح وهي تتمتم:

- «أحمد»، «أحمد» هنا! أمعقول؟!

جرتْ «مريم» باتّجاه الباب وهي تطرقه براحتيها من الدّاخل صارخةً باسم «أحمد» حتّى سمعت طرقعة الأقفال وهي تفتح، فتراجعتْ قليلًا إلى الوراء وهي تراقب البابَ من الداخل في ترقّب، حتّى فتح البابُ على مصراعيه، وأحدُهم يقف في الرّدهة أمامها وهو يوليها ظهرَه، أشار براحته إلى الرّجال

مِن حولهم بأنْ (هيّا) فدخل رجلان على «مريم» وجذبا ذراعيْها خلفَ ظهرها، وسوّر أحدُهما معصمها بتلك الأصفاد مرّة أخرى، قبل أن يحجبوا عنْ عينيها الضوءَ تمامًا، كذلك اليوم الذي قادها فيها أولئك الرجال إلى هنا.

هذه المرّة أخذت «مريم» تصرخُ وهي تحاول أن تضرب بجسدها الهواء مِن حولها، ومَن يحاوطها منهم، لكنّ الرجليْن أشدّاء، كلّ محاولاتها لم تهزّ فيهم شعرة.

– إلى أين؟! إلى أين تأخذوني هذه المرّة؟! دعوني.. دعوني أقول لكم دعوني.

لا أحدَ يجيبها على صراخها، لكنْ هذه المرّة هي داخل سيارة ما، والسّيارة بدأت تتحرك بهم على الفور.

أحدُ الرجال في المقعد الأمامي من السيارة، كان يهاتف أحدهم وهو يقول له بصوته الأجشّ:

– نعم، هي الآن معنا، لا تقلقي يا سيدتي، كلّ الأمور ستكون كما تريدين.

ثمّ أغلق الخطّ في خشونة، وأخذ يوجّه سائق السيارة إلى حيث أمرتْه تلك السيدة التي أغلق معها الخطّ الآن.

****

صارتْ فيلا «هيثم» بعدَ قتله تحت الحراسة المشدّدة، وشمّعت أبوابُها بالشمع الأحمر، بعد أنِ استلمت «أشجان» والدتها بموجب المحضر الذي حرّرته قبل ليلة واحدة باختفاء والدتها، ربّما هو القدر الذي جعلها تنفعلُ بالأمس، وتذهب إلى تحرير ذلك المحضر فتملي على الشّرطي كلّ شيء حدث بالفعل، ربّما ما كانت لترى والدتها مرّة أخرى لولا أنّها قد حرّرت ذلك البلاغ في ذلك التوقيت.

لكنْ كعادة الأقدار معها هناك دائمًا ما يفسدُ عليها فرحتها- كفرحتها برؤية والدتها «كارولين» الآنَ بعد كلّ هذه السنين-. إنّ اختفاء صديقتها «مريم» للمرّة الثانية، وتقريبًا بنفس الطريقة التي اختفتْ بها من قبْلُ كان صادمًا لها ولـ«أحمد منتصر» ولزوجها «مؤمن» أكثر من الجميع!

لقد سبقَ أحدهم رجال الشّرطة إليها، عندما وصلت قوّات الشرطة إلى الفيلا لم يجدوا في ذلك السّرداب السّري خلفَ مبنى الفيلا سوى والدتها «كارولين» و«كريستين» ابنة أخيها معها بنفس الحجرة، وآخرين في غرفٍ متفرّقة لا أحد تعرّف عليهم حتّى الآن، لكنّ «مريم» لم تكن منهم.

عَلَا نحيبُ زوجها الدّكتور «مؤمن» عن بكاء صديقه «أحمد منتصر» بشكلٍ مُلفت جدًّا، الغريبُ أنّ «أحمد العاشق» لم يستنكرْ حرارة بكاء «مؤمن» وغزارة دموعه التي تنسال مِن عينيه فتغرقُ وجهه كشلّالين، «أشجان» بين بكاء وغربة تقف مرتجفةً لا تدري ما هو القادم بعد! وهل هو أفضل أم أسوأ، أم أكثر سوءًا؟! لا أحد يدري.

على مضضٍ أقنعتْ «أشجان» «إنصاف» أنْ تنتظرها و«صفية» بالبيت حتّى يعودوا بـ«كارولين» والصّغيرة «كريستين».. و«مريم» التي لا أحدَ يدري أين هي الآن وماذا حدث لها!

سمعتْ «إنصاف» صوتَ المصعد وهو يتوقّف، فهبّت واقفة، وهرولت نحو الباب و«صفية» تسابقها إلى مقبض الباب، لا أحد يعرف مَن الذي أداره أولًا؛ فكلتا راحتيهما احتضنَتَا المقبضَ على ذات الوقت وكأنّهما قد أداراه وفتحتا الباب معًا.

استبقتْ «صفية» «إنصاف» في الوصول إلى «كارولين» أولًا، وحملت عنها الصغيرة التي لا تنفكّ تتشبّث بها بشدّة كلّما حاوطها الغرباء، وهي تبتسم بسعادة وترحاب:

– حمدًا لله على سلامتك يا خالة «كارولين».

لم تُعطِ «إنصاف» «كارولين» فرصةً كي تردّ على «صفية» بل هرولت إلى صدر صديقتِها وجارتها، وارتمت به وهي تحتضنُها بحنين، بينما دموعُها تسيل بغزارة وهي تردّد اسم «كارولين» بلهفةٍ تغالبُ حنين كلّ هذه الأشهر التي لم ترَها فيها.

كانت «إنصاف» تتفقّدها كما لو كانت وليدتها وهي تسألها هل بكِ شيء؟! هل تشعرين بألم ما؟! طمئنيني عليكِ، ماذا فعلوا بكِ هناك يا حبيبتي، أخبريني كلّ شيء، ستخبرينني أليس كذلك؟!

لم تتلقّ «إنصاف» إجابةً من «كارولين»، لكن عيني الأخيرة لم تنفكّان يتأمّلان «إنصاف» دونَ أن يغمضا، إلّا ليطرفا، فيعودان لملامح «إنصاف» من جديد.

بعضُ الزّهايمر يأتي على هيئة المعرفة حين تمحو ذاكرتُنا صورَهم القديمة، وتلتقط أعيننا أخرى جديدة، نفسُ الأشخاص لكن ذاكرة العقل تنكرُهم، وبالنّهاية تقرّهم ذاكرة القلوب، وحدَها ذاكرة القلب لا يُمكن لأيّ واقع أن يمحها؛ فلا عجب أنْ ردّدت «كارولين» وهي تتأمّل «أشجان»، «إنصاف» و«صفية» وكأنّها تحاول أن تتذكّرهنّ بلا طائل؛ قبل أن تعودَ بناظريها إلى «إنصاف» مرّة أخرى وهي بيْنَ بين:

- "أنا لا أعرفك، ولكنّي أحبّك".

****

لقد ذُبحت «مريم» ووجدوا جثّتها ملقاةً في منطقتيْن أبعد ما يكونا عن بعضهما، إذْ وجدوا رأسَها في منطقةٍ وجسدَها في منطقة أخرى، والرّوح التي هي مِن أمر الله قد فاضت إلى بارئها، وكلّ عدمٍ هو عدمٌ حتّى وإن بُثّت فيه الرّوح لبعض العمر.

ليسَ هذا ما أراده «أحمد» من القدر، ليس هذا أبدًا؛ إنّما أراد «أحمد» العيشَ إلى جوارها، وأنْ ينهي حياتَه، واسمُ «مريم» إلى جوار اسمه، أنْ يعيشا ثمّ يموتا معًا، وتبثّ فيهما الروح معًا من جديد.

لماذا لم تعملْ «مريم» بالوصيّة وفقط؟! لماذا لم تكنْ بخير كما أوصاها كلّ يوم وفقط؟! لماذا حين جادَ الزمان عليها بالحرية ذهبتْ هي من الطريق الذي لا يمكنه اللّحاق بها فيه؟!

ما أوجعَ الأكبادَ حين تكوى بالفقد! حين يتكبّد الرّجل عمرَه من أجل الوصول إلى معنى الوطن في اسم امرأة فتأبى إلّا أن تتمزّع كأوطاننا التي نحنُ فيها، غير أنّ «مريم» هي التي في «أحمد»، عرفَ مَن عرف، وجهلَ مَن جهل.

أعيدوها لي يومًا واحدًا، ودعوها تتحدّث في حضرتي، هي ستخبرُكم، هي ستخبرّكم بكلّ شيء، ستقصّ عليكم حكايتنا وسيحضرُها حينئذ كلّ شيء لم تعرفْه منّي، لا تخبروني أنّها لم تكنْ تعرف أنّي أحبّها، وما كنتُ أطمع في أكثرَ من نظرة مُقيم يعرف أن لا صلاة لمن لا وضوءَ لها، وهي يمّي، وأمّي، وابنتي، ووطني المنْحور، ودماها نهْري، أعيدوها لي يومًا واحدًا، وأعدُكم أنّي لن أمسّها غواية إنْ ارتضتني أعلنّاها وأنّي سأنجبها منها «مريم»، وسأولد منها «أحمد»، وسأبعث معها على يقينٍ أنّ الجنّة هي وطن المتعَبين، وأنّ اليقين لَمن أتى الله بقلبٍ سليم، فهاتوا لي «مريم» يومًا واحدًا ودعوها تشقّ عن صدري وتريكم ما في قلبي و«مريم» أحبّ.

غزارةُ الدّمع الذي يهطلُ من عيني «أحمد» يخبرُ النّاظرين بحالِ روحه، وهو الذي لحقَ بركب الصّامتين منذُ أتاه الخبر، لكنّه على صمته فعيناه صاخبتان جدًّا.

والصّاخب النّائحُ هو الدكتور «مؤمن» الذي في اسمه مِن اسمها دونَ أن يعرف أحد، لن تنسى «أشجان» أبدًا وقْعَ الصّدمة الأولى على «مؤمن» زوجها بين تسليمه لقضاء الله، وبين تلك النّار التي كان يتوارى منها بين ذراعي زوجته.

آخرُ ما كانت تتوقّعه «أشجان» أنْ تكون «مريم» و«مؤمن» من نفس الرّحم!

أنّى لأحدٍ أن يعرف و«مؤمن» عاشَ بين أحضان امرأةٍ أخرى وهو يظنّ أنّها أمّه حتّى شارفَ أبوه على الموت؛ فأخبره بالحقيقة التي في انتشارها ما لا يُحمد عقباه، الحقائق ليستْ لمثل أسرةِ والدته، إنّ جدّه لأمّه لم يقدّر أبدًا قيمةَ أنّ ابنته اختارت، وأنّها صار لها حياةٌ مستقلّة وابنٌ!

جدّ «مؤمن» أجبر ابنته على الطّلاق من والده، ومن ثمّ زوّجها لوالد «مريم»، ولمّا حملت والدة «مؤمن» في «مريم» بدأت الصّفقاتُ بين الأسرتين حتّى لا تعلم «مريم» أنّ لها أخًا من أبٍ آخر!

لا أحدَ يعقل أنّ جدّ «مريم» قد أجرى لابنتِه عمليةً جراحية حتّى يعيدها بكرًا من جديد، لأنّه اعتبرَ أنّ زواجها من والدِ «مؤمن» فضيحة، ويجب عليه إخفاءُ كلّ نتائجها! وبالفعل تزوّجها والد «مريم» ولم يعلمْ أبدًا أنّها قد سبقَ لها الزواج، وأنّها لديها ابنٌ.. «مؤمن»!

****

الماضي ليس إلّا وقودٌ في ذاكرة النّاس، به قدْ يحترق أناسٌ ويحرقون كثيرين معهم، وبه قد يُضاء آخرون وينيروا الدّرب لكثيرين حولهم، في الحالتين ينالُ شرر الماضي من حامليه، لكنْ شتّان بين مَن سقط فضَرّ، ومَن علا فنفع.

استيقظتْ «كارولين» من نومها وهي تعاني من ألم شديدٍ في رأسها فأخذت تفتح عينيها ببطء، ثمّ تغلقهما حتّى استوعبتْ أين هي، ظلّت «كارولين» مغمضةَ العينيْن لدقيقتين، لقطات بعينها تومضُ داخل رأسها، وأصوات متداخلة يخيّل إليها أنّها تسمعها، أنصاف وجوه، و.. و..

صرختْ «كارولين» باسْم «مينا» صرخةً مدوّية، جعلت «إنصاف» تسقط الكوب الذي في يدِها داخل حوض المطبخ وهي تهرولُ باتّجاه «كارولين» حتّى وجدت الأخيرة جالسة على طرفِ السّرير وهي تبسط كفّيها على ركبتيها في استسلام، والدّموعُ تسيل من عينيها بهدوء.

– ما بكِ يا حبيبتي؟! «كارولين»، هل أنتِ بخير؟!

– لستُ بخير يا «إنصاف»، لست بخير، أين «مينا» وزوجته؟! أين ابني؟! هل هو بخير؟! أم أنّ ذلك الحادث...

قطعتْ حديثها فجأة وهي تتلفّت حولها باندهاش:

– أين أنا؟! أين نحنُ يا «إنصاف»؟! ما الذي حدث أخبريني! أخبريني..

أزاحت «كارولين» الغطاءَ من فوق قدميها، وهمّت بالنّزول إلى الأرض وهي تدور حول نفسها باستنكار..

- يا ربّ، ما هذا المكان؟! أين نحن يا «إنصاف»؟!

يا الله!، لقد حدثَ ما كانت «إنصاف» تدعو به ليلًا ونهارًا، ويبدو أنّ «كارولين» قد استعادتْ ذاكرتها، ما الذي يجب على «إنصاف» فعله الآن؟!

- اهدئي يا حبيبتي وسأخبرك بكلّ شيء، لكنْ دعيني أوقظ ابنتـ..

قطعتْ «إنصاف» جملتها وهي تشعرُ بالحيرة، ماذا ستقول لـ«كارولين» عن «أشجان»؟! هل تخبرُها باسْمها الحالي أم السابق؟! «أشجان» أم «إيفون»!

وقعتْ عينا «كارولين» على حفيدتِها «كريستين» وهي تحبو على الأرض بمرح، فالتفتت إلى «إنصاف» وقد بدتِ الحيرة على وجْهها تلتهمه وهي تشير إلى الصّغيرة التي لم تنفكّ تضحك بلا انقطاع منذُ رأت جدتها:

- «كريستين»..

هزّت «إنصاف» رأسَها بنعم وهي تتصبّب عرقًا، وتفرُك في كفّيها في توتر، فابتلعت «كارولين» ريقَها وهي تضع كفّها على نصفِ وجهها متسائلة:

- أين «أيلا» يا «إنصاف»؟! أين توأم «كريستين» «أيلا»؟! وأين حماة «مينا»؟! وأين زوجته؟! ما الذي يحدث هنا! أريدُ أن أفهمَ، أرجوك.

نطقتْها «كارولين» برجاءٍ وحيرة وخوف وهي تتشبّث بذراع «إنصاف» مستطردة:

– آخرُ ما أتذكّره هو خروجك من المشفى صباحًا ومعكِ «ديمة» وقد خرجنا نحن في نفسِ اليوم مساءً، لكنّي لا أتذكّر مِن ذلك المساء شيئًا.. أي شيء.

– اهدئي يا حبيبتي، لقد وقعَ لكِ حادثُ سيارة منذُ تسعةِ أشهر على إثره فقدتِ الذاكرة، والحمدُ لله أنتِ اليوم بخير.. وقد استعدتِ ذاكرتك.

– أينَ نحن؟! ما هذا المكان؟! هل نحنُ في مستشفى خاصّ أو ما شابه؟!

ضربتْ «إنصاف» كفًّا بكفّ وهي لا تدري ما تقوله غيرَ أنّها كانت تردّد:

– لا حولَ ولا قوّة إلّا بالله العلي العظيم.

قبلَ أن تربّت على كفّ «كارولين» بعطف:

– هل مِن الممكن أن تجلسي وترتاحي حتّى أجمع لكِ مَن بهذا البيت، وبعدها سنقصّ عليكِ كلّ شيء؟! مُمكن يا حبيبتي.. ممكن يا «كارولين».

في عالمٍ لا يُحسن احتضانَ الطيّبين، احرصْ أن تترك شيئاً منك تحت كلّ ظَفرٍ يحاولُ أن يَخدشَ أبيضَ قلبك، وإيّاك أن تقاوم؛ فكسْرُ أظافرهم فيك كافٍ لقتلك، بينما شيء مِن أبيضك إنْ خُلِّفَ فيهم؛ كافٍ أنْ يحْييهم وإنْ لم تدرك تلك الحياة فيهم بأُمّ عَينيك.

****

بعد أنِ استمعتْ «كارولين» إليهم جميعًا، بدءًا من «إنصاف»، «صفية» وزوجها «حسين»، وصولًا إلى ابنتها «إيفون» وزوجها «مؤمن»؛ لم تستطعْ «كارولين» قبولَ حقيقة ما استمعتْ إليه منهم، وكلّ ما جرى حولها في مدّة تسعةِ أشهر كانت هي فيها فاقدةً لذاكرتها ولولدِها وزوجته وحماتِه وابنتِه كذلك، لا أحدَ يستطيع قبولَ كلّ هذا والتعايش معه.

فاستيقظتْ في صباح اليوم التّالي، وحملت «كريستين» بين ذراعيْها وغادرت شقّة ابنتها «إيفون»؛ متّجهةً إلى محطّة قطار رمسيس، ومنها إلى الأقصر رأسًا.

ارتمتْ «أشجان» بين ذراعي «إنصاف» بعدما رفضتْ والدتها الحياةَ في بيتها، فغادرته وقدْ حملت بنتَ أخيها «كريستين» معها من غير نيّة رجوع إلى «أشجان» مرّة أخرى.

تفتقدُ «أشجان» «مؤمن» كثيرًا، منذُ وفاة أخته «مريم» وحالُه معها لم يعدْ كما كان، لكن الله قد عوّض «أشجان» بأربعة أحبّاء دفعةً واحدة؛ «إنصاف» و«صفية» و زوجها «حسين»، والصغيرة.. «ديمة».

كمْ تعلّقت بالأخيرة كثيرًا وكأنّها قطعةٌ منها، غنْجُها وبراءتها هُما ما يُنسيان «أشجان» كلّ ما هي فيه، لم تعدِ الصّغيرة «ديمة» تفارق حضنَها طالما أنّ «أشجان» بالبيت إلّا عند النّوم، حيث اعتادتْ «ديمة» على روائح جدّتها وحكاياتها كذلك.

كم تنصّت «ديمة» للحكايات وكأنّها تفقهُها حتّى أنّها قد تبكي طويلًا إذا ما سكتت جدتها عن حكاية بعينها بيْدَ أنّ «ديمة» تحبّها كثيرًا.. إنّها حكاية.. («أدماء» والأمير العاشق).

****

التقطتْ «ديمة» كتابًا من فوق أحدِ أرفف مكتبتها الكبيرة، ووقفت للحظةٍ تمسح بكفها فوق اسمه وهي تبتسمُ قبل أن تستديرَ وهي تدير الكتاب بين كفيها ليصبح غلافه في وجه صديقتِها «كريستين» فتردّد الأخيرة اسمه:

- (لحظة تاريخ)! أكان هذا هو أول الكتب التي بحثتِ فيها عن أميرتك يا «ديمة»؟

- كلّا «كريستين»، لكنّي أرشّحه لكِ كبدايةٍ في دربك التاريخيّ، إذ أن الكاتب «محمد المنسي قنديل» قد أضاف الشّغف الذي يشعل القارئ بأسلوبٍ ماتع كحكّاءٍ فجعل ما أوردَه فيه من قصصٍ تاريخية أقرب إلى الرّوايات، وأنا أعرف أنّكِ تعشقين أدب الرّواية لذلك رشّحت لكِ هذا الكتاب أيّتها الشغوفة بحكاياتي عن جدتي.

قالتْها «ديمة» وهي تبتسمُ بينما «كريستين» تضبّ الكتابَ ومجموعة أخرى من الكتب التي وقع اختيارُها عليها من مكتبة «ديمة» داخلَ حقيبتها، ثمّ رفعَتْ وجهَها إلى الأخيرة وهي تعيدُ خصلةً من شعْرها إلى الوراء،

بينما تهمّ بالوقوف مصافحةً إيّاها وهي تشير إلى كتفِ «ديمة» بيسراها قائلة بابتسامة:

– «ديمة»، مشبك حجابِك مفتوح، لو ضممْتك الآن سأشاكُ منه وأتألّم، هلّا أغلقته حتّى أضمّك أيتها المؤرّخة الجميلة.

أغلقت «ديمة» المشبكَ وهي تبتسمُ في وجه صديقتِها بحبّ، ثمّ فتحت ذراعيها لها وتركتها تحتضنُها في سلام.

ما أنْ غادرت «كريستين» مكتبَ المحاماة الخاصّ بصديقتها المقربة «ديمة» حتّى استدارتِ الأخيرة، وابتسامتُها مازالت فوق شفتيها، لترفع طرفَها متأمّلة لتلك العينين اللّتيْن لا تغمضان أبدًا، وكأنّ أمّها قد تركتْ فيهما روحَها قبل أن ترحل! ليصبح مكان صورتها الدائم أعلى رأس «ديمة» أينما جلست أو استلقتْ كذلك، وقفت «ديمة» برهةً من الزمن وهي تتأمل ملامح أمّها بحبّ؛ قبل أن تنقلَ طرفها إلى الإطار الذي يحوي بعضَ الكلمات المدوّنة بخط اليد، والمذيلة باسمها «أشجان عبد الرحمن».

– "مَن قال إنّي كنت أعرف؟! حين كنت ضعيفةً كـ يرقةٍ؛ لم أكنْ أعرف أنّ ذاك الخيط النّابع من روحي لأُغلِّف به ضعفي غالٍ أو حتّى له ثمن، إنّي أَلِفت احتضان ذاتي والوحْدة، وبينما كنت أدور تشرنقت، كنت في حيرةٍ طيلةَ الوقت أين حللت!، ربما مِتُّ داخلي ألفَ مرة، ولم يكنْ أحدٌ يدري شيئًا عن آلام خروج روحي.

أما بعد، شقّت نداءات التّحليق شرنقتي، وتركتْ لهم خيوط الحرير ثمنًا للحرية.

لا شيء في هذا العالم بلا ثمن.

(أشجان عبد الرحمن)

أنهتْ «ديمة» قراءةَ كلمات أمّها التي ورثتْ عنها عشقَها للمحاماة والدّفاع عن حقوق الناس وتبنّي القضايا كأماناتٍ وليس كممارسةٍ لمهنةٍ يعتمدُ النجاح فيها على الوصول إلى ثغرات القانون، ثمّ قلْب الحقائق فيصبحُ الباطل حقًّا، والظّالم مظلومًا!

حمدتْ «ديمة» اللهَ على وجود أمّ كـ «أشجانٍ» بحياتها، بينما تنتقلُ بطرفها إلى صورة جدتها «إنصاف» المعلقة إلى جوار مكتبتِها الضخمة في زاوية الغرفة وهي تتنهد في امتنان.

كلّ هذه الكتب المتراصّة إلى جوار بعضها هناك، وكأنّها في عناقٍ أبديّ لا يسمح حتّى لزلزالٍ أن يوقعَ أحدها دون الآخر، وجميعُها سعيدٌ بهذا، ما تراصّت هكذا إلّا بفضل تلك الشّرنقة التي وضعتني بداخلها جدّتي التي في الصّورة هناك، والتي أشعلت في نفس يرقتها عشقَ الدّوران حول الذّات مع الكثير من الشّغف تجاه البحث عن صحّة ما أوردته في حكاياها القديمة، كانت الجدّة تقصّ الحكايات بثقة وكأنّها قصصٌ مؤرّخة بالفعل، وتلك العجوز الجميلة التي رحلتْ بالموت إلى حياةٍ أخرى؛ قد انتقت من بينها بعناية ما تربّي حفيدتها به، وعليه.

لم تكنْ «ديمة» قد تجاوزت العاشرةَ من عمرها حين وافت جدّتها المنيّة، افتقدت الفتاة حكايات جدّتها كثيرًا، حتّى أنّها كلّما أغمضت جفْنيها رأت جدّتها وهي تقصّ لها حكاية الأميرة «أدماء» والأمير «يعقوب» كما كانت تقصّها عليها دومًا كلّ ليلة، بفضل تلك الحكاية بدأتْ «ديمة» رحلةَ البحث عن أميرتها في كلّ كتابِ تاريخ تقع عيناها عليه، ورغم أنّ الجميع قد أكّد لها أنْ لا صحّة لهذه الرواية في أيِّ عهدٍ من العهود التاريخية السابقة إلّا أنّها ما زالت تبحثُ بيقينٍ عن السّمراء «أدماء» التي وهبتْ لله أربعةً من أولادها، والتي لُقِّب بفضْلها «يعقوب» بـ (الأمير العاشق).

****

[تمّت بحمد الله]

إهداء التتمة:

إليكِ

من أم النون

(دعاء بنت عليّ)

إليكِ أيتها النون الزائدة على كلّ الألفاظ الذكوريّة

إليكِ أيتها الأنثى أينما حللتِ

تحية طيبة وبعض الطيبات وألف سلام ..

"أي كلّ "صغيرة" ماكثة في زاوية غرفتك ترقبين المستقبل في صمتٍ وسلام، تحية طيبة من "كبيرةٍ" علقت في ذاك المستقبل وبعد:

إياكِ يا صغيرتي وسفن الاقلاع قصيرة المدى، التي تظنين أن في الإبحار على متنها حلولًا مؤقتة من أجل تغيير حياتك الدائمة.

إياكِ والاستسلام للتدرج في التنازل عن بعضك الذي هو (الجسد)، من أجل حرية كلك التي هي (الروح)؛ فالجسد شطر الروح وإن كفرتِ بهذا عقودًا.

إياك وفاجعة كلّ الحقائق بعد أن يمر العمر وأنتِ تتمزقين بين صمت اللا مبالين، وغير المقدرين، والكافرين بكِ وبشتاتك وبعض وهنك.

إياكِ وقرارًا يؤخذ في هدنة حروبك مع كلّ الكافرين بكِ، فتجدين نفسك مع كبيرهم وأنتِ بلا فأس إبراهيم، أو حكمة الخضر، أو صبر أيوب، أو استغفار يونس، أو رزق يوسف وإن كنتِ تجمعين في خصالك منهم جميعهم، وتحملين في طياتك إيمان أمة.

(دعاء علي)

****